الفصل الثاني

معابر الثقافة الإسلامية إلى الغرب

هذا الفصل سأتكلم فيه من خلال المباحث الآتية :

المبحث الأول

أسبانيا قبل الفتح الإسلامي

كانت أسبانيا في الفترة الأخيرة من الحكم القوطي تعاني ضعفاً سياسياً و اجتماعياً يجعلها فريسة سهلة لأي غاز يغزوها من الجنوب أو من الشمال، وكان المجتمع الأسباني في ذلك الوقت ينقسم إلى طبقات يسيطر بعضها على بعض.

أهم الطبقات الاجتماعية في أسبانيا قبل الفتح الإسلامي :

١ – الطبقة العليا المكونة من الملك والنبلاء :

لم يكن الملك يعين بالوراثة بل كان يعين عن طريق الانتخاب، فالنظام كان ملكيا انتخابيا، لكنه أدى في النهاية إلى تنافس بين النبلاء للوصول إلى الحكم، مما أدى إلى كثرة المؤامرات بينهم ، الأمر الذي أدى إلى إضعاف قوة الدولة، و كان أفراد هذه الطبقة يملكون نفوذا غير محدود ولهم ممتلكات عقارية كثيرة وكانت هذه الممتلكات معفاة عن الضرائب.

٢ – طبقة رجال الدين :

كان الدين في العصور الوسطى في إسبانيا له نفوذ واسع، وكان رجال الدين يتمتعون بنفوذ غير محدود سياسيا وروحيا، إذ كانوا يشاركون النبلاء في انتخاب الملك، وأيضا كانت لهم ممتلكات عقارية معفاة من الضرائب.

٣– الطبقة الوسطى :

هي الطبقة الحرة التي تمثل الشعب، كثرتها تدل على رخاء المجتمع ، وقلتها تدل على اختلاله، وفي الفترة الأخيرة من الحكم القوطي، كان عدد أفراد هذه الطبقة قليل، كما كانوا مثقلين بالضرائب، وهذا ظلم اجتماعي بالمقارنة بينهم وبين الطبقتين السابقتين.

٤ – الطبقة الدنيا أو طبقة العبيد :

هذه الطبقة هي الأكثر عددا في المجتمع القوطي في الفترة الأخيرة من الحكم القوطي، كان معظمهم يعمل في مزارع النبلاء، وكانوا ملكا لصاحب الأرض ، وكانوا ينقلون مع الأرض إذا بيعت لشخص آخر، كالعبيد تماماً بتمام .

٥ – طبقة اليهود :

كان اليهود يقومون بالأعمال المالية والحسابية في دواوين الحكومة، وكانوا مكروهين في المجتمع الأسباني لاختلاف عقيدتهم الدينية، ولذلك تعرضوا لكثير من الاضطهادات، فاضطروا أحيانا لقلب

نظام الحكم بالثورات، وأحيانا عن طريق المؤامرات ، وإثارة النزاعات والاختلافات وهذه أخلاقهم حتي اليوم .

وكانت الحالة الاجتماعية في أسبانيا قبل الفتح الإسلامي تعاني الفساد والتفكك وعدم التماسك، في وقت أصبحت فيه الأراضي المغربية المقابلة لأسبانيا قوة متماسكة يتيح لها الفرصة للتدخل بها.(١٢١).

السبب المباشر للفتح الإسلامي لأسبانيا :

تختلف الرواية العربية عن الرواية الأسبانية حول السبب لتدخل المسلمين في إسبانيا ، **والرواية العربية** ترجع بذلك إلى قصة انتقام شخصي، والقصة تقول : إن" الكونت وليان " (١٢٢) حاكم سبتة كانت له ابنة جميلة اسمها " **فلورندا** " وأن الكونت أرسلها إلى القصر الملكي القوطي في طليطلة لتتأدب وتتعلم كغيرها من فتيات الطبقة الراقية، فرآها الملك القوطي لوذريق Rodrigo وأحبها فاعتدى عليها، فكتبت رسالة إلى أبيها تخبره وتشكو له ما حصل، فذهب يوليان إلى القصر وأخذ ابنته من هناك، وأصبح يوليان يريد الانتقام فاتصل **بموسى بن نصير** وأقنعه بغزو أسبانيا مبينا له سوء الاحوال فيها فاستجاب موسى لطلبه و أقدم على الغزو بعد أن استأذن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك.

أما الرواية الإسبانية فتقول: إن الملك القوطي أكهيلا" Akhila " عندما عزل من ملكه ذهب أنصاره إلى حليفه الكونت يوليان حاكم سبتة طالبين منه المساعدة، فقادهم يوليان إلى موسى بن نصير بالقيروان حيث تم الاتفاق على أن يمدهم موسى بجيش من عنده ليرد إلى ملكهم المعزول عرشه بشرط دفعهم جزية سنوية للعرب.

ومن الأسباب التى أدت إلى فتح أسبانيا ما يأتي :

أولا : إن أهم مقاصد الجهاد التي شرع من أجلها تبليغ رسالة التوحيد ، بكسر جميع الطواغيت التي تحول بينها وبين الناس ، ودعوة الناس إلى الإسلام من غير إكراه ولا إجبار ، بل عن طواعية واختيار. (١٢٣) يقول الله تعالى : ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ البقرة: ١٩٣

قال قتادة رحمه الله : " حتى لا يكون شركٌ ، "ويكون الدين لله" : أن يقال : لا إله إلا الله ، عليها قاتل نبيُّ الله ، وإليها دعا . " (١٢٤).

ثانيا: كانت " أسبانيا " واسمها القديم " أيبيرية " خاضعةً للإمبراطورية الرومانية ، وفي مطلع

---

١٢١ - موقع المعرفة بالشبكة الدولية الانترنت .

١٢٢ - يوليان كان ملك سبتة الواقعة في المغرب الأقصى، تلك المدينة التي استعصت على المسلمين لحصانة أسوارها، ولحكمته. ولكن كان لديه أعداء في غرب أوروبا، ومنهم لوذريق، أحد قواد الجيش القوطي الذي استولى على عرش أسبانيا بعد وفاة غطشة، واغتصب حق أولاد الملك الراحل سيزوس، واعتدى على ابنة يوليان فلوريندا التي كانت تعيش في بلاط غطشه بغرض التعليم. لذلك ذهب الي طارق بن زياد يطلب منه العون في قتال لوذريق ويعرض عليه مساعدته في الاستيلاء على الأندلس.(ويكيبيديا الموسوعة الحرة .https://ar.wikipedia.org/wiki/)

١٢٣ - موقع المعرفة بالشبكة الدولية الانترنت.

١٢٤ - جامع البيان في تأويل القرآن - محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) (٥٦٧/٣) المحقق: أحمد محمد شاكر - الناشر: مؤسسة الرسالة- الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

القرن الخامس الميلادي – أي حوالي عام ٤١٠ م اجتاحتها قبائل " القُوط " الأريوسية المذهب ، وأسسوا فيها دولةً قُوطِيَّة عاصمتها " طليطلة. "

ومن هنا نفهم أن شعوب " أسبانيا " الأصلية من الكنعانيين الكاثوليك كانت – قبل الفتح الإسلامي – خاضعة للنفوذ القوطي ، وتكوَّنَ سكانها من طبقات أربعة متناقضة متصارعة : طبقة القوط الحكام المستعمرين ، وطبقة الأعيان الرومانيين ومعهم الإقطاعيون ورجال الدين ، وطبقة اليهود ، وطبقة الشعب العامل من سكان البلاد الأصليين . فهي بلاد محتلة مضطهدة أصلا ، ولم تكن تحت حكم سكانها الأصليين ، ولم يكن المسلمون هم المبتدئين للاحتلال ، إنما خلصوا البلاد من احتلال ظالم إلى بلد مسلم يختار أهله عقيدة المسلمين ، وينتسبون إلى دولتهم.

ثالثا : زيادة على الاحتلال الذي فرضته القبائل القوطية الغربية على بلاد أسبانيا ، كان التسلط والظلم والاضطراب سمةً بارزة في فترة حكمهم التي امتدت نحو ثلاثة قرون.

" لكن سلطانهم لم يستقر في البلاد أول الأمر بسبب ما ثار بينهم وبين أهل البلاد من منازعات دينية ، وبسبب ما شجر بين أمرائهم من خلافات ، ولهذا ظلت البلاد طوال القرن السادس نهبا للحروب الأهلية ، وما ينجم عنها من الفوضى وسوء الحال...– حتى كان آخر حكام القوط – واحد اسمه " رودريكو " (لوذريق)...والظاهر الذي لا تستطيع المناقشة إخفاءه أن الرجل كان يشعر باضطراب الأمر عليه ، وأنه ظل حياته متخوفا من وثبة تكون من أحد أعدائه الكثيرين ؛ لأن هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد " غيطشة " وحدهم – الذين استولى " لوذريق " على ملكهم – بل كانوا في واقع الأمر جلة الشعب الإيبيري الروماني واليهود ، أي معظم أهل البلاد التي اقتحمها القوط عليهم " (١٢٥) .

وقد حاول كثير من المؤرخين الإسبان أن يدافعوا عن دولة القوط – تعصبا منهم في رفض الوجود الإسلامي في تلك البلاد – إلا أن كتب التاريخ مليئةٌ بالأدلة على ما ذكره الأستاذ حسين مؤنس في شأن رفض أهل البلاد حكم القوطيين ، حتى نقل في (ص/ ١٠) عن " رفائيل بالستيروس " المؤرخ الإسباني قوله : إن العرب لو لم يتدخلوا في سنة ٧١١هـ في شؤون الجزيرة ، ويضعوا نهاية لهذا العصر المضطرب ، لَبَلَغَ القوطُ بإسبانيا مبلغا من السوء لا يسهل تصوره.

رابعا: لما اشتد ظلم حكام القوط في تلك البلاد ، وضاق الشعب بهم ، أرسلوا إلى المسلمين يطلبون منهم تخليصهم والنجاة بهم ، فقد أجمعت المصادر العربية على ذكر إرسال حاكم " سبتة " واسمه " يوليان " أو جوليان " إلى **موسى بن نصير** يطلب منه دخول البلاد وتخليصهم من شر " **لوذريق** " ، كما تذكر كثير من المصادر إرسال أبناء " غيطشة " إلى موسى بن نصير يستنجدون به على مَن غصبهم ملك أبيهم ، بل إن المصادر التاريخية الغربية تنسب إلى اليهود المضطهدين في " أسبانيا " من قبل القوط استنجادَهم بمَن وراء البحر من " الأفارقة " أو " المسلمين " ليخلصوهم من ظلم " لوذريق " وأعوانه ، وهو أمرٌ وإن أنكره بعض المؤرخين ، غير أن المتفق عليه بينهم أن اليهود تعرضوا في تلك الفترة إلى اضطهاد كاد يفنيهم ولا يبقي لهم أثرا . (١٢٦)

وفي النصوص الباقية الموروثة كثير من الأدلة على أن الأسبانيين استقبلوا المسلمين استقبال الفاتحين ، ومن ذلك : " فلما نزل الجزيرة ، قيل له : اسلك طريقه ، قال : ما كنت لأسلك طريقه . قال

---

١٢٥ - فجر الأندلس، لحسين مؤنس- ص: ١٨،٨-١٩، بتصرف واختصار.
١٢٦ - انظر : فجر الأندلس" ص-١٤.

له العلوج الأدلاء : نحن ندلك على طريق هو أشرف من طريقه ، ومدائن هي أعظم خطباً من مدائنه ، لم تُفتح بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله " انتهى .

ويقول أيضاً : " ثم سار إلى مدينة قرمونة ، فقدَّم إليها العلوج (١٢٧) الذين معه ، وهي مدينة ليس بأسبانيا أحصن منها ، ولا أبعد من أن ترجى بقتال أو حصار ، وقد قيل له حين دنا منها : ليست تُؤخذ إلا باللطف ، فقدَّم إليها علوجاً ممن قد أمنه واستأمن إليه ، مثل " يليان " ، ولعلهم أصحاب " يليان " ، فأتوهم على حال الأفلال ، معهم السلاح ، فأدخلوهم مدينتهم ، فلما دخلوها بعث إليهم الخيل ليلاً ، وفتحوا لهم الباب ، فوثبوا على حراسه ، ودخل المسلمون قرمونة " (١٢٨).

خامسا : بل إن بعض أساقفة النصارى شاركوا في مساعدة المسلمين على الفتح ، منهم " أوباس " أسقف " إشبيلية " (١٢٩) .

وجاء في سيرة القديس " سانت ثيودارد" رئيس أساقفة " أربونة " الذي عاش حوالي سنة (٢٦٦هـ) أنه لما دخل المسلمون لأول مرة إلى " لانجدوك " ، انحاز اليهود إليهم ، وفتحوا لهم أبواب مدينة " طولوشة " . والمسلمون يؤمنون بأن نصرة المظلوم وإحقاق العدل والسلم من أعظم مقاصد الجهاد في الشريعة الإسلامية. " الإسلام ينظر إلى الرعايا الذين يُحكَمون بالظلم ويُقيدون في حرياتهم نظرة رحيمة عاطفة ، ينصرهم إذا استنصروه ، ويرفع عنهم نير الطغيان إن هم استعانوا به " (١٣٠) . وذلك ما شهد به بعض اليهود حين أدركوا عظيم الفضل الذي أسداه المسلمون لهم في توفير حياة كريمة ، وحرية لم يشهدوا لها مثيلا عبر تاريخ وجودهم في أوروبا كلها . يقول حاييم الزعفراني اليهودي " لقد عرفت اليهودية الأندلسية في مجموعها حياة أكثر رخاء ، وأكثر اطمئناناً ، كما لم تعرفها في مكان آخر " (١٣١) . و" كان اليهود قد عانوا خلال قرون الكثير من الشقاء والبؤس ، حيث كان الملوك الإسبان القساة الغلاظ بعيدين كل البعد عن الشفقة والرحمة . وعندما دخل المسلمون إسبانيا لم يكتفوا بتحرير اليهود من الاضطهاد ، ولكنهم شجَّعوا بينهم نشر حضارة كانت توازي بخصبها وعمقها أشهر الحضارات في مختلف العصور " (١٣٢)

سادسا : ويُتَوَّجُ ما سبق بالقطع واليقين ، حين نستحضر أن فتح تلك البلاد لم يستغرق إلا نحو ثلاث سنين (٩٢هـ – ٩٥هـ) وصل فيها المسلمون إلى فرنسا ، ولم يشارك فيه إلا بضعة آلاف من الجنود ، مما يقطع لك بأن الأمر لم يكن فتحا عسكريا بالقدر الذي كان فتحا فكريا وعقائديا ، آمن فيه سكان " أسبانيا" بعقيدة المسلمين ، واختاروا – عن حب وطواعية – التسليم لهذا الدين الجديد ، والتخلص من طغيان الكنيسة والإقطاع الذي كان سائدا قبل المسلمين ، إن التحول إلى الإسلام في الأندلس لم يتم إلا عبر حركة الأفكار وتصارعها ، ثم هيمنة القوة ، التي شكلت عصب الحضارة

---

١٢٧ - والعِلْجُ: واحد العُلوج. والعِلْج: العَيْرُ المُسْتَعْلِجُ الخَلْق. والفِرْجُ: الَّذي لا يكْتُمُ السِّرَّ.(معجم ديوان الأدب -المؤلف: أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، (المتوفى: ٣٥٠هـ) ج١/١٧٩ ، تحقيق: دكتور: أحمد مختار عمر-مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس - طبعة: مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة - عام النشر: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م. والعلج: الرجل القوي الفخم وكذا "يريد بالعلج" بالعلج الرجل من كفار العجم وغيرهم، والأعلاج: جمعه ويجمع على علوج.النهاية في غريب الحديث "٢٨٦/٣".وانظر: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال- المؤلف: علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي (المتوفى: ٩٧٥هـ) ج٣/٧٨٠ ، المحقق: بكري حياني - صفوة السقا- الناشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

١٢٨ - أخبار مجموعة في فتح الأندلس: ص-٢٤.

١٢٩ - العرب لم يغزوا الأندلس: ص-١٨٧.

١٣٠ - تاريخ النصارى في الأندلس" ص-٤٥، و"العلاقات الدولية في الإسلام" للشيخ محمد أبو زهرة .

١٣١ - ألف سنة من حياة اليهود في المغرب- ص/١٣ .

١٣٢ - أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي" ص/٤٩

العربية الإسلامية في ثلاثة أرباع العالم يومها ، ورغم ما في الكتاب من مغالاة في نقد كل ما اشتهر في تاريخ الأندلس ، إلا أن الذي يهمنا فيه بعض النصوص التي توحي بأن دخول الإسلام الأندلس لم يكن اعتراضا وقهرا ، بل كان فتحا للقلوب وتنويرا للعقول ، وليتحمل القارئ الكريم طول النص المنقول ، فإنه من أبدع النصوص التي كتبها أعداء الإسلام في أمر يثيره كثير من الحاقدين . (١٣٣).

" هكذا يتضاءل الغزو الأجنبي إلى حادث عرضي في حرب أهلية ، فهل يبقى من صلة بين هذا الحدث العسكري من جهة ، وبين اعتناق الأيبيريين الإسلام ، ثم نشوء حضارة إسلامية في أيبيريا من جهة ثانية ؟(١٣٤)

وفي الأبحاث المتعلقة بخرافة الغزو جاءت الأرقام دقيقة ، وصل طارق بن زياد بسبعة آلاف رجل لهزيمة رودريك ، وجاء موسى بن نصير على رأس ثمانية عشر ألف رجل ليخضع الأيبيريين لسلطانه ، أحدث خمسةٌ وعشرون ألف رجل هذا التحول الهائل في اللاتينية والمسيحية والزواج الأحادي ، في ضربة واحدة بدَّل الأيبيريون أعرافهم وتقاليدهم وديانتهم ، بعد هذا الإنجاز العظيم يبادر العرب دون أي تعزيز لقواتهم ومواقعهم إلى غزو فرنسا! ومع ذلك يبقى من المطلوب تفسير كيف يمكن أن تتم عملية تحويل شعوب أيبيريا المحصَّنة جغرافيا وطبيعيا بهذه السرعة ، ومن قبل حفنة ممن نسبت إليهم المعجزات ، خصوصا أن الأيبيريين والغزاة لم يكونا من أصل مشترك. (١٣٥).

ومن البديهي أن جيشا من هذا النوع كان سيذوب بين الجموع إذا ما خاطر بنفسه وتوغل في عمق البلاد ، هذا فضلا عن أن الأيبيريين خلال تاريخهم الطويل لم يكونوا شعبا مسالما في مواجهة مثل هذا النوع من الأحداث ، ألم يكن من الممكن أن ينظموا حرب "العصابات" التي كانوا قد قدموا وصفتها إلى العالم بأكمله ؟!(١٣٦).

ماذا فعل الأيبيريون في هذه الأثناء ؟ بعد سنة ٧١١م ، لم يحدثنا التاريخ عنهم ، مع هذا فإن عشرة ملايين نسمة – على أقل تقدير – لم يختفوا هكذا بضربة سحرية في تلك الحقبة السعيدة ، ولم يكن هناك وسائل إبادة جماعية ، وكان يلزم الفاتحون الكثير من الوقت والعمل لجزر هذا العدد بالسيف ، لا يمكن لأودية "أشتورش" الصغيرة استقبال هذا العدد من اللاجئين ، يكفي هذه الأودية أنها شكلت حصنا للمتمردين القلائل الذي سيشكلون فيما بعد نواة المملكة المسيحية ، هكذا تم إخفاء عشرة ملايين من الأيبيريين من صفحات التاريخ ، فإذا كان اجتياح أرض مسيحية من قبل " الكفار " قد بدا بهذه الضخامة ، بماذا يمكننا إذن أن نصف اعتناق شعبها الإسلام ، وتمثله الحضارة العربية الإسلامية ؟ إما أن يكونوا جميعهم قد قتلوا ، وإما تم استرقاقهم عبيدا ، أو لجؤوا إلى الجبال ، أو ببساطة قد تم تجاهل وجودهم من قبل المؤرخين. لماذا وكيف اعتنقت الجماعات الإنسانية التي كانت متمركزة في المقاطعات البيزنطية في آسيا ومصر وأفريقيا الشمالية وشبه جزيرة أيبيريا إيمانا جديدا ومفهوما جديدا للوجود ؟ قد يسهل تحويل خرافة الغزوات العربية المستحيلة جغرافيا وتاريخيا إلى حقيقة ، ولكننا لا يمكننا أن ننكر أن حضارةً عربية إسلامية قد امتدت في جميع هذه الأصقاع . لذا يصاب الباحثون بالدهشة حين يعرفون من خلال الروايات عدد الغزاة : خمسة وعشرون ألف رجل

---

١٣٣ - موقع المعرفة بالشبكة الدولية الانترنت.
١٣٤ - المصدر السابق .
١٣٥ - المصدر السابق .
١٣٦ - المصدر السابق .

أهلكوا عشرة ملايين!! (١٣٧).

وفي الواقع استمرت عملية اعتناق الدين الإسلامي واكتملت خلال قرنين أو ثلاثة قرون ، فكان اعتناقا كاملا أو نهائيا ، لم يترك سوى بعض الجزر التي بدا وجودها مشكوكا فيه . كيف إذًا يمكن تفسير هذه العودة عن المسيحية واعتناق الإسلام بقوة السلاح ؟ وماذا كانت نتيجتها ؟ .

بعض المؤرخين قَبِلَ الإجابة التقليدية الجاهزة عن هذه الأسئلة ، وبعضهم الآخر أصيب بتشوش فكري . لم يتمكن هؤلاء من فهم كيفية خضوع شعوب مصر والمقاطعات البيزنطية لما يسمونه بـ "قوانين البدو" ، لقد أثبت " **كزافيي بلان هول** " في كتابه " **العالم الإسلامي** " أن الإسلام كان دائما دين المدن ، مع هذا لنفترض أنهم أُخضعوا بالقوة من قبل جماعات البدو ، فلماذا تنازلوا لهؤلاء البدو عن كامل حضارتهم ؟(١٣٨).

لقد كانت المقاطعات البيزنطية تتمتع بحياة مدنية متقدمة ، وكانت المدن المزدهرة كبيرة ، وكان عدد سكان أنطاكيا حوالي ٣٠٠ ألف نسمة ، وكان من بين الأربع مائة أسقفية بيزنطية ثلاث مائة وواحد وسبعون أسقفية موجودة في آسيا ، من هنا تظهر أهمية النصر الإسلامي على المستوى الفكري . هل يتعين علينا أن نتصور أن أبناء المدن قد فُتنوا بمدنية أولئك المتدفقين من تلك الوحشة الواسعة ؟ يبدو الأمر مستحيلا إذا لم يكن لدى هؤلاء البدو غير السيف .

إن التعصب الديني وسوء الفهم الناتجان أحيانا عن انعدام الوعي وأحيانا عن الإرادة الواعية والمتعاظمان مع الزمن أخفيا – تحت جملة من الأكاذيب والخرافات – قسما هاما من تاريخ انتشار الإسلام على طول السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط ، وانسجاما مع مفهوم بدائي للتاريخ فسرت التحولات الروحية والاجتماعية والثقافية العملاقة في القرنين السابع والثامن – في عالمي الشرق والبحر المتوسط – كنتيجة لغزوات عسكرية فرضت اللغة والحضارة والدين بالسيف المعقوف !! الإكراه لا يفسر كل شيء في الواقع : إن المؤرخين قد خلطوا بين انتشار الأفكار العبقرية التي تحملها حضارة ما ، وبين القدرات العسكرية التي لا تسمح إلا بنشوء إمبراطوريات وقتية تزول مع الزمن . لقد خلطوا بين القوة العقلية والقوة المادية . نستنتج من دراسة الحركات المشابهة أن انتشار الإسلام كان نتيجة الفكرة القوة ، وليس نتيجة للقدرة على الهجوم العسكري المسلح ، فمثلما سيطرت " الهيلينية " فيما مضى ، ويسيطر الغرب اليوم ، فإن سيطرة الإسلام لا يمكن أن تكون إلا ثمرة لحركات أفكارقوة. أما الاستمرار في الاعتقاد بأن شعوبا تغزوهم في بلادها حضارة هادمة ، قد تركت معتقداتها وغيرت عاداتها لأن حفنة من الفرسان الميامين قهرتها عسكريا ، فلا يوحي إلا بمفهوم صبياني سخيف للحياة الاجتماعية . يجب أن يتقلص الجانب العسكري من الأحداث إلى دور ثانوي يتعلق بتفاصيل طرائف الحياة الشخصية . يجب فهم المشكلة في المجال الفكري والثقافي . لم يكن هناك عدوان عسكري ، بل أزمة ثورية ، ودعوة حملها الفقهاء وليس الجنرالات . إن العلماء وحدهم يدركون حركة الشعوب ويقدرون على قيادتها ، أما السيادة العسكرية فلا يمكن أن تستمر ثمانية قرون في الأندلس ، وإلى الأبد في مساحات شاسعة من العالم ".(١٣٩) .

الأندلس التسمية التي تعطى لما يسمى اليوم شبه الجزيرة الأيبيرية (جزيرة الأندلس) في الفترة

---

١٣٧ - المصدر السابق .

١٣٨ - موقع المعرفة بالشبكة الدولية الانترنت.

١٣٩ - من المراجع التاريخية المستفاد منها : "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" لابن عذاري المراكشي (٢-٩) ، "نفح الطيب" للمقري ٢٢٩/١-٢٦٣ وغيرها) (١٣٩).

ما بين أعوام ٧١١ و١٤٩٢ م ، التي حكمها المسلمون .تختلف الأندلس عن أندلسيا التي تضم حاليا ثمانية أقاليم في جنوب إسبانيا. تأسست في البداية كإمارة في ظل الدولة الأموية في الشام، التي بدأت بنجاح من قبل الوليد بن عبد الملك (٧١١-٧٥٠)، بعدها تولتها دولة بني أمية في الأندلس عبد الرحمن الداخل وبعد سقوط دولة بني أمية تولت الأندلس ممالك غير موحدة عرفوا بملوك الطوائف، ثم وحدها المرابطون والموحدون قبل أن تنقسم إلى ملوك طوائف مرة أخرى وزالت بصورة نهائية بدخول فرناندو الثاني ملك الإسبان مملكة غرناطة في ٢ يناير ١٤٩٢ م ، أصلها جزيرة الأندلس . (والأندلس قد تكون محرفة من وندلس، إذ اعتادت العرب إبدال الواو ألفًا)، والأندلس لدى العرب القدامى هم فاندال، وهم شعب جرماني نزحوا من جرمانيا(ألمانيا وبولندا، حاليا) إلى أيبيريا (إسبانيا والبرتغال، حاليا)، وانتقل جزء كبير منهم أيضا إلى شمال أفريقيا بعد أن غزا القوط الغربيون أيبيريا) يتأصل القوط الغربيون من منطقة البحر الأسود، كانوا قبائل آرية) ذكر ابن عذاري المراكشي في كتابه :البيان المُغْرِب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب» : وقيل أن أول من نزل الأندلس بعد الطوفانَ قوم يُعرفون بالأندلش (بشين معجمة)، فسميت بهم الأندلس ، بسين غير معجمة...أطلق المسلمون اسم الأندلس على شبه الجزيرة الأيبرية، وهي تقابل كلمة "فاندالوسيا" (وهي مشتقة من اسم الوندال) التي كانت تطلق على الإقليم الروماني المعروف باسم باطقة الذي احتلته قبائل الوندال الجرمانية ما يقرب من عشرين عاماً ويسميهم الحميري الأندليش ويرى البعض أنها مشتقة من قبائل الوندال التي أقامت بهذه المنطقة مدة من الزمن، ويرى البعض الآخر أنها ترجع إلى أندلس بن طوبال بن يافث بن نوح . وتقع الأندلس في الطرف الغربي من أوروبا، وتشمل الآن ما يسمى أسبانيا والبرتغال، ويفصلها عن قارة أفريقيا مضيق جبل طارق. ويراد بالأندلس في التاريخ الإسلامي تلك الحقبة الزمنية التي امتدت من فتح العرب لأسبانيا ٩١هـ / ٧١١م حتى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م وهي الفترة التي امتدت نحو ثمانية قرون.(١٤٠)

(اليوسبيون والكلتز هم أقدم الشعوب التي سكنت أيبريا) إسبانيا والبرتغال (اليوسبيون شعب أتى من الجنوب من الجزر التي في البحر المتوسط بينما الكلتز Celts شعب أتى من شمال أوروبا وانقرضت هذه الشعوب قبل دخول القوط والمسلمين إلى شبه جزيرة أيبيريا. كما أستوطن اليونانيون والفينيقيون بعض المدن والثغور الأيبيرية. غزاها الرومان وقاموا بتحويلها إلى ولاية رومانية الثقافة وكاثوليكية الدين بعد أن كانت تنتشر العقيدة الآريوسية بين أهل البلاد ونجح الرومان في تغيير اللغه إلى اللاتينية .ولأنتشار العقيدة الآريوسية بين أهل البلاد الأصليين الأثر في اعتناقهم الإسلام بعد الفتح الإسلامي لقربها من العقيدة والفكر الإسلامي.

فتح المسلمون الأندلس بقيادة القائد طارق بن زياد عام سنة ٩٢هـ/ ٧١١م ، وجعلوا الأندلس جزءاً من الدولة الإسلامية ويعتبر عبد الرحمن الداخل) صقر قريش (المؤسس للدولة الأندلسية سنة ٧٥٠ التي كانت مستقلة عن الدولة العباسية واعتبرت الأندلس امتدادا لدولة بني أمية التي قضى عليها العباسيون في الشرق عام ١٣٢هـ. وفي سنة ٧٥٦ بنى عبد الرحمن الناصر (الثالث) مدينة قرطبة والتي أصبحت عاصمة الأندلس واعتبرت المدينة المنافسة لبغداد عاصمة العباسيين (١٤١)

---

١٤٠ - موقع r.wikipedia.org/wiki/الأندلس

١٤١ - المصدر السابق .

بعد أن ولَّى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك قائده موسى بن نصير على المغرب ، استطاع أن يفتح طنجة ، وترك بها حامية يقودها مولاه طارق بن زياد ، ومنذ ذلك الحين بدأ طارق يتطلع لفتح بلاد الأندلس التي لم يكن بينهم وبينها إلا خليج يسير ، وكان ميناء سبته هو أقرب المدن إليه ، وكان حاكمها هو الكونت يوليان الذي كان نائباً للإمبراطور البيزنطي لذريق حاكم طليطلة ، ولكنه تحرر من سلطان الدولة البيزنطية ، وأصبح كالحاكم المستقل في سبتة وما حولها ، بسبب أحقاد كانت بينهما، وذلك أن لذريق اعتدى على عِرض ابنةيوليان بعد أن بعث بها إليه لتخدمه واستأمنه عليها. وقد استفاد موسى من هذه الخصومة وراسل يوليان حتى كسب وده ، وصار دليلاً لهم في تلك البلاد.

وعندها كتب موسى بن نصير يستأذن الخليفة في أن يوسع دائرة الفتح لتشمل بلاد الأندلس ، فرد عليه الوليد بن عبد الملك قائلاً له : " خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال"، فكتب إليه موسى مبيِّنا له أنه ليس ببحر خِضَمّ، وإنما هو خليج يبين للناظر منه ما خلفه " ، فرد عليه الوليد بأنه لا بد من اختباره بالسرايا قبل خوضه واقتحامه.

فأرسل موسى رجلاً من البربر يسمى طريفاً في مائة فارس وأربعمائة راجل ، وجاز البحر في أربعة مراكب ، مستعيناً بيوليان ، وكان دخوله في شهر رمضان سنة (٩١هـ)، فسار حتى نزل ساحل البحر بالأندلس ، فيما يحاذي طنجة ، وهو المعروف اليوم بـ" جزيرة طريف " التي سميت باسمه لنزوله فيها ، فقام بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل ، وغنم فيها الشيء الكثير ، ثم رجع سالماً غانماً ، وكان في ذلك تشجيعاً لموسى بن نصير على فتح الأندلس.

وبعدها انتدب موسى لهذه المهمة طارق بن زياد ، فركب البحر في سبعة آلاف من المسلمين ، أكثرهم من البربر ، وتذكر الروايات أنه لما ركب البحر غلبته عينه فرأى النبي – صلى الله عليه وسلم – وحوله المهاجرون والأنصار ، قد تقلدوا السيوف ، وتنكبوا القِسيّ ، ورسول الله يقول له: " يا طارق تقدم لشأنك" ، ونظر إليه وإلى أصحابه وقد دخلوا الأندلس قدّامه ، فهب من نومه مستبشراً ، وبشَّر بها أصحابه ، ولم يشكوا في الظفر.

ورست السفن عند جبل لا يزال يعرف حتى اليوم بـ " جبل طارق " ، وكان نزوله في رجب سنة (٩٢هـ)، ولما نزل فتح الجزيرة الخضراء وغيرها، وبلغ لذريق نزول المسلمين بأرض الأندلس، عظم ذلك عليه، وكان غائباً في بعض غزواته، فجمع جيشاً جراراً بلغ مائة ألف.

وكتب طارق إلى موسى يطلب منه المدد ويخبره بما فتح الله عليه ، وأنه قد زحف عليه ملك الأندلس بما لا طاقة له به ، فبعث إليه موسيبخمسة آلاف مقاتل معظمهم من العرب، فتكامل المسلمون اثني عشر ألفاً ومعهم يوليان يدلهم على عورة البلاد ويتجسس لهم الأخبار، فأتاهم لذريق في جنده والتقى الجيشان على نهر لكة ، يوم الأحد لليلتين بقيتا من رمضان سنة (٩٢هـ)، واستمرت المعركة ثمانية أيام، وأخذ يوليان ورجاله يخذلون الناس عن لذريق ويقولون لهم: " إن العرب جاؤوا للقضاء على لذريق فقط ، وإنكم إن خذلتموه اليوم صفت لكم الأندلس بعد ذلك"، وأثر هذا الكلام في الجنود فاضطرب نظام جيشه، وفر الكثير منهم، وخارت قوى لذريق ، لما رأى جنده يفرون أو ينضمون للمسلمين، وهجم طارق على لذريق فضربه بسيفه فقتله ، وقيل: إنه جرحه، ثم رمى لذريق بنفسه في وادي لكة فغرق ، وهزم الله لذريق ومن معه وكتب الغلبة للمسلمين.

وبعد هذه المعركة توسع طارق في الفتح، وتوجه إلى المدن الرئيسية في الأندلس، ففتح شذونة

ومدوّرة ، وقرمونة، وإشبيلية، واستجة، واستمر في زحفه حتى انتهى إلى عاصمة الأندلس "طليطلة" وتمكن من فتحها، وحينها جاءته الرسائل من موسى بن نصير تأمره بالتوقف.

ودخل موسى الأندلس في رمضان سنة (٩٣هـ) في جمع كثير قوامه ثمانية عشر ألفاً، ففتح المدن التي لم يفتحها طارق كشذونة، وقرمونة، وإشبيلية، وماردة.

وهكذا تُوِّجت هذه الانتصارات التي تحققت في هذا الشهر المبارك ، وكان لها أعظم الأثر في بقاء سلطان المسلمين في الأندلس لمدة ثمانية قرون من الزمان، أقاموا فيها حضارةً لم تعرفها البشرية كلها، حتى حل بهم داء الأمم قبلهم، وفشا فيهم التنازع والاختلاف والأثرة، فانشغلوا بأنفسهم عن أعدائهم، فحقت عليهم سنة الله التي لا تحابي أحداً **{ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين}** (الأنفال:٤٦).٠(١٤٢)

الخلافة في قرطبة حتى عام ١٠٠٠.

كانت الأندلس قد تجزأت إلى عدة دول صغيرة ومتنازعة بعد سقوط الدولة الأموية عام ٣٩٩هـ سميت دويلات ملوك الطوائف ، وابرز هذه الدويلات وأكبرها كانت دويلة بنو عباد في اشبيلية ودويلة بني هود في سرقسطة ودويلة بنو الأفطس في بطليوس ودويلة بنو ذي النون في طليطلة وقد توسعت الممالك الإسبانية الكاثوليكية على حساب هذه الدويلات الإسبانية المسلمة مستغلة تنازعها وفي النهاية سقطت طليطلة في ايدي جيوش الفونسو السادس ملك قشتالة القوي والملكة ايزابيلا الأولى مما اضطر ملوك الطوائف للاستنجاد بالمرابطين الذين كانوا قد اقاموا دولة قوية في شمال أفريقيا والذين عبروا إلى الاندلس لنجدة أخوانهم في الدين الأندلسيين وهزموا الإسبانيون الكاثوليك في معركة الزلاقة ودولة الموحدين ومملكة غرناطة(١٤٣)

ليس من شأن هذا البحث أن يؤرخ للفتح الإسلامي، ولا تقصي أسبابه ودوافعه وإنما هي إشارة موجزة لمعرفة المسرح الذي مثل عليه الأمويون دورهم- إن جاز هذا التعبير- في إيصال الحضارة العربية الإسلامية إلى الأندلس ومن ثم إلى بقية دول أوربة، والذي يطالع معظم المؤلفات التاريخية التي أرخت للفتح الإسلامي للأندلس قديما وحديثا، وسواء أكتبها عرب مسلمون أم غربيون نصارى- يجدها تكاد تجمع على أمور أساسية منها (١٤٤).

أولا: فساد الأحوال في مملكة القوط يكاد يكون عاما في شتى ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فكانت المنازعات والمنافسات على الحكم تكاد تمزق تلك المملكة، بل تتحدث المصادر التاريخية عن دور لبعض الشخصيات القوطية المؤثرة في تسهيل عملية الفتح للمسلمين وبصفة خاصة الأمير يوليان- أمير سبتة- ورئيس أساقفة إشبيلية، بل تتحدث المصادر عن

---

١٤٢ - موقع إسلام ويب http://www.islamweb.net/ramadan/index.php?page=articles&id=135224

١٤٣ - موقع r.wikipedia.org/wiki/الأندلس

١٤٤ - السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي - عبد الشافى محمد عبد اللطيف ، ج١/٣٣٩ - الناشر: دار السلام – القاهرة - الطبعة: الأولى - ١٤٢٨ هـ . وقد نقل عن : أبي بكر بن القوطية- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إسماعيل العربي المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (١٩٨٩ م) ، رينهرت دوزي- المسلمون في الأندلس، (ج ١) ترجمة د. حسن حبشي الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (١٩٩٨ م) . وليفي بروفنسال، تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية (٧١١- ١٠٣١ م) ، ترجمة علي عبد الرؤوف البمبي ، وعلي إبراهيم المنوفي والسيد عبد الظاهر عبد الله- طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة (٢٠٠٠ م) ، د. عبد الرحمن علي الحجي- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢- ٨٩٧ هـ/ ٧١١- ١٤٩٢ م) دار الاعتصام، (القاهرة ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م) ، ومحمد عنان- دولة الإسلام في الأندلس (ج ١) نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (٢٠٠١ م) .باختصار وتصرف .

انضمام أولاد الملك المخلوع) Witiza الذي تسميه المصادر العربية غيطشة) إلى طارق بن زياد أثناء المعركة الرئيسية مع روذريق Rodrigo في وادي شذونة، وكان انضمامهم ذلك من أسباب سرعة الفتح وسهولته.

يقول أبو بكر بن القوطية : «فلما دخل طارق بن زياد الأندلس أيام الوليد ابن عبد الملك كتب روذريق Rodrigo إلى أولاد الملك غيطشة Witiza وقد ترعرعوا وركبوا الخيل يدعوهم إلى مناصرته وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم، فحشدوا الثغر وقدموا فنزلوا شقندة، ولم يطمئنوا إلى روذريق بدخول قرطبة فخرج إليهم ثم نهض للقاء طارق فلما تقاتلت الفئتان أجمع المند- ابن غيطشة- وأخوه على الغدر بروذريق، وأوصلوا في ليلتهم تلك إلى طارق يعلمونه أن روذريق إنما كان كلبا من كلاب أبيهم وأتباعه. ويسألونه الأمان على أن يخرجوا إليه في الصباح وأن يمضي لهم ضياع أبيهم بالأندلس، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة، سميت بعد ذلك صفايا الملوك. فلما أصبحوا تحاشوا بمن معهم إلى طارق فكان ذلك سبب الفتح» ا. هـ.(١٤٥)

ثانيا: الأمر الثاني الذي يكاد يجمع عليه مؤرخو الفتح الإسلامي للأندلس وهو ذو علاقة بالأمر الأول، سرعة الفتح وسهولته، فبينما أخذ فتح شمال إفريقيا نحو سبعين عاما من العرب لم يستغرق فتح الأندلس بكاملها تقريبا سوى ثلاث سنوات (٩٢- ٩٥ هـ/ ٧١١- ٧١٤ م) وهذه عجيبة من عجائب التاريخ، ولم ينافس الأندلس في سرعة وسهولة فتحها سوى الفتح الإسلامي لمصر، فقد استغرق هو أيضا نحو ثلاث سنوات (١٨- ٢١ هـ/ ٦٣٩- ٦٤٢ م) والسبب في ذلك تشابه الظروف في كل من مصر والأندلس؛ فكما كانت الأندلس تعاني من مفاسد ومظالم الحكم القوطي، كذلك كانت مصر تعاني من مفاسد ومظالم الحكم البيزنطي؛ الأمر الذي سهل مهمة المسلمين في فتح مصر.

ثالثا: الأمر الثالث الذي يكاد يجمع عليه مؤرخو الفتح الإسلامي للأندلس أن الفاتحين كانوا رحماء مع أهل الأندلس وعاملوهم بكل احترام وتسامح، وطبقوا معهم نفس السياسة التي اتبعوها مع كل البلاد التي فتحوها، فقد تركوا لهم أموالهم وكنائسهم وقوانينهم، وحق المقاضاة إلى قضاة منهم، ولم يفرضوا سوى جزية ضئيلة فرضي بذلك سكان أسبانيا طائعين وخضعوا للعرب دون مقاومة، ولم يبق على العرب إلا أن يقاتلوا الطبقة الأرستقراطية المالكة للأرضين (١٤٦) .

ولا بأس أن نؤكد هذا بما ذكره السيرتوماس أرنولد حيث يقول (١٤٧) : «وإن سياسة التسامح الديني الذي سارت عليه الحكومة الإسلامية نحو رعاياها المسيحيين في أسبانيا، وحرية الاختلاط بين المتدينين قد أدت إلى شيء من التجانس والتماثل بين الجماعتين وقد كثر التصاهر بينهم، حتى أن أيذيدور الباجي قد دون مسألة زواج عبد العزيز بن موسى بن نصير من أرملة روذريق Rodrigo دون أن يذكر كلمة واحدة يستنكر فيها هذا الفعل، هذا إلى أن كثيرين من المسيحيين قد تسموا بأسماء عربية، وقلدوا جيرانهم المسلمين في إقامة بعض النظم الدينية، فاختتن كثير منهم، وساروا وفق المسلمين في أمور الطعام والشراب، وأن إطلاق لفظ مستعربين على الأسبان المسيحيين الذين عاشوا في ظل العرب ليدل دلالة ظاهرة على مدى الميول والاتجاهات التي كانت تعمل بنشاط وهمة في هذا

---

١٤٥ - السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي - عبد الشافى محمد عبد اللطيف ، ج٣٣٩/١ - الناشر: دار السلام – القاهرة - الطبعة: الأولى - ١٤٢٨ هـ . نقلاً عن : تاريخ افتتاح الأندلس (ص ١٩، ٢٠) .

١٤٦ - المصدر السابق ، ج٣٤٠/١ نقلاً عن : جوستاف لوبون- حضارة العرب (ص ٢٦٦، ٢٦٧) .

١٤٧ - المصدر السابق ، ج٣٤٠/١ ، نقلاً عن : الدعوة إلى الإسلام (ص ١٥٩، ١٦٠) .

السبيل، فسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل اللاتينية في جميع أرجاء البلاد» ا. هـ.(١٤٨)

ويقول في موضع آخر (١٤٩) : «أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد في الأيام الأولى التي أعقبت الفتح العربي، فإننا لا نسمع عن ذلك شيئا. وفي الحق أن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد» ا. هـ.

قد يظن البعض أن في الحديث عن التسامح الذي سارت عليه الحكومة الأموية في الأندلس نحو رعاياها المسيحيين في أسبانيا نوعا من المبالغة وقد يستشهد ببعض الحوادث التي استخدمت فيها الحكومة الأموية القسوة، الأمر الذي ينقض حديث التسامح، ونحن في الحقيقة لا ندعي أن التسامح كقاعدة عامة لم تخترق أو لم تحدث تجاوزات. بل نعترف بحدوث تجاوزات كثيرة سجلها المؤرخون المسلمون قبل غيرهم سواء مع النصارى أو مع المسلمين، ولكنها تبقى تجاوزات محدودة ويبقى التسامح هو السياسة العامة المتبعة في الأوقات العادية.

فعلى سبيل المثال

الحادثة الأولى : عند ما حدث الهيج أو التمرد في الربض أيام الحكم الأول (١٨٠- ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦- ٨٢٢ م) وهي حادثة مشهورة في التاريخ الأندلسي؛ عندئذ قضى عليها الحكم بقسوة شديدة وطرد آلافا من الناس من مساكنهم، فعبروا مضيق جبل طارق ومنهم من سكن مدينة فاس في المغرب الأقصى ومنهم عدد كبير- قيل خمسة عشر ألفا- ذهبوا إلى الإسكندرية ثم تركوها أو طردوا منها بالأحرى فذهبوا إلى جزيرة كريت وأقاموا لهم دويلة هناك سنة (٢١٢ هـ ٨٢٧ م) استمرت ما يقرب من قرن من الزمان ولقد أعفى الحكم المؤرخين من الدفاع عن تصرفه هذا؛ لأنه هو اعتذر عنه واعتبره ذنبا كبيرا ارتكبه ضد مواطنيه، وظل يستغفر الله منه طوال حياته (١٥٠) .

الحادثة الثانية: وهي أيضا من أشهر الحوادث في التاريخ الأندلسي؛ قصة النصارى الانتحاريين، وهم مجموعة من المتعصبين الذين أخذوا- لأسباب غير مفهومة- يسبون ويشتمون النبي محمدا صلى الله عليه وسلم علنا وأمام المساجد وفي أوقات الصلوات، وهو عمل استفزازي لم يحتمله المسلمون وقد حكم على بعضهم بالإعدام مما جعل الأستاذ لين بول يطلق عليهم- المنتحرين- والعجيب أن هذه الحركة بدأت في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦- ٢٣٨ هـ/ ٨٢٢- ٨٥٣ م) وهو ليس من الأمراء القساة بل كان يتحلى بالتسامح وحب العلم والثقافة. على كل حال هذه الحركة أدانها النصارى أنفسهم في حينها (١٥١) .

وكذلك أدانها النصارى المعاصرون ولقد علق الأستاذ أميلو جارثيا جومث في مقدمته لكتاب الأستاذ ليفي بروفنسال بقوله: «وتتلخص أحداث تلك الأزمة في الحكم- خلال الفترة من (٢٣٦- ٢٤٥ هـ/ ٨٥٠- ٨٥٩ م) بمدينة قرطبة- على أربعين مستعربا بالإعدام؛ عقابا لهم على سب رسول الإسلام علانية. ألهذا يمكن الحديث عن الاضطهاد؟ كلا ألف كلا؛ لأن الدولة الإسلامية- وخاصة

---

١٤٨ - المصدر السابق ، ج٣٤٠/١ - الناشر: دار السلام – القاهرة - الطبعة: الأولى - ١٤٢٨ هـ

١٤٩ - المصدر السابق ، ج٣٤٠/١ ، نقلاً عن : الدعوة إلى الإسلام (ص ١٥٧) .

١٥٠ - السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي - عبد الشافي محمد عبد اللطيف ، ج٣٤١/١، نقلاً عن : د. عبد الرحمن الحجى- التاريخ الأندلسي، مرجع سابق (ص ٢٤٢) .

١٥١ - المصدر السابق ، ج٣٤١/١ ، نقلاً عن : المرجع السابق (ص ٢٤٣) وانظر كذلك ليفي بروفنسال. الحضارة العربية في أسبانيا ترجمة د. الطاهر أحمد مكي، طبع دار المعارف، القاهرة، (١٩٩٤ م) ، (ص ١٠٠) .

أثناء حكم الأمويين- كانت- على خلاف ما يعتقد غير العارفين- في منتهى التسامح مع المسيحيين واليهود، ولقد دان المستعربون للفاتحين نتيجة لهذا التعايش الإيجابي، وهذا ما أثار حفيظة المشتغلين منهم بالسياسة، فعلاوة على إبراز الوثائق التاريخية الكثيرة التي خلفها المستعربون لهذا التسامح- يعترف (سان ألوخيو) نفسه بأنه لا يشعر بين المسلمين بالدونية أو بالمضايقة، كما يشير آخر وهو (خوان دي جورز) إلى أن المسيحي يمارس شعائره بحرية تامة.. فلم يكن المسيحيون يرتدون ملابس خاصة ولا يحملون شارة معينة تميزهم، وكانوا في كثير من الأحيان يرتقون إلى أعلى المناصب المدنية والعسكرية، وكان القساوسة يغشون الأماكن العامة بزيهم التقليدي، كما كان من الممكن في بعض الأحيان تشييد كنائس جديدة»

إنه لو وجدت حينذاك محاولة سلمية (الدعوة إلى الإسلام) تهدف إلى تالف النسيج الاجتماعي فليس من حقنا أن ندينها؛ لأن لكل تسامح حدوده ومن غير المعقول أن نطلب من المسلمين التساهل إلى الحد الذي يغضون فيه الطرف عن إهانة وسب الميسحيين لرسولهم علانية، في نفس الوقت الذي لا يسمح فيه لأحد بالتعريض بالعقيدة المسيحية ا. هـ. (١٥٢).

حالة أوربا قبل الفتح الإسلامي :

من المفيد جدًّا أن نتعرَّف على حالة أوربا والوضع الذي كانت عليه -وبخاصة بلاد الأندلس- عند الفتح الإسلامي، وكيف تغيَّر هذا الوضع وهذه الحال بعد دخول أهل هذه البلاد في الإسلام؟

كانت أوربا في ذلك الوقت تعيش فترة من فترات **الجهل والتخلُّف البالغ**، فكان الظلم هو القانون السائد؛ فالحكَّام يمتلكون الأموال وخيرات البلاد، والشعوبُ تعيش في بؤسٍ شديد، واتخذ الحكَّام القصور والقلاع والحصون؛ بينما عامة الشعب لا يجدون المأوى ولا السكن، وإنما هم في فقر شديد، بل وصل بهم الحال إلى أن يُباعُوا ويُشتَرَوا مع الأرض، وكانت الأخلاق متدنِّية، والحرمات منتهكة، وبَعُدَ حتى عن مقومات الحياة الطبيعية؛ فالنظافة الشخصية -على سبيل المثال- مختفية؛ حتى إنهم كانوا يتركون شعورهم تنسدل على وجوههم ولا يُهَذِّبونها، وكانوا -كما يذكر الرحَّالة المسلمون الذين جابوا هذه البلاد في ذلك الوقت- لا يستحمُّون في العام إلاَّ مرَّة أو مرَّتين، بل يظنُّون أن هذه الأوساخ التي تتراكم على أجسادهم هي صحَّة لهذا الجسد، وهي خير وبركة له.(١٥٣). وكان بعض أهل هذه البلاد يتفاهمون بالإشارة، فليست لهم لغة منطوقة؛ فضلاً عن أن تكون مكتوبة، وكانوا يعتقدون بعض اعتقادات الهنود والمجوس من إحراق المتَوَفَّى عند موته، وحرق زوجته معه وهي حيَّة، أو حرق جاريته معه، أو مَنْ كان يُحِبُّه من الناس، والناس يعلمون ذلك ويُشاهدون هذا الأمر، فكانت أوربا بصفة عامَّة قبل الفتح الإسلامي يسودها التخلُّف والظلم والفقر الشديد، والبُعد التامُّ عن أي وجه من أوجه الحضارة أو المَدَنية(١٥٤)

ودامت همجية أوربا البالغة زمنًا طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يبدُ في أوربا بعض الميل إلى

---

١٥٢ - السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي - عبد الشافي محمد عبد اللطيف ، ج٣٤٢/١ ، نقلاً عن : تاريخ أسبانيا الإسلامية (ص ١٥) وانظر في المسألة نفسها: ليفي بروفنسال- الحضارة العربية في أسبانيا (ص ١٠٠) .

١٥٣ -http://islamstory.com/ar /الاندلس- قبل- الاسلام ، د.راغب السرجاني ، نقلاً عن أبو عبيد البكري: جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك)، ص٨١.

١٥٤ - http://islamstory.com/ar/الاندلس- قبل- الاسلام ، د.راغب السرجاني ، نقلاً عن أبو عبيد البكري: جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك) ص١٨٦، ١٨٧

العلم إلاَّ في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر الميلاديين(١٥٥).

انتشار الفوضي الأخلاقية في أسبانيا قبل دخول الإسلام :

أكد الدكتور محمود إبراهيم أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة، أنه لا يُمكن مقارنة أحوال إسبانيا قبل دخول العرب إليها وبعدها، لافتا إلى أن بلاد الأندلس كانت مثلا لانتشار الجهل والانحلال الأخلاقى والفوضى والتأخر، كما كانت تشتعل بالصراعات والاضطرابات الداخلية، وهو ما غيره العرب تماما بدخولهم إليها وفتحهم لها. وكشف إبراهيم، فى تصريحات خاصة لـ**"الوطن"**، أنه لم يكن للعرب قديما أن يدخلوا إسبانيا دون المرور بمصر، لافتا إلى أن قوات الاستطلاع العربية قد دخلت وفتحتها عبر مصر، وفتحتها دون وجود مقاومة تذكر سوى على المستوى المحلى، وسيطروا عليها تماما وأعادوا تنظيمها ونشر السلام بها. وأشار أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة، إلى أن العرب لم يدخلوا إسبانيا حاملين السيوف بقدر ماحملوا الشعار الحضارى، فعملوا على نشر السلام بها وتنميتها وتنشيط الصناعة والتجارة وبدأوا بالتشييد والبناء ونشر العلم والمعرفة وجلب المؤلفات الثقافية التى تم تأليف معظمها فى مصر إليها. وتابع إبراهيم أن إسبانيا عاشت أزهى عصورها فى رخاء وسلام خلال فترة حكم العرب، لافتا إلى أن هناك العديد من المبانى والمعالم الأثرية التى ماتزال شاهدة على الدور الكبير الذى لعبه العرب والمسلمون فى إنمائها. وأضاف أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة القاهرة، أن العرب والمسلمين كان لهم فضل كبير على الشعب الإسبانى، لافتا إلى أن الإسبان تلقوا تعليمهم قديما على يد أشهر العلماء العرب، كما أدخل العرب العديد من الصناعات الحديثة للأندلس، فضلا عن المبانى الأثرية الإسلامية التى ماتزال تمثل مصدرا رئيسيا للدخل فى إسبانيا، حيث يأتيها السياح من كافة دول العالم. (١٥٦).

ومما لا شك فيه أن حضارات الأمم تبني بالأخلاق والقيم وأن انهيارها مرتبط بالانحلال والانحراف عن منهج الله الواحد الأحد، يقول ابن خلدون: "إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طريقها، وهذا ما حدث في الأندلس وأدى فيما أدى إلى ضياعه"،(١٥٧) وأدرك هذه الحقيقة أيضًا أحد كتاب النصارى واسمه "كوندي" حيث قال: " (العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات).

أما شوقي أبو خليل فيقول: "والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة، والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرَّسوا على الحياة الخشنة الجافية وغدا التهتك، والاغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلئ.

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون، وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمور والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبُّون في بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات

---

١٥٥ -http://islamstory.com/ar /الاندلس- قبل- الاسلام ، د.راغب السرجاني ، نقلاً عن: جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٥٦٧.

١٥٦ - موقع الوطن : http://www.elwatannews.com/news/details/719549

١٥٧ - ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر- عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ) ج١/١٨٠ ، المحقق: خليل شحادة - الناشر: دار الفكر، بيروت - الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعبا يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون، لايستطيع أن يصمد رجاله في الانحلال والميوعة والمجون، لايستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد، أو يتكوّن منهم جيش قوي، كفء للحرب والمصاولة) (١٥٨)"، وصدق الله العظيم القائل:قال تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦ ﴾ الإسراء: ١٦

انتشار الفوضي الاجتماعية في أسبانيا قبل دخول الإسلام :

نزل بلاد الأندلس خليط من الناس من كل أجناس الأرض واستوطنوها بكل ما لديهم من عادات وتقاليد، وكثر عدد أهل الأندلس، فأدى الاحتكاك بين هذه الفئات إلى بروز شيء من الصراعات الاجتماعية، وأطلت النزاعات بين أصحاب الفرق والمذاهب على البلاد، كما كان ثمة تفاعل بها، اجتماعي وفكري بين المسلمين وغير المسلمين.

يصف المقري أهل الأندلس فقال: "إنهم عرب في الأنساب، والعز،والأنفة، وعلو الهمم، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل، والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع، وإتيان الدنية، هنديون في فرط عنايتهم بالعلوم، وحبهم فيها، وضبطهم لها، وروايتهم، وبغداديون في نظافتهم، وظرفهم، ورقة أخلاقهم، ونباهتهم وذكائهم، وحسن نظرهم، وجودة قرائحهم، ولطافة أذهانهم، وحدة أفكارهم، ونفوذ خواطرهم، ويونانيون في استنباطهم للماء، ومعاناتهم لضروب الغراسات، واختيارهم لأجناس الفواكه، وتدبيرهم لتركيب الشجر، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر، وصنوف الزهر، فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال، ومقاسات النصب في تحسين الصنائع، أحذق الناس بالفروسية، وأبصرهم بالطعن والضرب").

وكانت قرطبة من أكثر بلاد الأندلس ازدحاماً، فقد قدرت بعض المصادر أن عدد سكانها قد بلغ نصف المليون، وقيل بل المليون نسمة.

وإذا صدق أن دور العامة بلغت (١١٣٠٧٧) داراً، ودور الأكابر بلغت (٦٠٣٠٠) داراً، وبها من الفنادق (١٦٠٠) فندق(١٥٩)، فإنه يمكن أن يبلغ عدد سكانها هذه الأعداد الكبيرة التي ذكرت، ومن خلال هذا العدد نشأت تفاعلات اجتماعية بين الأجناس بوضوح وتميز. كما برزت آنذاك المرأة عالمة ومؤثرة في الحياة العامة، ونشطت المحاورات والمناظرات الفكرية، وأيضاً عمت مظاهر الثراء والترف ساكني تلك البلاد، ورغم الصراعات والنزاعات الوقتية، إلا أن الحالة العامة للسكان كانت تميل للترف، ولاسيما وقد كانت الطبيعة تضرب بسهمها في ذلك، فكانت قرطبة تقع وسط سهل فسيح يمتد على ضفتي الوادي الكبير، تمتد الخضرة على مرمى البصر أميالاً وأميالاً، فلم يكن بقرطبة متسول، فإنه بحسبه أن يأخذ أرضاً يزرعها.

ونظمت الحركة التجارية وأقيمت أسواق متخصصة للبضائع المختلفة، ورصفت الطرق، وتم إيصال المياه للمساجد والبيوت بأنابيب الرصاص، وتفنن المعماريون في البناء ولا يزال جامع قرطبة العظيم ماثلاً ببنائه، مع القصور المنيفة التي لا مثيل لها في العالم، نعم .. لقد كثر المال جداً، حتى إن المنصور بن أبي عامر لما أراد استرضاء (صبح) أم الخليفة هشام بنى لها قصراً من فضة.

---

١٥٨ - دولة الموحدين - المؤلف: علّي محمد محمد ،ج٢٩٤/١ ، الناشر: دار البيارق للنشر، عمان.
١٥٩ - انظر: المصدر السابق ، ص٤٤.

واتسعت قرطبة جداً حتى شملت خمسة أحياء كبيرة اشتملت على ٢١ حياً يشبَّه كل حي بمدينة مستقلة في أسواقها وفنادقها وحماماتها وسائر صناعاتها بل وأسوارها التي تفصلها عن الأحياء الأخرى.

وتبعت قرطبة في ذلك مدن وكور مشهورة فازدادت مساحتها الإدارية أكثر وأكثر، حتى اتصلت العمارة في مباني قرطبة بأحيائها في أيام بني أمية ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضاً وكان يمشي فيها بضوء السرج المتصلة عشرة أميال ليلاً، فهي ذات إضاءة ليلية.

ويعد مسجد قرطبة مركزَ الحياة الاجتماعية، فقامت حوله الأسواق والحوانيت وعقدت به الاجتماعات وقرئت فيه المنشورات والأوامر النظامية، وحلت فيها كثير من المشكلات، وأحاطت به الدور والحمامات، وكثرت المساجد بقرطبة حتى بلغت ١٦٠٠ مسجد وقيل ٣٨٧٧ مسجداً بل وقيل: إنها كانت ١٣٨٧٩ مسجداً، ولعل هذا الاختلاف يرجع إلى ما يضاف للمساجد الكبار من الزوايا والمصليات.

وقد كانت مدينة قرطبة مركزاً مهماً للتقدم العلمي والفني، فكانت ملتقى الشعراء والأدباء والفقهاء والمتكلمين وعلماء الحديث كما كانت في الوقت نفسه أكثر بلاد الأندلس كتباً وأحفلها بالخزائن والمكتبات، ولم تكن قرطبة تخلو من المنكرات واللهو والمجون في حين كانت في الوقت نفسه معقلاً للعلم والعلماء.

يقول المقري عن قرطبة: ومن محاسنها...ظرف اللباس، والتظاهر بالدين، والمواظبة على الصلاة، وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم، وكسر أواني الخمر حينما تقع عين أحد من أهلها عليها والتستر بأنواع المنكرات، والتفاخر بأصالة البيت، وبالجندية، وبالعلم، وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب.

وقد أثرت هذه الحياة الاجتماعية في ابن حزم من رقة في مشاعره في حداثة سنه، حيث يقول عن نفسه بعد فقده نعم التي يرجح أنها زوجته الأولى: "وعني أخبرك أني أحد من دهى بهذه الفادحة، وتعجلت له هذه المصيبة، إلى أن قال: فجعتني بها الأقدار، واخترمتها الليالي ومر النهار، وصارت ثالثة التراب الأحجار، وسني حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي، ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني، وهكذا إلى أن قال: فوالله ما سلوت حتى الآن".

كما أعطت هذه الحياة ابن حزم معرفة بالطبائع ولا سيما طبائع النساء؛ إذ يقول: "لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري لأني ربيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب، وحين تفيل وجهي، وهن علمنني القرآن ورويننني كثيراً من الأشعار ودربنني في الخط"، وهو مع ذلك عفيف متعفف أقسم في كتابه (الطوق) أنه ما كشف فرجه على حرام قط ، .

كما أمدت الحياة الاجتماعية هذه ابن حزم بأمور انعكست على أفكاره وآرائه من قوله بجواز أن تلي المرأة القضاء والحكم إلى ردوده على النصارى واليهود إلى حلول للمشكلات الاجتماعية في كتبه ككتاب (مداواة النفوس)، غير ما كان في كلامه من وصف عال وعذوبة، كقوله في رثاء دوره التي خربها أعداؤه:

ولقد أخبرني بعض الوارد من قرطبة وقد استخبرته عنها، أنه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها، وقد انمحت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلى، وصارت صحاري مجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأنس، وخرائب منقطعة بعد الحسن، وشعاباً مفزعة بعد الأمن، ومأوى للذئاب، ومعازف للغيلان، وملاعب للجان، ومكامن للوحوش، بعد رجال كالليوث، وخرائد كالدمى، تفيض لديهم النعم الفاشية، تبدد شملهم فصاروا في البلاد أيادي سبا، فكأن تلك المحاريب المنمقة، والمقاصير المزينة، التي كانت تشرق إشراق الشمس، ويجلو الهموم حسن منظرها، حين شملها الخراب وعمها الهدم، كأفواه السباع فاغرة، تؤذن بفناء الدنيا، وتريك عواقب أهلها، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها، وتزهد في طلبها، بعد أن طالما زهدت في تركها، وتذكرت أيامي بها، ولذاتي فيها، وشهور صباي لديها مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم.(١٦٠)

الأحوال الاجتماعية في أسبانيا في عهد القوط:

وفيما يخص التنظيم الاجتماعي، فقد حافظ القوط على نفس التركيب الذي وجدوه قائماً في إسبانيا أيام الرومان. وهكذا استمرت مساوئ العهد الروماني بالبقاء، وتركزت الثروة والممتلكات بيد مجموعة قليلة من الناس، وكان هناك عدم مساواة كبيرة في البنية الطبقية ، فالمجتمع القوطي كان يتألف من ثلاث طبقات؛ وهم طبقة **كبار ملاك الأراضي والنبلاء وكبار رجال الدين، والطبقة العامة، وطبقة العبيد** .

وكان أبناء الطبقة العامة يتألفون من الأحرار البسطاء الذين ينتمون إلى أصول قوطية ورومانية، عاشوا في المناطق الحضرية وفي الأرياف. ومن هؤلاء أيضاً، العمال في المدن والذين كانوا ينتظمون ضمن أصناف ونقابات، ولا يحق لهم التحول عنها أو الانتقال إلى مدينة أخرى، ومن يهرب منهم كان يُجبر على العودة إلى مدينته الأصلية. وكانوا محرومين من الانتظام في سلك رجال الدين، أو أن يصبحوا موظفين قضائيين.

وبالنسبة إلى سكان الأرياف، فقد اضطر العديد منهم، نظراً لظروفهم الاقتصادية الصعبة، إلى تسليم أراضيهم إلى كبار النبلاء، ورضوا بالعمل والبقاء فيها كمستأجرين لقاء تمتعهم بحماية النبلاء. ولقد أصبح هؤلاء بالتدريج مشدودين بالأرض، وارتبطت علاقاتهم بأصحاب الأملاك مدى الحياة، حتى أنهم تحولوا أخيراً إلى ما يشبه الأقنان. وكان من جملة الالتزامات المفروضة عليهم أن يدفعوا عشر محاصيلهم إيجاراً، إضافة إلى تأدية بعض الخدمات الشخصية الأخرى للنبيل، وضريبة الرؤوس، أو الجزية Capitatio) 16) .وتأتي طبقة العبيد في الدرجة الدنيا من السلم الاجتماعي، ويكوّن هؤلاء الجماهير الغفيرة، ضحايا كل أنواع القهر والاضطهاد، وكانوا مملوكين لكبار النبلاء ورجال الدين، ويستخدمون للأغراض الزراعية والأعمال المنزلية على حد سواء.ويبدو من مراجعة القوانين والتشريعات القوطية أن الظروف المعاشية للعبيد المهرة الذين كانوا يعملون في المدن، كانت أفضل من نظرائهم العمال الزراعيين.

وكانت الكنيسة الأسبانية تمتلك أيضاً عدداً كبيراً من العبيد، ولكن يتضح من تشريعات مجالس الكنيسة أن هؤلاء العبيد عاشوا في ظروف سيئة للغاية. ولهذا فليس من الغريب أن حاول العديد منهم الهرب والتخلص من عبوديتهم.ويضاف إلى ذلك أن القوط، خاصة في أواخر عهدهم، ابتدأوا

---

١٦٠ - موقع : https://ar.wikisource.org/wiki ،http://uqu.edu.sa/page/ar/131099

بتجنيد العبيد بالإكراه واستخدامهم في الجيش، مما أدى إلى تذمر هؤلاء وازدياد محاولاتهم في الهروب والنجاة.

وقد اعترف الملك أخيكا Egica (687 - 702 م) في بداية القرن الثامن الميلادي، بأن العبيد الآبقين يختبئون في كل مكان من البلاد، حيث لا تخلو منهم أية مدينة أو قرية أو حصن أو دار ريفية أو خان. وقد شرع قانوناً وضع بموجبه عقوبات صارمة على كل من يفشل في مطاردة العبيد الهاربين، وإلقاء القبض عليهم .

أما الطبقة العليا، أي طبقة النبلاء فكانت تتألف من أغنياء القوط الغربيين، وبقايا طبقة النبلاء الرومان. ويتميز أفراد هذه الطبقة عن الأحرار الاعتياديين بأصلهم النبيل، وامتلاكهم للمزارع والضيع الكبيرة التي تزرع من قبل المستأجرين، وبخدمتهم في المناصب العليا في القصر وفي الإدارة .

وكانت البلاد حتى منتصف القرن السابع الميلادي تحكم وتدار بواسطة إدارة مشتركة من الطبقة النبيلة القوطية والرومانية.

ومن المظاهر المهمة لهذا النظام، أن الطبقة النبيلة القوطية كانت مسؤولة عن السكان القوط، والطبقة النبيلة الرومانية تمارس سلطاتها على السكان الرومان، بينما كان الملك القوطي وموظفوه الكبار يقررون السياسة العامة للجميع.وكان مُلاك الأراضي الرومان والقوط، وكما هو الحال بالنسبة إلى الملك وكبار موظفيه أيضاً، يشرفون على مزارعهم بواسطة الوكلاء ومديري المال في مقاطعاتهم .

وبصورة عامة فإن أفراد هذه الطبقة النبيلة كانوا أغنياء جداً، بنوا ثروتهم على حساب الطبقات الفقيرة المعدمة الأخرى، وقد أفلح بعضهم في الاحتفاظ بثروته حتى بعد الفتح العربي الإسلامي .

كانت المسيحية هي ديانة الغالبية العظمى من السكان. وكان الاسبان – الرومان يدينون بالمذهب الكاثوليكي، بينما كان القوط الغربيون قد اعتنقوا المذهب الآريوسي، الذي يقول بطبيعة المسيح البشرية، منذ سنة ٣٧٧ م . وقد عمل القوط الغربيون، منذ أيامهم الأولى في إسبانيا حتى تحولهم إلى الكاثوليكية في عهد ريكاريد Reccared (586 - 601 م)، على الفصل الكامل بين السكان القوط والاسبان الرومان، فكان أبناء كل طائفة يقيمون شعائرهم بحرية تامة بمساعدة رجال الدين التابعين لملتهم، وفي كنائسهم الخاصة . وقد تبين للملك ريكاريد أنه لا صلاح لدولة القوط في إسبانيا ما لم تتخلّ عن الآرية وتعتنق مذهب الغالبية من سكان البلاد.وهكذا فقد أعلن في مجمع طليطلة الديني سنة ٥٨٧ م تخليه عن الآرية واعتناقه، هو وأهل بيته، للمذهب الكاثوليكي، وتبعه في هذا الأمراء وكبار رجال المملكة .وهكذا توحدت الكنيسة الاسبانية تحت ظل الملكية القوطية. وأعقب هذا التحول إلى الكاثوليكية اتخاذ اللغة اللاتينية لغة رسمية في البلاد، وتوثقت العلاقة بالبابوية مما شجع البابوات على بسط نفوذهم الديني والسياسي على إسبانيا. وأصبحت طليطلة أسقفية يقيم فيها أسقف كبير يمثل البابا. وقد أيد السكان الاسبان الرومان هذا الإجراء، ولم تتخل إسبانيا عن الكاثوليكية بعد هذا التاريخ.

وكانت هذه الخطوة عاملاً فعالاً لامتزاج الشعبين القوطي والآيبيري الروماني، ولكن هذا الامتزاج لم يتم بشكل كامل بسبب حرص القوط على اعتبار أنفسهم الشعب الحاكم المتميز، مما كان له أثر بعيد على مصير دولة القوط في إسبانيا.وبالإضافة إلى المسيحيين كان ما يزال هناك عدد لا بأس به من السكان الوثنيين في شبه الجزيرة. وتشير التشريعات المتتالية الصادرة عن مجالس الكنيسة وملوك

القوط إلى مدى الانتشار الواسع للوثنية، والكهانة، والعرافة، والسحر في البلاد.

وكانت هذه الممارسات قد ترسخت في معظم أرجاء إسبانيا تقريباً، وانتعشت إلى الحد الذي دفع مجلس طليطلة الثالث (٥٨٩ م) أن يقرر بأنه يتوجب على كل أسقف بالتعاون مع القاضي المحلي أن يحقق في انتشار الوثنية في منطقته، ويعمل على مكافحتها .

وكان الباسك Basques أو البشكنس، حسبما تسميهم المصادر العربية، من جملة الجماعات الوثنية التي تعيش في منطقة الشمال الشرقي المتاخمة لجبال ألبرت. وقد فشل الأساقفة والملوك القوط في زعزعتهم عن الوثنية أو إخضاعهم طيلة العهد القوطي. ولا يعرف لحد الآن الأصل الحقيقي لهؤلاء الباسك، ولكنهم ربما كانوا من بقايا القبائل التي سكنت منطقة جبال ألبرت في عصور ما قبل التاريخ .

ولقد كان هؤلاء السكان الجبليون متمرسين على القتال والتمرد على ملوك القوط المختلفين، وظلوا مصدراً للقلاقل والاضطرابات طيلة العهد القوطي والعهود العربية الإسلامية اللاحقة. بل إن انتفاضاتهم ومطالبتهم المستمرة من أجل الاستقلال أو على الأقل الحكم الذاتي، ما تزال تعكر صفو الحكومات الاسبانية المختلفة حتى الوقت الحاضر.

لقد شكل اليهود عنصراً مهماً آخر من عناصر السكان في مملكة القوط الغربيين.

ويعود تاريخ استيطانهم في شبه الجزيرة إلى زمن بعيد جداً . وكانوا ينتشرون في مناطق عديدة من البلاد، لكنهم تركزوا بالدرجة الأولى في المراكز الحضرية المتقدمة، مثل العاصمة طليطلة، وفي مناطق الجنوب، وعلى طول ساحل البحر المتوسط في شرق إسبانيا.

وتختلف حالة اليهود الاقتصادية، وطرائقهم في الحياة في إسبانيا اختلافاً كبيراً. فمنهم من كان يعمل بالتجارة داخل البلاد وخارجها، بينما كان الآخرون فقراء لا يمتلكون أية ممتلكات .

ويشير بعض المؤرخين إلى أن ملكية الأرض كانت الأساس الذي تقوم عليه معيشة بعض اليهود في إسبانيا، فكان هؤلاء يعيشون في قرى ويزرعون أراضيهم بأيديهم، بينما تولى آخرون الإشراف على المزارع التي يمتلكها المسيحيون، ولكن يبدو من التشريعات الكثيرة التي تخص اليهود في إسبانيا، أن فعالياتهم التجارية، كانت مهمة بقدر أهمية نشاطهم الزراعي. لم يكن وضع اليهود في ظل القوط الغربيين حسناً، فقد ضُيّق عليهم وعوملوا معاملة غير جيدة من قبل ملوك القوط المختلفين. ويعد الملك سسبت Sisebut (612 - 621 م) بنظر العديد من المؤرخين، الملك القوطي الأول الذي ابتدأ بوضع القيود على اليهود.

ولكن هذا الأمر يرجع في الحقيقة إلى عهود تسبق الحقبة التي حكم فيها هذا الملك. فهناك تشريعات معادية لليهود منذ عهد الملك ألاريك الثاني Alaric II (484 - 507 م)، .

وكذلك نصت قرارات مجلس طليطلة الثالث (٥٨٧ م) على إكراه اليهود على اعتناق المسيحية، وحرّمت على أي يهودي أن يشتري عبداً مسيحياً.

ولقد ظل هذا التشريع سارياً، وأعيد تطبيقه من قبل ملوك القوط المتعاقبين، كما أُيِّد وعُزِّز من قبل مجلس الكنيسة إلى نهاية العهد القوطي.

وجُرد اليهود من قبل الملك سسبت من العبيد والمستأجرين، ولهذا أصبح من الصعب عليهم أن يزرعوا أراضيهم، أو أن يمتلكوا المزارع الكبيرة. وفي عهد الملك ايروج Erwig (680 - 687 م) أبعد اليهود عن كل وظائف الدولة، وعن تولي المزارع الكبيرة. وحُرّم عليهم وعلى عبيدهم أن يعملوا في حقولهم أيام الآحاد والعطل الدينية المسيحيّة .

ولكن ذروة التضييق على النشاط الاقتصادي لليهود وصلت غايتها في عهد الملك أخيكا Egica (687 - 702 م)، فقد كانت تشريعاته تهدف إلى شل القدرة الاقتصادية لليهود، والحد من قابليتهم في الحصول على المعيشة. لذلك فقد أجبروا على أن يبيعوا إلى خزينة الدولة، وبسعر محدد، عبيدهم، وأية ممتلكات سبق وأن اشتروها من المسيحيين. يضاف إلى ذلك، أنهم منعوا من مزاولة التجارة على مختلف أشكالها، أو أن يتاجروا فيما وراء البحار . ولا تتوافر لدينا معلومات عن الدوافع الحقيقية المختفية وراء هذا التضييق، أو لماذا مُنع اليهود من ممارسة أي نوع من أنواع التجارة.

ولكن من المحتمل جداً أنه كان بسبب اختلاف عقيدتهم وتعاطيهم الربا، أو بسبب تعاليهم على أبناء الديانات الأخرى، وانغلاقهم على أنفسهم، واستغلالهم لغيرهم من الناحية الاقتصادية. وربما كان لتآمرهم السياسي أيضاً أثر كبير على تشريع بعض القوانين المعادية لهم. وقد استطاع اليهود التخلص من هذه القوانين بسبب دفعهم للرشوة إلى النبلاء ورجال الدين .

لكنهم مع هذا تأثروا إلى حد كبير، مما دفع العديد منهم إلى الالتجاء إلى شمال أفريقيا، وغالة في جنوب فرنسا، كما قام بعضهم بالاشتراك في بعض الحركات المناوئة للسلطة. وقد تعرض اليهود في عهد الملك أخيكا إلى الاتهام بالتآمر مع يهود من خارج البلاد للعمل ضد المسيحيين في إسبانيا .

وقد يكون هذا الاتهام صحيحاً، ولكن لا تتوافر أدلة عليه سوى خطبة الملك أخيكا التي ألقاها أمام مجلس طليطلة السابع عشر (٩ تشرين الثاني سنة ٦٩٤ م) عندما أشار إلى هذه "المؤامرة" لأول مرة ، ويرى بعض المؤرخين المحدثين، أن هذا الاتهام ما هو إلا محض خيال أو اختراع من قبل الملك حتى يبرر إجراءاته ضد اليهود. ولكن هناك من يعتقد بصحة هذه الحادثة، ويعدها حقيقة تاريخية، بل اعتقد بعضهم أن اليهود المقصودين بالتآمر من خارج البلاد هم من شمال أفريقيا. ومن البربر بالذات .

كما ذهب آخرون إلى أبعد من ذلك – ربما بسبب تعاون اليهود فيما بعد مع المسلمين زمن الفتح– فذكروا بأن اليهود كانوا يتآمرون من أجل تسليم إسبانيا إلى العرب. وبطبيعة الحال، لا يمكن تصديق مثل هذا الافتراض، لأن العرب في ذلك الوقت كانوا بعيدين عن إسبانيا، وكانت فتوحاتهم مركزة في المناطق المجاورة للقيروان.

إن عدم التكافل الاجتماعي الذي كان يسود في دولة القوط الغربيين، والتضييق الذي لحق باليهود، والظروف التعيسة التي كان يعيش في ظلها العبيد والعديد من أفراد الطبقة العامة، أدت إلى تفكك المجتمع وانهياره، يضاف إلى ذلك أن حالة العصيان والمؤامرات المستمرة التي كان يقوم بها النبلاء من أجل الوصول إلى العرش، أو الانسلاخ عن المملكة والحصول على الاستقلال، أنهكت البلاد، وأوصلتها إلى حالة يرثى لها من التردي والضعف. ولقد حدث قبل الفتح العربي الإسلامي لإسبانيا بسنة واحدة تقريباً، أقوى وأقسى تنافس على السلطة في البلاد، مما زاد في حالة الضعف

والتفكك، وسهل أمر القضاء على دولة القوط الغربيين.(١٦١).

امتهان كرامة وحقوق الإنسان في الغرب .

مفهوم الغرب لحقوق الإنسان: لم تظهر فكرة حقوق الإنسان جزئياً بشكل رسمي عند الغرب إلا في القرن الثالث عشر الميلادي، الموافق للقرن السابع الهجري، أي: بعد نزول الإسلام بسبعة قرون، وذلك نتيجة ثورات طبقية وشعبية في أوروبا، ثم في القرن الثامن عشر في أمريكا لمقاومة التميز الطبقي أو التسلط السياسي أو الظلم الاجتماعي(١٦٢).

١ - حرية التدين في الغرب:

جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أن لكل شخص الحق في حرية الدين وحرية تغيير ديانته أو عقيدته وحرية الإعراب عنها بالتعليم والممارسة (١٦٣).فالإنسان عند الغرب حر في أن يختار الدين الذي يريده وحر في أن يغير دينه متى شاء.وهذا يتعارض مع تعاليم الإسلام الذي لا يجيز للمسلم تغيير ديانته، بل يعتبر ذلك ردة ويجب إقامة الحد فيها؛ لأن السماح بالردة يشكل خطراً على أمن الدولة الإسلامية، ويخالف ما قصده الإسلام من حفظ للضروريات الخمس التي على رأسها ضرورة حفظ الدين الذي تقوم الدولة الإسلامية أساساً عليه (١٦٤).

٢ - حرية إقامة العلاقات الأسرية:

جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أن للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الدين(١٦٥).فيبيح للكافر التزوج بمسلمة وللمسلم التزوج بالكافرة بدون أي قيود على ذلك ، وهذا يخالف تعاليم الإسلام التي لا تجيز للمرأة المسلمة أن تتزوج بغير المسلم، وذلك صيانة للأسرة من الانحلال بسبب الاختلاف في الدين عند احترام الزوج بموجب عقيدته لمقدسات زوجته لأن المرأة أحد عنصري الأسرة الأكثر حساسية في هذا الموضوع بسبب شعورها بالضعف أمام الرجل"(١٦٦).

٣ - حق الحرية:

جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: "يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق"(١٦٧).وفي اتفاقية الحقوق المدنية والسياسية: "لكل فرد الحق في الحرية والسلامة الشخصية ولا يجوز حرمان أحد من حريته إلا على أساس من القانون وطبقاً للإجراءات المقررة"(١٦٨) ، وهذا الحق يكاد أن يكون نظرياً اليوم، ويعاني الأفراد والشعوب الويلات من الإفراط والتفريط بحق الحرية، والمتاجرة بها والتغني فيها وعدم ضبط الممارسات فيها وحولها، حتى

---

١٦١ - موقع : http://islam4beauty.blogspot.com/2012/12/blog-post.html
١٦٢ - حقوق الإنسان للزحيلي ، ص ١٠١.
١٦٣ - المصدر السابق ، ص ١٨١.
١٦٤ - المصدر السابق ، ص ١٥٥-١٥٦. بتصرف.
١٦٥ - حقوق الإنسان للحقيل ، ص ٨٢.
١٦٦ - المصدر السابق ، ص ١٦١.
١٦٧ - حقوق الإنسان للزحيلي ، ص ١٦٩.
١٦٨ - المصدر السابق ، ص ١٦٩.

قالت إحدى نسائهم: "كم من الجرائم ارتكبت باسمك أيتها الحرية"(١٦٩).

٤- حق التملك:

تفاوت مفهوم حق التملك عند الغرب تفاوتاً هائلاً.فالرأسمالية أطلقت حرية التملك إلى أبعد الحدود وجردته من كل قيد حتى استبد الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال بمقدرات الأمم والشعوب واستنزفت خيرات البلاد وطبقات الفقراء والعمال. بينما تمادت الشيوعية في الإفراط والغلو وألغت الملكية الفردية وفرضت ملكية الدولة الكاملة، واستولت على جميع وسائل الإنتاج، وأصبح العمال مجرد آلات للعمل (١٧٠).

تطور فكرة حقوق الإنسان.

١- الحق الإنساني في حياة أفضل هدف بشري، وظل هذا المسعى الإنساني نحو إحقاق الحقوق أملا يراود بني البشر، خصوصا كلما عصفت بهم المحن، وازدادت الرغبة في ذلك أيضا مع توسع المجتمع وارتقاء الاجتماع البشري، وصيرورته أكثر تعقيدا، فكانت الحقوق الشخصية تطمسها مطالب الجماعة، وتحدّ منها مصلحة القبيلة. ثم جاءت المدن بنظامها البديع، وتشابك المعيشة بها، فحطمت بأسلوب الحياة فيها كثيرا من فردية الإنسان وتفرده. وكلما اتسعت المدينة وامتدت ذراعها صرخ الإنسان ينادي بحضوره باحثا عن نفسه، خصوصا بعد أن ترافق هذا وتعقد الاقتصاد، وشاع استغلال الإنسان للإنسان.

٢- في الفكر الاجتماعي القديم لا يتعدى مفهوم الإنسان عند الفلاسفة اليونانيين دائرة معينة من البشر هم الأحرار والمقاتلون. ويخرج عن هذا المفهوم قطاعات واسعة من البشر تشمل العبيد والنساء والصناع. نرى هذا عند أرسطو- مثلا- والذي كان يرى أن المرأة بالنسبة للرجل كالعبد لسيده، أو كنسبة العامل باليد للمفكر، أو البربري للإغريقي(١٧١).أما أفلاطون فهو عندما يتحدث عن أفعال الإنسان يؤكد أن مراجعها ثلاثة: الشهوة والعاطفة والعقل، وهذه القوى الثلاث موجودة عند كل إنسان؛ فمن الناس من يكون شهوة متجسدة، ومنها تتكون العمال. ومن الناس من يضفي عليه جانب الشعور كالمحارب، ومنهم فريق ثالث قليل العدد يستمتع بالتفكير فقط وهم رجال الحكمة(١٧٢).

٣- ولكن رسول الله -ﷺ- توَّج حياته -بعد بضعة قرون من حضارة اليونان- بخطبة ضمنها مبادئ راقية، ما زالت تعد هدفا للبشرية ترنو للوصول إليه. يقول رسول الله -ﷺ: "أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد".(١٧٣) ، "أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا

---

١٦٩ - المصدر السابق ، ص ١٧٠. جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

١٧٠ - المصدر السابق ، ص ٣١٥.

١٧١ - حقوق الإنسان في الإسلام- طاهر أحمد مولانا جمل الليل ، ج١/٧ نقلا عن : قصة الفلسفة اليونانية، صنيف أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص٢٧١.

١٧٢ - حقوق الإنسان في الإسلام- طاهر أحمد مولانا جمل الليل ، ج١/٧ نقلا عن : قصة الفلسفة اليونانية، تصنيف أحمد أمين وزكي نجيب محمود، ص٢٧١

١٧٣ - المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) ج٨٨٦/٢- المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي- الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

بالتقوى"(١٧٤).

٤- ويتواصل التفكير الإسلامي في حقوق الإنسان بعد وفاة رسول الله -ﷺ- فالمرجعية القرآنية، وسنته الشريفة ظلتا ملهمتين للأجيال المسلمة التالية في هذا المجال. فوجدت صياغة الحقوق مع مطلع القرن الهجري الجديد "الجاري" من المجلس الإسلامي الدولي بيانا عالميا بإقرار حقوق للإنسان مستمد من القرآن والسنة . ولقد تضمن البيان ثلاثة وعشرين حقا من الحقوق التي كفلها الإسلام، وهي: حق الحياة، والحرية والمساواة، والعدالة، والمحاكمة العادلة، والحماية من تعسف السلطة، والحماية من التعذيب، وحماية العِرْض والسمعة، واللجوء والأقليات، والمشاركة في الحياة العامة، وحرية التفكير والاعتقاد والتعبير، والحرية الدينية والدعوة والبلاغ، والحقوق الاقتصادية، وحماية الملكية، وحق العامل وواجبه، وكفاية الفرد من مقومات الحياة، وبناء الأسرة، وحقوق الزوجة والتربية، وخصوصيات الفرد وحمايتها، وحرية الارتحال والإقامة.

٥- وهكذا نجد الخطوط العريضة للبيان عن الحقوق الإنسانية كما يلي:

- **دار الإسلام واحدة، وهي وطن كل مسلم.**
- **الناس جميعا سواسية أمام الشريعة.**
- **ليس لأحد أن يلزم مسلما بأن ينفذ أمرا مخالفا للشريعة.**
- **الأوضاع الدينية للأقليات يحكمها المبدأ القرآني: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} .**
- **لا يجوز انتزاع ملكية نشأت عن كسب حلال إلا للمصلحة العامة.**
- **لا يجبر الفتى، أو الفتاة على الزواج ممن لا يرغب فيها.**
- **للزوجة أن تطلب الطلاق في حدود الشرع.**
- **سرائر البشر إلى خالقهم وحده، وخصوصياتهم حمى.**

٦- وفي قرن متأخر -أي منذ القرن السادس عشر- انتبهت أوروبا إلى البحث في القانون الدولي، الذي أصبح فيما بعد هو الإطار الذي ظهرت وتمت بداخله فكرة حقوق الإنسان، إلى أن أصبحت اتفاقية أوروبية تعرف باسم اتفاقية روما "صدرت سنة ١٩٥٠م، ثم انتهت إلى إصدار ما يعرف باسم مواثيق حقوق الإنسان سنة ١٩٦٨م".

٧- فـ"الماجنا كارتا" الذي رفعه الملك جان في بريطانيا عام ١٢١٥م لم يكن إلا نتيجة ما قام به الإقطاعيون من تذمر. فكانت "الماجنا كارتا" كعهد أو ميثاق بين الملك والأمراء ينظم العلاقات بينهم، ولكن جاءت موادّه متقدمة في صالح الأمراء بقدر أكبر، بينما لم تشتمل على ما يشير إلى حقوق عامة الشعب، رغم ما لُوحظ في وقت لاحق فيها من حقوق في التحقيق في القضاء، كحق التظلم من الحبس، والتحكم في فرض الضرائب.

٨- ثم يأتي بعد ذلك ميثاق "توم بين" "١٧٣٧-١٨٠٩م" الخاص بحقوق الإنسان، فيثير في

---

١٧٤ - شعب الإيمان - أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) ج١٣٢/٧ - حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد- أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند - الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند - الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.حديث صحيح : انظر الصَّحِيحَة: ٢٧٠٠ صَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب: ٢٩٦٣.

عقول الناس الإحساس بهذه الفكرة العظيمة خصوصا حول عام ١٨٩١م.ثم جاء إعلان حقوق الإنسان الذي ظهر إبان الثورة الفرنسية ١٧٨٩م ليكون من أهم منجزاتها، إذ كان ثمرة من ثمار الفلسفات الاجتماعية التي سادت القرن الثامن عشر، خصوصا من أفكار جان جاك روسو صاحب "العقد الاجتماعي" ومونتسكيو وديدرو. وقد تضمن هذا العهد الجديد النابع من باريس الحقوق الفطرية فيما يختص بحكم الشعب والحرية والإخاء والمساواة والملكية، كما شمل حقوق التصويت والانتخاب والتشريع، وتحكم الرأي العام ورقابته على فرض الضرائب، والتحقيق القضائي في الجرائم، وإعمال آلية العدالة.وقد سعى لتضمين هذه الحقوق في الدستور؛ لتصبح أكثر إلزاما وعملية.

٩- ثم ينتقل التفكير في حقوق الإنسان إلى العالم الجديد، فتظهر الإصلاحات العشرة في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد احتوت على معظم المبادئ التي تضمنتها الفلسفة الديمقراطية البريطانية. وتوسع التفكير الإنساني في الحقوق تلك لتتبناه المنظمة الدولية، فتوافق سنة ١٩٤٨م في ديسمبر على قرار بمنع قتل الإنسان أو فعل ما من شأنه التأثير على حياته ووجوده البشري.

ويبقى من هذا الميثاق التاريخي "الإعلان العالمي" أهدافه التي تؤكد تساوي البشر رجالا ونساء في العزة والكرامة والأهمية والحقوق الإنسانية الأساسية. وتؤكد المادة "٥٥" من هذا الإعلان على أن الأمم المتحدة سوف تزيد من حمايتها، واحترامها العالمي لحقوق الإنسان وحرياته.(١٧٥)

ويتضح من هذا العرض السريع أن حقوق الإنسان في الغرب لا تاريخ لها، ولا وجود لها قبل قرنين أو ثلاثة، كما أنها بالرغم من كثرة ترديدها ليس لها قوة تنفيذية(١٧٦).وعلى سبيل المثال؛ ظلت الحقوق الاقتصادية للإنسان مجهولة لدى العالم الأوروبي، ولم يعرفها إلا حديثا، إذ إن المطالبة بها والاعتراف لم يبدأ إلا مع الحركات الاشتراكية الحديثة في أوروبا، منذ القرن التاسع عشر، حيث ارتبطت دائما حقوق الإنسان في أوروبا وغيرها بالحقوق السياسية والحريات العامة، ولم تظهر هذه منذ أربعة عقود عند صدور الإعلان العالمي الذي تضمن بعض المواد الخاصة بها.

أما الاعتراف بهذه الحقوق فلم يتم إلا سنة ١٩٦٦م عند صدور الميثاق الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية، وأما قبل هذا فلم تكن هذه الحقوق معترفا بها إطلاقا، حتى في البيان الذي أصدرته الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م، إذ لم يتضمن مع تقدمه مادة واحدة تتعلق بالحقوق الاقتصادية(١٧٧).زيادة على الاحتلال الذي فرضته القبائل القوطية الغربية على بلاد الأندلس ، كان التسلط والظلم والاضطراب سمةً بارزة في فترة حكمهم التي امتدت نحو ثلاثة قرون " لكن سلطانهم لم يستقر في البلاد أول الأمر بسبب ما ثار بينهم وبين أهل البلاد من منازعات دينية ، وبسبب ما شجر بين أمرائهم من خلافات ، ولهذا ظلت البلاد طوال القرن السادس نهبا للحروب الأهلية ، وما ينجم عنها من الفوضى وسوء الحال...- حتى كان آخر حكام القوط – واحد اسمه " رودريكو " (لذريق)...والظاهر الذي لا تستطيع المناقشة إخفاءه أن الرجل كان يشعر باضطراب الأمر عليه ، وأنه ظل حياته متخوفا من وثبة تكون من أحد أعدائه الكثيرين ؛ لأن هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد " غيطشة " وحدهم – الذين استولى " لذريق " على ملكهم – بل كانوا في واقع الأمر جلة الشعب الإيبيري الروماني واليهود ، أي معظم أهل البلاد التي اقتحمها القوط عليهم "(١٧٨)

---

١٧٥ - حقوق الإنسان في الإسلام - طاهر أحمد مولانا جمل الليل ، ج١/٨-١١ .
١٧٦ - الحكومة الإسلامية، أبو الأعلى المودودي، الدار السعودية.
١٧٧ - الثورة الفرنسية، حسن جلال، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٢٧م.
١٧٨ - فجر الأندلس ، ص/١٨،٨-١٩. باختصار.

وقد حاول كثير من المؤرخين الأسبان أن يدافعوا عن دولة القوط – تعصبا منهم في رفض الوجود الإسلامي في تلك البلاد – إلا أن كتب التاريخ مليئةٌ بالأدلة على ما ذكره الأستاذ حسين مؤنس في شأن رفض أهل البلاد حكم القوطيين ، حتى نقل عن (١٧٩) " رفائيل بالستيروس " المؤرخ الإسباني قوله : إن العرب لو لم يتدخلوا في سنة ٧١١هـ في شؤون الجزيرة ، ويضعوا نهاية لهذا العصر المضطرب ، لَبَلَغَ القوطُ بإسبانيا مبلغا من السوء لا يسهل تصوره ، ولما اشتد ظلم حكام القوط في تلك البلاد ، وضاق الشعب بهم ، أرسلوا إلى المسلمين يطلبون منهم تخليصهم والنجاة بهم ، فقد أجمعت المصادر العربية على ذكر إرسال حاكم " سبتة " واسمه " يوليان " أو جوليان " إلى موسى بن نصير يطلب منه دخول البلاد وتخليصهم من شر " لذريق " ، كما تذكر كثير من المصادر إرسال أبناء " غيطشة " إلى موسى بن نصير يستنجدون به على مَن غصبهم ملك أبيهم ، بل إن المصادر التاريخية الغربية تنسب إلى اليهود المضطهدين في " الأندلس " من قبل القوط استنجادَهم بِمَن وراء البحر من " الأفارقة " أو " المسلمين " ليخلصوهم من ظلم " لذريق " وأعوانه ، وهو أمر وإن أنكره بعض المؤرخين ، غير أن المتفق عليه بينهم أن اليهود تعرضوا في تلك الفترة إلى اضطهاد كاد يفنيهم ولا يبقي لهم أثرا .(١٨٠) وفي النصوص الباقية الموروثة كثير من الأدلة على أن الأندلسيين استقبلوا المسلمين استقبال الفاتحين .

وعن الخدمات التي قدمها بعض الإسبان لموسى بن نصير:

" فلما نزل الجزيرة ، قيل له : اسلك طريقه ، قال : ما كنت لأسلك طريقه . قال له العلوج الأدلاء : نحن ندلك على طريق هو أشرف من طريقه ، ومدائن هي أعظم خطباً من مدائنه ، لم تُفتح بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله ".(١٨١) ويقول أيضاً : " ثم سار إلى مدينة قرمونة ، فقدَّم إليها العلوج الذين معه ، وهي مدينة ليس بالأندلس أحصن منها ، ولا أبعد من أن ترجى بقتال أو حصار ، وقد قيل له حين دنا منها : ليست تُؤخذ إلا باللطف ، فقدَّم إليها علوجاً ممن قد أمنه واستأمن إليه ، مثل " يليان " ، ولعلهم أصحاب " يليان " ، فأتوهم على حال الأفلال ، معهم السلاح ، فأدخلوهم مدينتهم ، فلما دخلوها بعث إليهم الخيل ليلاً ، وفتحوا لهم الباب ، فوثبوا على حراسه ، ودخل المسلمون قرمونة " (١٨٢) .

القوط يحكمون (أسبانيا) الأندلس :

وللتوسع بعض الشيء نتكلم عن حكم القوط الغربيين نذكر بعض المساوئ التى ألمت بالأسبان قبل دخول الإسلام :

القوط الغربيون :

في أواخر القرن الرابع الميلادي استطاع القوط الغربيون بقيادة ألاريك أن يُسيطروا على مصائر القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية؛ بما قَدَّمُوه من خدمات أوصلت الإمبراطور الروماني تيودوسيوس إلى العرش، فلما مات الإمبراطور عام (٣٩٥م) أصبح ألاريك -زعيم القوط الغربيين- أقوى قائد في غرب أوربا ووسطها، فما لبث أن حاول السيطرة على روما نفسها (عاصمة

---

١٧٩ - فجر الإسلام – حسين مؤنس ، ص١٠.
١٨٠ - انظر "فجر الأندلس" لحسين مؤنس ، ص/١٤.
١٨١ - أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، ص/٢٤.
١٨٢ - المصدر السابق .

الإمبراطورية الرومانية) ونجح في هذا فعلاً عام (٤١٠م) في مأساة لا يزال يتذكرها التاريخ الأوربي.

وفي هذه الفترة كانت الدولة الرومانية قد سمحت لقبائل الوندال الهمجية -التي تستوطن شبه الجزيرة الأيبيرية- بالاستقرار في منطقة الشمال الغربي من الجزيرة؛ بشرط ألا تُهَدِّد استقرار المناطق الأخرى، غير أن كثرة القبائل وهمجيتها وضعف الدولة الرومانية، جعل هذه القبائل تُسيطر على كل الجزيرة -تقريبًا- وتُهَدِّد بلاد الغال (فرنسا الآن) -أيضًا- وتمارس تخريبًا همجيًّا كبيرًا.

ثم انتهى غبار الصراع في روما بموت ألاريك فَخَلَفه أطاووف في زعامة القوط الغربيين، وتطوَّرت الأحوال إلى أن أقرَّت الإمبراطورية الرومانية أطاووف في جنوب بلاد الغال، ثم سَلَّطَتْه على قبائل الوندال، فاستمرَّ زحف القوط الغربيين الأقوياء يُنهي ويضغط ويطرد قبائل الوندال إلى الجنوب، وفي أثناء تراجع الوندال كانوا يُخَرِّبُون ما بقي من حضارة الرومان في شبه الجزيرة، إلى أن انتصر القوط الغربيون وأحكموا سلطانهم على الجزيرة؛ خاصة في عهد الزعيم القوي (واليا Valia). لم يلبث الأمر كثيرًا حتى تضعضعت الإمبراطورية الرومانية؛ مما جعل القوط الغربيين يستقلُّون عن الإمبراطورية بحكم شبه الجزيرة، واتخذ (يوريك Euric) لقب الملك في عام (٤٦٧م)، وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لدولة القوط الغربيين، الذين سيُعرفون باسم (القوط) في كل مراحل التاريخ اللاحقة(١٨٣)

لوذريق زعيم القوط :

قبل الفتح الإسلامي لإسبانيا بسنة أو تزيد قام أحد رجال الجيش واسمه لُذريق بالاستيلاء على السلطة وعزل الملك غِيطشَة(١٨٤) وغداةَ الفتح الإسلامي كان لُذريق هو حاكم البلاد(١٨٥)

كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامي تشكو الاضطراب والفساد الاجتماعي، والتأخُّر الاقتصادي وعدم الاستقرار؛ نتيجة السياسة ونظام المجتمع السائد، والسلطة الفاسدة، لكن هذا لا يعني أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع، كما لا يعني انعدام قوتها السياسية والعسكرية؛ بل كان بإمكانها أن تصدَّ جيشًا مهاجمًا وتُحاربه وتقف في وجهه؛ فقد أقام القوط في إسبانيا دولة اعْتُبِرَتْ أقوى الممالك الجرمانية حتى أوائل القرن السادس الجرماني، وبقيت بعد ذلك تتمتَّع بقوة عسكرية مُدَرَّبة وقوية، تقارع الأحداث وتقف للمواجهات(١٨٦)

مما سبق يتبين لنا : أن أهم عوامل سقوط بلاد الأندلس هو العامل الأخلاقي، وسقوط الأندلس بدأت معالمه ومظاهره قبل سقوط غرناطة بوقت مبكر، و ذلك بعد أن قام على أنقاض الدولة الأموية بالأندلس العديد من الدويلات الإسلامية المتناحرة المتنازعة التي صورها الشاعر بقوله:مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتمد فيها ومعتضد ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد ، ومما ينبغي التنبه له أن الضعف التدريجي للمسلمين في الأندلس الذي أدى إلى خروجهم من تلك الديار لم ينشأ من فراغ كما لم يكن وليد يوم وليلة، بل كان نتيجة لعدة عوامل

---

١٨٣ - http://islamstory.com/ar/الاندلس-قبل-الاسلام ، د.راغب السرجاني ، نقلاً عن: حسين مؤنس: فجر الأندلس؛ دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ -٧٥٦م)، ص١٥ ومابعدها.

١٨٤ - غِيطشَة أو ويتزا. انظر: ستانلي لين بول: قصة العرب في إسبانيا، ص٩.

١٨٥ - http://islamstory.com/ar/الاندلس-قبل-الاسلام ، د.راغب السرجاني ، نقلاً : عبد الرحمن حجي: التاريخ الأندلسي ص٣٠.

١٨٦ - http://islamstory.com/ar/الاندلس-قبل-الاسلام ، د.راغب السرجاني ، نقلاً عبد الرحمن حجي: التاريخ الأندلسي ص٣٠، ٣١.

وأسباب يمكن إجمالها فيما يلي:

- **انحراف كثير من مسلمي الأندلس عن منهج الله.**
- **موالاة العدو النصراني والتخلي عن الجهاد.**
- **التفرق والتشرذم.**
- **تكالب القوي النصرانية عليهم.**

ويعتبر الضعف الخلقي عند المسلمين في الأندلس قبل سقوطها أحد النتائج التي تمخضت عن الانحراف عن منهج الله، وقد كان لهذا الضعف مظاهر وصور منها:

- **الأنانية وحب الذات.**
- **التشبه بالعدو وتقليده.**
- **انتشار المجون والخلاعة بين المسلمين.**

الأنانية وحب الذات.

بعد أن قامت دولة ملوك الطوائف بعد الدولة الأموية في الأندلس تنافس أولئك على السلطة وانتشر بينهم العداء المستحكم والخصام الدائم، فالكثير منهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته الذاتية وإشباع أنانيته ووجوده في السلطة ولو على حساب المسلمين!! وقد أدرك هذه الحقيقة الكثير من المؤرخين لهذه المرحلة منهم : أبو حيان الأندلسي حيث قال: "دهرنا هذا قد غربل أهليه أشد غربلة، فسفسف أخلاقهم، وسفه أحلامهم، وخبث ضمائرهم...".

يقول المراكشى : وصار الأمر فى غاية الأخلوقة (الأضحوكة) والفضيحة، أربعة كلهم يتسمى بأمير المؤمنين فى رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخًا فى مثلها.

وقال ابن حزم: "اللهم إننا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم وبعمارة قصور يتركونها عما قريب، عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم..." وقال في موضع آخر عنهم: "والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم بادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرم المسلمين وأبنائهم، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعًا فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس".

التشبه بالعدو وتقليده.

للمسلمين شخصيتهم المستقلة التي تميزوا بها عن غيرهم من الشعوب والأمم، وقد ظل مسلموا الأندلس خلال القرون الثلاثة الأولى لوجودهم في الأندلس محافظين على شخصيتهم تلك التي تأصلت فيها الأخلاق والقيم النبيلة ، ولكنهم بعد أن دب الضعف إليهم وعصفت بهم الفتن، وضعف الوازع الديني عند بعضهم بدأوا بالتخلي عن بعض تلك الأخلاق والتأثر بأخلاق وعادات غريبة عليهم وعلى مجتمعهم.

ذكر ابن الخطيب أن جند مسلمي الأندلس تشبهوا بالنصارى في زيهم وأسلحتهم ولم يقتصر الأمر على هذا، بل إن بعض مسلمي الأندلس قلد النصارى في الاحتفال بأعيادهم ومناسباتهم الشركية، وهناك فئة أخرى كانت تحضر مجالسهم وتشاركهم أفراحهم من هؤلاء منذر ابن يحيى أمير سرقسطة فقد بالغ في التشبه بالنصارى وموالاتهم حيث كان يحضر عقود المصاهرة التي كانت تتم بين

أبنائهم.ولا شك أن لذلك أثرًا في كسر الحاجر النفسي بين المسلمين وأعدائهم، فزالت مهابة المسلمين عند النصارى حينما تخلوا عن أصالتهم وأخلاقهم الإسلامية حيث أصبحوا حقيرين في عين عدوهم وأقل من أن يهتم بهم.

الخلاعة والمجون .

وكان ذلك من أعظم الأسباب أثرًا في انهيار الدولية الإسلامية في الأندلس، حيث كان شرب الخمور والاستغراق في الملذات والإكثار من الجواري والنساء كان ذلك قاسمًا مشتركًا بين كثير من ملوك الطوائف، وغرقوا في مستنقع الفواحش والرذيلة، ويبدو هذا جليًّا لكل من طالع أخبارهم، واستغل هذا الأمر بعض ا لوزراء والموظفين الذين رغبوا أن يستبدوا بالحكم والسلطان.

قال أحد شعراء تلك الفترة عن الخمر:

فجل حياتي من سكرها.. .. ..جرت مني الخمرة مجرى الدم (١٨٧)

وكان أهل تلك الفترة يتفاخرون بكثرة آلات الطرب والغناء، حيث يقولون عند فلان عودان أو ثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك.وامتد ذلك ليصل إلى حد الاستخفاف بالدين عند بعض الناس، فقد ذكر ابن حزم أن إبراهيم بن سيار النظام كبير المعتزلة في الأندلس تعلق بحب غلام نصراني فألف له كتابًا في تفضيل التلثيث على التوحيد تقربًا إليه!!

ومما سبق ذكره نقول :

إن قصة خروجنا من الأندلس لم تكن قصة عدو قوي انتصر علينا بقدر ما كانت قصة هزيمتنا أمام أنفسنا .. قصة ضياعنا وأكلنا بعضنا بعضا كما تأكل الحيوانات المنقرضة بعضها بعضا ، كان الترامي في أحضان العدو ممكنا .. وكان التنازل له عن الأرض ممكنا .. وكان الخلاف بين بعضهم وبعض لدرجة الاستنجاد بالعدو ممكنا .. أجل .. كان كل هذا ممكنا إلا شيئا واحدا .. إلا العودة إلى الإسلام الصحيح الخالي من حب السلطة واستعباد الدنيا ... والأمر بالاعتصام بحبل الله وحده وعدم التفرقة .. كل شيء كان ممكنا – في عرفهم – إلا هذا . ما أشبه الليلة بالبارحة ، فحالنا في هذه الأيام من جهة استعلاء عدونا علينا ، وتمكنه منا إنما هو منا ، " قل هو من عند أنفسكم " ، فقد بعدنا وبعدنا جداً عن ديننا وانتشرت رذائل الأخلاق بيننا وتشبهنا بل ووالينا أعداءنا وتفرقنا شذر مذر ، ويوم أن نعود إلى ديننا سيعود لنا عزنا " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (١٨٨).

---

١٨٧ - المغرب في حلى المغرب- أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (المتوفى: ٦٨٥هـ) ج٣٦٩/١- المحقق: د. شوقي ضيف - الناشر: دار المعارف – القاهرة - الطبعة: الثالثة، ١٩٥٥م.

١٨٨ - موقع إسلام ويب

http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=39014 وقد نقل الكاتب عن : مجلة البيان عدد رقم ٤٨.

المبحث الثاني

موقف الكنيسة في الغرب من العلم والعلماء

ما إن ظهرت في أوروبا بوادر النهضة العلمية المتأثرة بحضارة المسلمين في الأندلس بعد ترجمة العلوم الإسلامية واليونانية إلى اللاتينية، وبرز عدد من العلماء الذين بينوا بطلان آراء الكنيسة العلمية وبخاصة في الجغرافيا والفلك، حتى تصدت لهم الكنيسة استناداً على ما ورد في الإصحاح الخامس من إنجيل يوحنا: "إن كان أحد لا يثبت في يطرح خارجاً كالغصن فيجف، ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق". ولذلك استخدمت ضدهم الرقابة على الكتب والمطبوعات لئلا يذيعوا آراءً مخالفةً للعقيدة الكاثوليكية، وتوسعوا في تشكيل محاكم التفتيش ضدهم، وقد حكمت تلك المحاكم في الفترة من ١٤٨١-١٤٩٩م على تسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بأحكام مختلفة، كما أصدرت قرارات تحرِّم قراءة كتب جاليليو وجيوردا نويرنو، وكوبرنيكوس، ونيوتن لقوله بقانون الجاذبية الأرضية، وتأمر بحرق كتبهم. وقد أحرق بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة ثمانية آلاف كتاب مخطوط لمخالفتها آراء الكنيسة .

الكنيسة في عصر النهضة:

- في النصف الثاني من القرن السابع عشر، ازداد غضب الناس والعلماء والفلاسفة من سوء سلوك رجال الكنيسة ، ومن الرقابة التي فرضوها على المطبوعات، وتوسُّعهم في استخدام محاكم التفتيش، ومبالغتهم في القسوة والتعذيب ضد المخالفين والعلماء، مما أثار الفلاسفة من أمثال ديكارت وفولتير، الذين وجّهوا سهام النقد إلى الكنيسة وآرائها، ودعوا إلى إعلاء العقل مقابل النصوص الرئيسية، بفرض أن العقل يستطيع إدراك الحقائق العلمية، والخير والشر.

- في عام ١٧٩٠م أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية قرارات قاصمة لظهر الكنيسة حيث ألغت العشور الكنسية، وصادرت أموالها، وأجبرت رجال الكنيسة على الخضوع للدستور المدني، وأخذت تعين رجال الكنيسة بدلاً من البابا ، بالإضافة إلى إغلاق المدارس التابعة للكنيسة، وتسريح الرهبان والراهبات.

- في سبيل حفاظ البابا جريجوري السادس عشر على مكانته بعد هذه القرارات أصدر البابا عدة منشورات يدين فيها حركة الحرية السياسية، والحرية الاقتصادية، على أنها تحمل مضامين تخالف الدين المسيحي.

- جاء القانون الذي أقرَّته الحكومة الفرنسية ١٩٠٥م ، بفصل الدين عن الدولة على أساس التفريق بينهما وإعلان حياد الدولة تجاه الدين، كقاصمة أخرى شجعت المعارضين للكنيسة على نقد نصوص الكتاب المقدس والكنيسة بحرية، كما أجبر هذا القانون رجال الكنيسة على أن يقسموا يمين الولاء والطاعة للشعب والملك والدستور المدني الجديد. وقد امتدت هذه القرارات حتى شملت دول أوروبا، لينتهي بذلك دور الكنيسة في محاولة السيطرة على السياسة، ولتنزوي داخل الجدران، لتمارس الوعظ والترانيم على الأنغام الموسيقية.(١٨٩).

---

١٨٩ - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة - الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، ج٢/٦٠٤-٦٠٥ ، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني ، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ .

الصراع بين الكنيسة والعلم (١٩٠)

يعتبرالصراع بين الدين والعلم في الغرب مشكلة من أعمق وأعقد المشكلات في التاريخ الفكري الأوربي ، فمنذ عصر النهضة حتى العصر الحاضر والصراع – في الحقيقة – على أشده بين مؤيدي العلم وأنصار الدين، ورغم كل المؤشرات التي تبين أن المعركة قد انتهت وأن العلم انتصر بصفة نهائية على خصمه اللدود، فإن هناك ما يدل دلالة قوية على أن الدين، أو على الأصح بعض قضاياه الاعتقادية والسلوكية، لم تكن في عصر من العصور أقوى حجة منها في هذا العصر، ولذلك فقد خيل للكثيرين أن المعركة لم ولن تنتهي، وأنها باقية ما بقيت المعرفة الإنسانية، وقد ساعد على ترسيخ هذه الفكرة تقبل النفسية الأوروبية للازدواجية في كل شيء، وهو التقبل الذي تولد من خضوعها المستمر لسلطتين متباينتين، وإيمانها الطويل بفكرتين متناقضتين .

وقليل منهم من فطن إلى السر الكامن وراء استمرارية المعركة بين العلم والدين دون نتيجة نهائية حاسمة، و السبب في ذلك يمكن إدراكه بسهولة وهو : لو أن الإنسان الغربي –من أي الفريقين– يتخلى عن غروره وتبجحه، وينظر إلى المشكلة نظرة تقييمية مجردة.

وبتطبيق هذه البدهية على الصراع بين العلم والدين الأوربيِّين، نجد أن المواقع التي احتلها العلم من مناطق نفوذ الدين هي –في الحقيقة– المواقع التي انتصر فيها العقل واليقين على الخرافة والوهم، كما أن المواقع التي صمد فيها الدين أمام الهجوم العلمي الكاسح هي المواقع التي انتصرت فيها الحقيقة الموحاة على التخرصات والأهواء .

وحينئذ نستطيع أن نقول مطمئنين: إن الحق في كل من الطرفين هو الذي انتصر –أو سينتصر– على الباطل في كليهما، وأنه لو كان الدين الأوربي حقاً خالصاً والعلم الأوربي يقيناً مجرداً لما حدثت معركة على الإطلاق .

وبما أن الدين بصبغته الإلهية النقية لم يدخل المعركة، فإن الأوفق أن نسمي ما حدث في الغرب صراعاً بين الكنيسة والعلم، وليس بين الدين والعلم .

ومن المؤسف حقاً أن جناية رجال الدين الأوربيين – على الحقيقة– كانت أشنع وأنكى من جناية أنصار العلم عليها، وإن كان كل منهما مسئولاً عن النتائج المؤسفة لذلك الصراع، ذلك أن الكنسية ارتكبت خطأين فادحين في آن واحد وهما :

- **أحدهما**: تحريف حقائق الوحي الإلهي وخلطها بكلام البشر(أي تحريف الدين) وهذا الخطأ مسئول عن تسرب الخرافات الوثنية والمعلومات البشرية إلى كثير من تعاليم المسيحية، إذ جعلتها الكنيسة عقائد إلهية تدخل في صلب الدين وصميمه، وعدت الكفر بها كفراً بالوحي والدين

- **والآخر**: فرض الوصاية الطاغية على ما ليس داخلاً في دائرة اختصاصها(أي العلم ونظرياته التى تصطدم مع الدين المحرف) لذا نشأ عن ضيق صدر الكنيسة بما يخالف تعاليمها الممزوجة وإصرارها الأعمى على التشبث بها، فكان الامتداد الطبيعي للطغيان الديني طغياناً فكرياً عاماً، وحاسبت الناس، لا على معتقدات قلوبهم فحسب، بل على نتائج قرائحهم وبنات أفكارهم، وتوهمت أن في قدرتها أن تملك ما لا تستطيع أية قوة طاغية أن تحتكره، وهو الحقيقة العلمية فيما يتعلق

---

١٩٠ - العلمانية نشأتها وتطورها.. الشيخ سفر-.الفصل الثاني: الصراع بين الكنيسة والعلم.

بالتجربة المحسوسة أو النظر العقلي السليم، وبذلك أقحمت نفسها في متاهات كانت غنية كل الغنى عن عبورها وأثارت على نفسها حرباً ضروساً لا هوادة فيها ولا تمييز .

وأول عمل مارسته الكنيسة في هذا المجال هو احتكارها للعلم وهيمنتها على الفكر البشري بأجمعه، يقول برنتن : إن أكثر أصحاب الوظائف العلمية حتى في أوج العصور الوسطى كانوا ينتمون إلى نوع من أنواع المنظمات الدينية، وكانوا جزءاً من الكنيسة، حيث أن الكنيسة بدرجة لا نكاد نفهمها اليوم تتدخل في كل لون من ألوان النشاط البشري وتوجهها وبخاصة النشاط العقلي "..." وإذن فقد كان الرجال الذين يتلقون تعليمهم في الكنيسة يكادون يحتكرون الحياة العقلية، فكانت الكنيسة منصة المحاضرة والصحافة والنشر والمكتبة والمدرسة والكلية ، وكان أصحاب الميول الفلسفية في الدول الرومية، سواءً من رجال الكنيسة أومن المسيحيين العاديين، متأثرين بتراثهم من الفكر الإغريقي في ميادين العلم والفلسفة، لا سيما آراء أرسطو وبطليموس، وقد بذلوا جهودهم في التوفيق بين معتقداتهم الدينية وآرائهم الفلسفية، ونشأ عن ذلك فلسفة مركبة تسمى "الفلسفة المسيحية" وهي خليط من نظريات الإغريق وظواهر التوراة والأناجيل وأقوال القديسين القدامى، ولما كان العلم والفلسفة في ذلك العصر شيئاً واحداً، فقد أدمج الفلاسفة المسيحيون في صرح فلسفتهم كل ما وصل إليه العلم البشري في عصرهم من النظريات الكونية والجغرافية والتاريخية، ورأت الكنيسة في هذه الفلسفة التوفيقية خير معين على الدفاع عن تعاليمها ضد المارقين والناقدين، فتبنتها رسمياً وأقرتها مجامعها المقدسة حتى أضحت جزءاً من العقيدة المسيحية ذاتها وامتدت يد التحريف فأدخلت بعض هذه المعلومات في صلب الكتب الدينية المقدسة .

ولم يبدأ عصر النهضة الأوروبية في الظهور حتى كانت آراء أرسطو في الفلسفة والطب ونظرية العناصر الأربعة ونظرية بطليموس في أن الأرض مركز الكون، وما أضاف إلى ذلك القديس أوغسطين وكليمان الإسكندري وتوما الأكويني، أصولاً من أصول الدين المسيحي وعقائد مقدسة لا يصح أن يتطرق إليها الشك ، وكانت الفلسفة المسيحية هذه تشتمل على معلومات تفصيلية عن الكون تقول: "إن الله خلق العالم ابتداءً من سنة (٤٠٠٤ ق.م) وتوج ذلك بخلق الإنسان في جنة عدن على مسيرة يومين من البصرة بالضبط، والعجيب أنها ظلت مصرة على هذا الرأي حتى مطلع القرن التاسع عشر، فقد طبع كتاب الأسقف "آشر" الذي يحمل هذه النظرية سنة (١٧٧٩)م

أما تاريخ الطوفان فتختلف فيه تقاويم التوراة، لكنه على أقصى آرائها وقع بعد خلق آدم بـ(٢٢٦٢) سنة ومعنى ذلك أنه كان سنة (١٧٤٢ق.م) ومن الطريف أن مجلساً كنسياً كان قد أعلن في بداية القرن العاشر للميلاد أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل؛ لأن الله قد جعل المدة بين إنزال ابنه ونهاية العالم ألف سنة فقط .أما معلوماتها الطبية، فقد كانت أفضل وأنجح الوسائل العلاجية في نظرها إقامة الطقوس لطرد الشياطين التي تجلب المرض، ورسم إشارة لصليب، ووضع صور العذراء والقديسين تحت رأس المريض ليشفى .وعرفت أوروبا الطريق إلى النهضة بفضل مراكز الحضارة الإسلامية في الأندلس وصقلية وجنوب إيطالية، التي كانت تشع نور العلم والمعرفة على القارة المستغرقة في دياجير الخرافة والجهل، فاستيقظ العقل الأوروبي من سباته، وأخذ يقتبس عن المسلمين طرائق البحث ومناهج التفكير التي تجعله يكد ويعمل في مجال اختصاصه دون وصاية ضاغطة، وثارت ثائرة رجال الكنيسة على الذين يتلقون علوم الكفار (المسلمين)، ويعرضون عن التعاليم المقدسة، فأعلنت حالة الطوارئ ضدهم، وشكلت محاكم التفتيش في كل مكان تتصيدهم وتذيقهم صنوف النكال، وأصدرت منشورات بابوية جديدة تؤكد العقائد السابقة وتلعن وتحرم مخالفيها، وبذلك قامت المعركة على قدم وساق وأخذت تزداد سعاراً بمرور الأيام .

وكان من سوء طالع الكنيسة أن النظريات الكونية سبقت النظريات الإنسانية في الظهور، وهي نظريات أثبتت الأيام صحتها - إجمالاً - بخلاف الأخرى، وبذلك قدر للكنيسة أن تصطدم بالصحيح قبل الزائف، فلما خسرت معركتها معه سهلت هزيمتها أمام الآخر .(١٩١).

المبحث الثالث

نشأة العلمانية وأسباب ظهورها :

بسبب الصراع بين رجال الدين في الكنيسة والعلماء في الغرب نشأت العلمانية التى كانت سببا لطلاق رجال الدين ، ومن المعروف – أيضاً - في القرون الوسطى كانت بالتزامن مع التقدم والرقي الإنساني والعلمي الإسلامي ، حيث عاشت أوربا عصور جهل سميت بعصور الظلام ، كانت فيه الكلمة الأولى والأخيرة لرجال الدين المسيحي ، فهم الذين كانوا يتحكمون في كل شيئ ولا يستطيع الناس أن يخطو أحدهم خطوة إلا بمباركة الكنيسة وإذنها ، فكانت لها الكلمة العليا أيضا على رجال السياسة والاقتصاد ممن يسمون بفئة الإقطاعيين أصحاب رؤوس الأموال والذين يتخذون غيرهم عبيدا عندهم للعمل في مزارعهم ، وكان مجرد تأفف العبد أو شكواه من ظلم سيده له جريمة كبرى يحكم عليه بالمروق ومن ثم الموت من قِبل الكنيسة ورجالها .

ولم يقتصر تدخل الكنيسة في هذه الجوانب فقط ، فقد تعداها إلى العلوم النظرية والتطبيقية ، فكان لها علمها الخاص الذي تلزم الناس بالقول به ، ويعتبر كل قول مخالف أو كل عالم مخالف لهم مارقا من الدين ويتهمونه بالإلحاد والزندقة ويحكمون عليه بالموت بوسيلة غاية في الوحشية وهي الموت حرقا .

ولم تكن النظريات العلمية التي تفرضها الكنيسة نابعة من أساس علمي أو تجارب حقيقية ، بل كانت عبارة عن تخيلات أو أهواء لأصحابها ثم يصبغونها بالصبغة الدنية بدعوى أن هذا علم من الكتاب المقدس ، ويعتبر الخروج عليه كفرا بالكتاب المقدس كله ، وبلغ من سطوة الكنيسة الدنيوية والدينية أن جعلت تداول العلوم عملا مجرما ، لهذا حرص العلماء وطلاب العلم على أن يجعلوه سريا ومكتوما حتى لا يقع أحدهم في يد رجال الكنيسة .

فكان الصراع الذي لابد وأن ينشأ بين رجال العلم ورجال الكنيسة والذي دفع فيه العلماء في كل يوم ثمنا باهظا حرقا وقتلا ، فكما يقول " كويت " في كتاب تاريخ البشرية الصادر عن منظمة اليونسكو " كل خطوة إلى الإمام في البحث عن المعرفة قد حوربت باسم الدين "

وانتهى المطاف باستجماع العلماء لشجاعتهم وقوتهم على مواجهة السلطة الكنسية وشجعهم على ذلك تحقيق العلم والعلماء عدة انتصارات عليها ، فيقول " الفريد هوايت هد " في كتاب " الجفوة المفتعلة بين العلم والدين : " ما من مسألة ناقض العلم فيها الدين إلا وكان الصواب بجانب العلم والخطأ دائما حليف الدين "

ولم تكن تفسر الحرب الدائرة بأنها بين رجال العلم ورجال الدين فحسب ، بل أصبح الفريقان يصورانها للعامة بأنها حرب صريحة للعلم مع الدين ، ولهذا عندما انتصر العلماء اعتبرت هزيمة ساحقة للدين وليس لرجال الكهنوت فقط ، وأعلن موت الدين النصراني في أوروبا وفصله تماما عن

---

١٩١ -كتب الشيخ سفر- العلمانية نشأتها وتطورها...الفصل الثاني: الصراع بين الكنيسة والعلم.
-http://www.alhawali.com/main/5922

الحياة .(١٩٢) ومن هنا نشأت العلمانية ، وأصبح الدين بين جدران الكنيسة فقط ، وظهرت مصطلحات الفصل بين الدين والحياة " أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ..

العلمانية نتيجة الهزائم المتكررة للكنيسة أمام العلم .

ومن هذه الخرافات التى احتدم الصراع بين الكنيسة والعلم بسببها أن الكنيسة قالت – وفقا للكتاب المقدس – أن الأرض مسطحة منبسطة وأنها هي مركز الكون ، وجاء العلم بتجاربه وباستعانته ونقله عن العلماء المسلمين وبالأجهزة التي تم ابتكارها في تلك الآونة ليظهر بوضوح وجلاء أن الأرض ليست مسطحة وأنها كروية الشكل – في حينها – وأنها ليست محور الكون فالأرض والكواكب الأخرى المحيطة تدور حول الشمس ، فكانت هزيمة للكنيسة .(١٩٣)

والقرآن الكريم يثبت أنها كروية قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾ الزمر: ٥

(خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل يغشى كل واحد منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس باللابس، أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة، أو يجعله كارا عليه كرورا متتابعا تتابع أكوار العمامة. وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى هو منتهى دوره أو منقطع حركته. ألا هو العزيز القادر على كل ممكن الغالب على كل شيء. الغفار حيث لم يعاجل بالعقوبة وسلب ما في هذه الصنائع من الرحمة وعموم المنفعة.)(١٩٤)

– قالت الكنيسة أن الإنسان والكون خلقا معا في ستة أيام وذلك في عام ٤٠٠٤ ق م ، بينما أثبتت الحفريات والكائنات الدقيقة والعلوم الحديثة أن عمر الكون لا يعود لأربعة آلاف عام فقط بل يقدر عمر الكون بمئات الملايين من السنين ويقدر عمر الإنسان بالملايين وأنهما لم يخلقا معا بل سبق الكونُ الإنسانَ بمدة طويلة جدا .

– قالت الكنيسة أن الكون مكون من عناصر أربعة فقط وهي الماء والتراب والنار والهواء بينما أثبت العلم أن مكونات الكون كثيرة جدا ويستحيل تخلقها من بعضها وأنها تزيد عن التسعين عنصرا

– وفي باب العقيدة قالت الكنيسة أن العهد القديم والجديد ورسائل الرسل الموجودة بين أيديهم كتب منزلة من السماء ، ولكن النقاد التاريخيين الذين اعتنوا بالبحث عن أصول تلك الكتب ومرادفاتها ولغة الخطاب اثبتوا أنها من كتابة مؤلفين بشريين وذلك في عصور متعددة وليسوا في عصر واحد .

– وفي باب العقيدة أيضا تلك العقيدة الأساسية عندهم بأن الأب عندهم له ذات كاملة غير متجزئة ، وكذلك الابن والروح القدس ، فكل منهم له ذات كاملة فليسوا أثلاثا ، ولكنهم بجمعهم للذوات الكاملة الثلاثة يصير الناتج واحدا ، فكانت معادلتهم (١+١+١=١) ، والعقل البسيط للعوام فضلا عن علماء الرياضيات ينكرون هذا ويعدون القول به مستحيل عقلا فلا محل لقبوله شرعا

---

١٩٢ - موقع : http://www.tanseerel.com/main/articles.aspx?selected_article_no=54626

١٩٣ - ١٩٣ - موقع : http://www.tanseerel.com/main/articles.aspx?selected_article_no=54626

١٩٤ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل- ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) ج٣٧/٥ ، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي - الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ

– وفي باب العبادات قالت الكنيسة أن الخبز والخمر في العشاء الرباني أو ما يسمى عندهم بالتناول يتحولان إلى دم وجسد المسيح حقيقة ، بينما أكد العلم والتجربة العملية أن مزج الخبز بالخمر لا يمكن عقلا أن ينتج لحما ودما وأن هذا محض استحالة عقلية فلا يمكن قبوله منهم .

– وفي مجال الحياة الاجتماعية وربطها بالدين قالت الكنيسة أن الرهبنة وسيلة للطهر وفضيلة سامية ، بينما أثبت علماء الاجتماع وعلماء النفس أنها تتصادم مع الفطرة الإنسانية وتصادم نواميس الطبيعة وتفضي بالجنس البشري للهلاك إذ أنه لن يكون هناك نسل ، وأثبتت الوقائع التاريخية والعملية أن سلوك سبيل الفواحش هو البديل الذي حل لدى الرهبان محل الطهر الذي تركوه بدعوى طلب الفضيلة .

– وفي الطب قالت الكنيسة آن كل الأمراض كبيرها وصغيرها سببها الوحيد مس شيطاني وبالتالي يمكن علاجه بإقامة القداس والمسح بالصلبان ، بينما أثبت علماء الطب أن هناك كائنات دقيقة (سميت فيما بعد بالميكروبات والفيروسات) تسبب الأمراض يمكن القضاء عليها بالمستحضرات الكيمائية على سبيل الوقاية والعلاج .

وكان انتصار اليهودي دارون في معركته مع الكنيسة بنظريته الباطلة حول أصل الإنسان التي لم يستطع رجال الكنيسة الثبات أمامها أو مقاومتها وردها ، كان بمثابة إنهاء كامل لسيطرة الكنيسة على العلم ، فتعرضت بعده كل ثوابت الكنيسة للنقد والإبطال .

لذا فمن أحد أهم الثوابت التي تعرضت للنقد معجزات الأنبياء والرسل والحواريين الموجودة في الكتاب المقدس ، فتعرضت للهدم الكامل من الأساس لعدم وجود سبب علمي لها ، فقال عنها " هيوم " في كتاب تكوين العقل الحديث : " يرفض الأحرار الاعتقاد بأي خرق للقانون الطبيعي ونظامه ولذا يفسرون أخبار المعجزات بأنها من نتاج أسباب طبيعية إنسانية كالسذاجة والخيال والخرافة " .

وبعد هذه الانتصارات المتتالية كان ظهور العلمانية كرد فعل وتيار أهوج ومتطرف على سيطرة الكنيسة على كل مناحي الحياة وعلى تدخلها وقمعها للعلم والعلماء ، فنادت العلمانية بنبذ الدين كلية وشكلت تيارا علميا وفكريا وثقافيا هادرا جرف أمامه كل ما يمت للدين بصلة معتقدين اعتقادا راسخا بان تقدمهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي مرهون بـ " شنق آخر إقطاعي بأمعاء آخر رجل دين " وأن تقدمهم العلمي مرهون بإسكات صوت الدين عن التحدث في أي قضية مهما صغر شأنها .

وأضحى التمسك بالدين أو حتى مجرد الحديث عنه سبة في شأن صاحبه ، ويعتبر رجعية وتخلفا وردة حضارية وعودة لعصور الظلام ، وحتى من كان لديه من العلماء مسحة من أثر دين فليسكت عنه ولا يجعل له أي تأثير في حياته وعمله ، ولهذا كانت توصيتهم لعلمائهم بنبذ الدين كما قال اميل بورترو في كتاب " العلم والدين في الفلسفة المعاصرة" : " أنه يجوز لأي منهم – أي العلماء – أن يعتقد معتقدات كما يرغب بدافع شخصي أو وراثي ، ومن كان منهم متدينا فعليه حين يدخل المعمل أن يترك عند الباب معتقداته الدينية ولا بأس أن يستعيدها عند خروجه من معمله " .(١٩٥).

---

١٩٥ - موقع : http://www.tanseerel.com/main/articles.aspx?selected_article_no=54626

العلمانية تجسيد لنظرية الصراع بين الإنسان والإله :

ونظرة متفحصة لحقيقة الصراع في أوربا نجد أنه لم يكن هذا الصراع بين العلم والكنيسة إلا نيابة عن صراع أعمق في الفكر الغربي النصراني ، وهو الصراع الدائم بين المخلوق والخالق نتيجة معتقدات موروثة دينية ووثنية معا لم تفارق العقلية الأوروبية النصرانية .

ففي الميراث الديني ، لم تكن العلاقة عند الغرب بين المخلوق والخالق علاقة تعبدية فيها من الإجلال والتعظيم الذي نعرفه نحن المسلمين ، ولكنها كانت علاقة شبيهة بعلاقات المتناظرين المتكافئين الذين يسعى كل منهما للسيطرة على الآخر ، وكان ذلك في الفترتين على السواء فترة النصرانية وفترة الوثنية .

ففي النصرانية قامت نصوص العهدين القديم والجديد – ونحن نؤمن أنها من صنع بشري وليست سماوية – بتشويه صورة الإله في أعين المخلوقين فجعلته كأحد المخلوقين – تعالى الله عن ذلك – فأظهروه بصورة من يُخدع ويخادع ويبكي ويندم ويتردد ويجهل ما في ملكه ويخشى مخلوقاته ، وصورت دوما أن هناك صراعا محتدما بين الخالق والإنسان على زعامة الكون وقيادته ، فالإله عندهم يستخدم قدراته وقواه للعمل على تجهيل الإنسان خشية أن ينافسه على الألوهية لو استطاع أن يصل إلى ذلك بالعلم ، والإنسان عندهم بدوره يقوم بالمحاولة الدائمة لكي يهرب من سيطرة الإله ويتعلم العلم ليتمكن من التحرر من ربقة العبودية لذلك الإله .

ففي مواضع عدة من العهدين القديم والجديد نجد هذا المعنى متكررا بوضوح ، ففي سفر التكوين مثلا عند البداية في قصة خلق آدم – عليه السلام – " فقالت الحية للمرأة لن تموتا إنما الله عالم أنكما في اليوم تأكلان منها تنفتح أعينكما وتصيران كالآلهة في الخير والشر ....." و " وقال الرب الإله هو ذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر والآن لعله يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة ويأكل فيحيا إلى الدهر فأخرجه الرب الإله من جنة عدن " .

وفي فترة الوثنية في أوروبا نجدها قد تركت للأوروبيين ميراثا شبه متطابق مع هذه الفكرة في العلاقة بين الخالق والمخلوق ، ففي الأسطورة الإغريقية – التي نبرأ إلى الله مما تقول – نجد أن زيوس عندهم الإله ورب الناس وكذلك رب الآلهة الأخرى ، فخلق زيوس برتميوس من الطين ، ونفخ فيه الروح الإلهية " اثينا " ثم حقد عليه وحرمه وذريته من كل خير في الدنيا ثم حرم عليهم النار الضرورية لإقامة حياتهم على الأرض ، فسرقها برتميوس من السماء بحيلته وبمساعدة بعض الآلهة الأخرى ، وتحدى برتميوس الإله الأكبر زيوس بالعلم ، وعندما خشي زيوس من برتميوس وتأكد من عدم مقدرته على إهلاكه ونسله عمل على تقليل فرص المعرفة أمام برتميوس وأبنائه حتى لا يرقون لمستوى الآلهة .

ولهذا استقر في أذهان الأوروبيين عن طريق الميراثين الديني والوثني معا أن كل اقتباس ونهل للبشر من العلم هو بمثابة هزيمة جزئية للإله ، وأن كل سعي نحو العلم هي خطوة للتحرر من قيود الإله ذي الصورة الحاقدة الطاغية ، والذي يتعمد تجهيلهم وإذلالهم بقهره وسطوته .

وفي هذا يقول وليم جميس في " العقل والدين " " لا يزال بعض رجال المذهب الوضعي ينادي اليوم قائلا : هناك إله واحد مقدس يقف في جلاله وعظمته بين أنقاض كل إله غيره وكل وثن ، والحقيقة أنه ليس هناك إلا أمر واحد وقول واحد وهو : أن ليس لكم أن تؤمنوا بإله " .

إذن فالعلمانية لا تعنى سوى نبذ الدين كلية من حياة الناس وإلغاء دور الإله تماما ، فلا حاجة لهم به ولا شأن له بهم ، وأن لهم السلطة المطلقة على إدارة شئونهم بعيدا عن أي توجيه سماوي ولا تشريع الهي ، على أن يقتصر دور الدين على العلاقة في دور العبادة لمن شاء أن يكون له صلة تعبدية مع الخالق على ما فيه من صفات النقص التي ينعتونه بها .

وهكذا فالعلمانية : هي ردة فعل خاطئة ومتطرفة قامت ضد ممارسات خاطئة من رجال تحكموا بأهوائهم في عقول الناس ومصائرهم باسم دين محرف ، وهي كالنبات الخبيث الذي خرج من أرض خبيثة في ظروف بيئية أشد خبثا .

ويكمن الخطأ الأكبر للعلمانيين في ردة فعلهم تجاه المنكرات التي قام بها رجال الدين في أوروبا إذ أنهم عندما أرادوا التخلص من سيطرة رجال الدين الفاسدين ومن نظام الحكم باسم الدين تركوا الدين بالكلية وعادوه وأزاحوه عن حياتهم ، فيكون خطؤهم الأكبر أنهم ارتضوا بديلا واحد لم يسلكوا غيره ، فلم يبحثوا كأحد الحلول العقلية عن جوهر الدين الحق أو يبحثوا عن دين آخر يفي بمتطلباتهم الروحية ويشبع رغباتهم العقلية ولا يضع تلك القيود على العلم فيسمح لهم بالعلم والعمل معا .

ولا يقبل منهم عقلا أنهم لم يجدوا هذا الدين الذي يوازن بين الدنيا والآخرة ، وخاصة أنه في نفس الوقت كانت علوم المسلمين تملأ الكون وأنهم بالفعل قد نهلوا منها واستفادوا من علومها وبنوا عليها حضارتهم وتأكدوا بالتطبيق العملي أن الإسلام لا يعارض العلم بل يحث عليه ويكرم أبناءه ويرفع من قدرهم وشأنهم ، ولهذا فأول اتهام للعلمانيين أنهم لم يخلصوا حتى للعلم الذي ادعوه إذ اختاروا نبذ الأديان كخيار وحيد ، وأنهم أرادوا التحرر من أية سلطة دينية ، ولم يبق لهم مشرع سوى عقل الإنسان رغباته وأهوائه بعيدا عن قيد الشرع والدين ، وهذا قاسم مشترك بين كل العلمانيين .

ولهذا فمصطلح العلمانية بنسبته للعلم لا يعتبر تعبيرا دقيقا يعبر عن هذا المذهب الفكري ، بل يعتبر مصطلح اللادينية هو الأصدق تعبيرا ووصفا ، وما كان مصطلح العلمانية إلا تحريفا متعمدا منهم لترويج فكرتهم ، ولكي يوهموا الناس بأنها وذهب يدعو للعلم وللتقدم دون أن يصرحوا بأنها مذهب يدعو لنبذ الأديان كلها وقطع علاقة المخلوق بالخالق .(١٩٦).

موقف الإسلام من هذه الدعوة :

عندما ذهب بعض أبناء الإسلام إلى أوربا في عهد التقدم الأوربي الذي صاحبه تأخر المسلمين ، فوجدوا الفارق شاسعا بين علومنا وعلومهم ووجدوا أن المسافة طويلة للحاق بهم فبدأ التساؤل الأول والأهم : كيف يمكننا أن نلحق بكم أو نقتبس من علومكم ؟ فجاءت الإجابة الوحيدة بان سبب تقدمهم الوحيد هو تجنبيهم للدين عن مجريات حياتهم ، فالدين يدعو – عندهم – للرجعية والتأخر ويضاد العلوم الحديثة .

فعاد أبناء الإسلام محملين بتلك الفكرة المستوردة ، ولم يبحثوا في أصلها ولا سبب وجودها ، وعادوا يقنعون الناس بأنه لا سبيل للتقدم إلا بالبدء بما بدأ به الأوربيون .

ولهذا عند مناقشة موقف الإسلام من دعوة العلمانية لا يمكن مناقشتها على أساس أنها خيار أو

---

١٩٦ - موقع : http://www.tanseerel.com/main/articles.aspx?selected_article_no=54626

بديل مطروح يقارن بينه وبين المنهج الإسلامي ، ولا على أنها مذهب علمي قابل للاستيراد والتطبيق ، بل تُناقش من باب كشف وتوضيح الالتباس عند الناس ولكي نمنع التلاعب بعقول البسطاء .(١٩٧) .

ويجدر الانطلاق عند مناقشتها من منطلقين أساسيين وهامين وهما :

هل لنا حاجة لها في العالم الإسلامي ؟ وماذا خلفت عند تطبيقها في بلاد الغرب ؟ .(١٩٨)

أولا : هل نحتاج إلى العلمانية ؟

أسئلة كثيرة تلح على الأذهان عند البحث في حاجة امة الإسلام للعلمانية ، فلم يثبت على المنهج الإسلامي يوما عدم صلاحيته لقيادة الأمة إلى الرقي والحضارة حتى يحتاج للعلمانية ليستعين بها لتعالج أمراض الأمة الإسلامية ، أو أن يُدعى أن المسلمين يحتاجونها لتحل محل للمنهج الإسلامي لأننا ليس لدينا من الأمراض المشابهة للأمراض التي عانت منها أوروبا عند ظهور العلمانية بها ، ولأن المنهج الإسلامي يختلف تماما عن المنهج الذي كان يسير به رجال الدين في القرون الوسطى في أوربا .

إنها فكرة مستوردة ربما أفادت غيرنا فعالجوا بها بعض مشكلاتهم – مع أن هذا غير محسوم ولا مسلم به – فهل كل ما يُستورد يكون مفيدا ويحتاج إليه في كل المجتمعات ؟ .

فالعقل البسيط يأبى الإقرار بذلك لاختلاف البيئات والثقافات والاحتياجات ، فلن يقتنع العقل أبدا بأن شحنة من آلات كسح الثلوج استوردت من أوروبا ستجد من يقبل على شرائها في دولة صحراوية قاحلة الماء ، ولن يسلم أبدا ضعاف العقول – فضلا عن العلماء – بأن سفنا محملة بأكوام مكدسة من المعاطف ذات الفراء الكثيف الغالي الثمن يمكن أن يرحب بها أبناء دولة تقع على خط الاستواء لا ينقطع عنها حر الشمس صيفا ولا شتاء !! ، كما أن كل صاحب عقل حتى لو كان محدود التفكير لن يقبل أن يجرب على نفسه ويضع دهانا لتورم القدمين فيضعه على عينه ليعالج مرضها لمجرد انه فقط دواء مستورد.

وبهذا فأمراضنا الحالية كأمة مسلمة تختلف تماما عن أمراضهم التي تطلبت منهم حربا شرسة بين رجال العلم ورجال الدين ، ولهذا كيف نأتي بالعلمانية لتعالج عندنا مشكلات اصطدام العلم مع الدين وهما في الأصل لم يصطدما يوما في المنهج الإسلامي، بل يعتبر أن زمن التقدم والازدهار العلمي عند المسلمين كان متواكبا مع التزامهم بثوابت دينهم ، ولم يتراجع العلم ويسود الجهل والخرافة إلا في الفترات التي بعد المسلمون فيه عن أساسيات دينهم عقيدة وسلوكا وأخلاقا .(١٩٩).

ثانياً : هل تقبل بكل نتائجها ؟

يمكن لنا بعد تجربة العلمانية سنين طويلة في أوربا أن ننظر في نتائجها وثمارها عليهم وعلينا أن نقبل بنتائجها كاملة أو نرفضها بالكلية – مع عدم التسليم بأن التقدم العلمي كان سببه الأساس نبذ الدين .

---

١٩٧ - موقع : http://www.tanseerel.com/main/articles.aspx?selected_article_no=54626

١٩٨ - موقع : http://www.tanseerel.com/main/articles.aspx?selected_article_no=54626

١٩٩ - موقع : http://www.tanseerel.com/main/articles.aspx?selected_article_no=54626

فدائما ما يثمر الاهتمام بالعلم ودعمه وتيسير سبله تقدما علميا وهكذا في كل أمة تهتم بالعلم قبل ظهور العلمانية أو بعدها ، وكذلك كانت أمة الإسلام دون أن تكون علمانية ، ولهذا لا يمكن لمدع أن يقول أن السبب الوحيد للتقدم العلمي هو نبذ الدين الذي يسمونه العلمانية .

وبمحاولة استقصاء لارتباط ترك الدين بنمو الحضارة وازدهارها ، فلمعظم الأمم السابقة التي تركت الدين أو سادت عندها الخرافات ولم تعرف إلها معبوداً سوى وثن ليس له أية أوامر فلم نجد لأكثرهم حضارة ، فالبدائيون الذين عبدوا الأوثان من الأحجار والأشجار والحيوانات ولم يكن لديهم رجال الدين يمنعون بحثهم العلمي كما فعل رجال الكنيسة ، فلماذا لم يتقدموا رغم أنهم كانوا بلا دين ؟

أن تزييف الحقيقة وتزيين الصورة هما الشغل الشاغل للعلمانيين الذين يحاولون إقناعنا أننا سننتقي من العلمانية الثمار الايجابية الأوروبية مثل التقدم والنظافة واحترام الإنسان – التي يدعون نسبتها للعلمانية – وسنترك ثمارها الخبيثة من الإلحاد بالله والاستهانة به وبأحكامه وكذلك الانفلات الأخلاقي والسلوكي وتحول المجتمع إلى غابة كبيرة ليس فيه من آثار الرحمة شيئ ، فالكل مجرد تروس في آلة كبيرة ومن يتوقف للحظة تدهسه الآلة الثقيلة التي لا تعرف قيما إلا قيم المال والثروة والقوة ، هذه هي العلمانية التي تبدأ بمعاداة الدين وتنحيته جانبا وتنتهي بإعلان الإنسان أنه قد صار إلها ينازع الله في ملكيته وقيوميته على خلقه ، وما العلم إلا مطية يركبها العلمانيون للوصول إلى أهدافهم التي يعرفها من زرعوا هذا الفكر الخبيث ، وللأسف اغتر به كثير من المسلمين ويظنونها خيرا محضا للأمة ويجب عليهم مراجعة أنفسهم في ذلك . وبالتالي يرفضها الإسلام جملة وتفصيلا ، فليس فيها إلا دعوة للإلحاد ونبذ الأديان ومعاداة الخالق سبحانه واعتبار هوى الإنسان هو المشرع والحاكم لهذا الكون (٢٠٠).

---

٢٠٠ - موقع : http://www.tanseerel.com/main/articles.aspx?selected_article_no=54626 وقد تم نقل بعض هذه المعلومات من : ١- " العلمانية وأثرها في المجتمعات المعاصر – سفر بن عبد الرحمن بن محمد ٢- سفر التكوين الفصل / الإصحاح الثالث ٥ –) ٣- سفر التكوين الفصل / الإصحاح الثالث ٢٢.

المبحث الرابع
أثر الكنيسة على الفكر الأوربي(٢٠١)

لقد نقد المفكرون الأوربيون الكنيسة وحاولوا إصلاحها ، ومع تقدم العلوم والمعارف ، اصطدموا بالكنيسة وحدث ما سمي بالصراع بين الدين (المسيحي الكنسي) والعلم ، وحينما أتيحت لهم فرصة التحرر من ذلك الدين استغلوها إلى أبعد الحدود ، ولذلك فإن الكنيسة أضرت بالدين لكونها السبب في نبذه والتحرر منه .

أولا : نقد الكنيسة الذي كان له أسباب أهمها :

تدهور المستوى الأخلاقي لرجال الدين المسيحي وتفشي حالات الفساد بينهم ، كشربهم للخمر وارتكابهم للزنا وغير ذلك ، إضافة لاستغلال رجال الدين لنفوذهم بفرض ضرائب على رعايا الكنيسة ، وجمعهم الأموال بطرق غير مشروعة ، ناهيك عن طبيعة المعتقدات المسيحية المخالفة للعقل البشري كالتثليث والتجسيد .

لقد تطور هذا النقد من الأمور الأخلاقية لرجال الدين فحسب ، إلى نقد التعاليم الكنسية ، ثم نقد الدين برمته .

ومن الحركات التي قامت بالنقد : الكاثاريون ومعناها الأطهار ، والولدانيون بقيادة بطرس والدو المتوفى سنة ١٢١٧ م . (٢٠٢).

ثانيا : بوادر الصراع بين الدين والعقل .

منذ القرن الثاني عشر على يد أكثر من شخصية : مثل بطرس أبيلا و أنسلم وألبرتس ماجنوس وتوماس أكونياس وغيرهم ، ولعل أبرزهم الفيلسوف الفرنسي بطرس أبيلارد ، صاحب فلسفة الشك والتشكيك في كل شيء حتى في طبيعة المسيح .

ولا شك أن الصراع الذي بدأ بين العقل والكنيسة له أسباب أهمها : طبيعة الدين المسيحي واحتوائه على مسائل عقدية غامضة ، وأصول إيمانية معقدة ، كعقيدة التثليث التي كانت عقبة أمام التفكير العقلي السليم ، بسبب التحريف والتبديل الذي تعرض له الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) ، إضافة إلى سيطرة رجال الكنيسة على مقاليد العلم والعلماء ، واحتكار الكنيسة واستبدادها بفهم وتفسير الكتاب المقدس.

ثالثا : ثورة الإصلاح الديني البروتستانتي .

فهي التي خرجت على الكنيسة الكاثوليكية ، ونددت بعيوبها ومفاسدها ، والتي مهدت لظهورها طبعا الحركات النقدية للكنيسة ، وفقدان البابوية الكثير من نفوذها وهيبتها منذ القرن الرابع عشر بسبب الأسر البابوي (من عام ١٣٠٥ – ١٣٧٧) والانشقاق الكبير (بين عام ١٣٧٨ – ١٤١٧) وتطور العقلية الأوربية تطورا دنيويا ، بعدما كانت ترى الكنيسة هي الملجأ والملاذ ، بسبب صكوك

---

٢٠١ - أثر الكنيسة على الفكر الأوربي - د/ أحمد علي عجيبة أستاذ العقيدة والأديان- طباعة دار الآفاق العربية الطبعة الأولى ٢٠٠٤ القاهرة. عرض ملخص للكتاب.

٢٠٢ - المصدر السابق.

الغفران مثلا وموضوع الاستحالة .

لقد كان من أشهر قادة الإصلاح البروتستانتي : مارتن لوثر وزوينجلي وكالفن ، وقد تحدث الكاتب عن نبذة لحياة كل منهم ، فمارتن لوثر – وهو الشخصية الأبرز في الإصلاح البروتستانتي والتي تنسب المدرسة إليه – تدين له حركة الإصلاح الألماني بقيامها وصفاتها ، والذي أنكر صراحة صكوك الغفران و عصمة البابا وعصمة المجامع الكنسية ، ودعا لإخضاع رجال الكنيسة للسلطة المدنية ، عدم احتكار البابا لتفسير الكتاب المقدس ، إضافة إلى إباحة الزواج للقسس ، وقد تزوج مارتن لوثر فعلا بإحدى الراهبات .

والحقيقة أن هذه الحركة لا تعتبر إصلاحا بل استقلالا ، فهي لم تزد على نقد الكنيسة الرومانية وليس نقد المسيحية ، وإنشاء كنيسة جديدة بأفكار مختلفة ، فالكنيسة الرومانية ما زالت قائمة ، وجذور وأصول المسيحية بشكل عام ما زالت قائمة ، ولم تجرؤ الحركة على نقدها وإصلاحها ، ففكرة التثليث والتجسد والخلاص ما زالت قائمة في كل المذاهب المسيحية ، وكذلك التحريف في الكتاب المقدس ما زال قائما . (٢٠٣)

رابعا : ثورة العقل الأوربي على الدين المسيحي المتمثل بالكنيسة

فكانت ثورة على أمرين : على الكنيسة وفسادها الأخلاقي والمادي ، وعلى المسيحية كدين يخالف العقل ويعوق الفكر أمام التقدم العلمي ، واتجه العقل الأوربي إلى إحياء المذهب الإنساني من آداب اليونان والرومان ، والاهتمام بالطبيعة وحب ارتياد المجهول .

لقد كان من نتائج ثورة العقل الأوربي تحرره من القيود الكنسية المفروضة على العقل والتفكير ، والذي ولد كراهية للكنيسة ، وتحررا منها ومن الدين كذلك ، إضافة إلى التحول إلى الترف وحياة التبذل والتهتك ونبذ كل التقاليد الدينية والآداب العامة ، فانطلقت الشهوات من عقالها ، وفشى الفساد حتى استغرق العصر كله . (٢٠٤)

خامسا : الصراع بين الدين (المسيحية) و العلم في أوربا في ظل التقدم العلمي

الذي أبرز مدى ملائمة أو موافقة ما تنتجه العقول الأوربية لما تؤمن به الكنيسة ، وما جاء بالكتاب المقدس ، و جناية رجال الدين المسيحي على دينهم كبيرة ، إذ إن ما دسوه في كتبهم كان من بين أهم أسباب الصراع مع العلم

ففي باريس حرم البرلمان الفرنسي – مدفوعا من رجال الكهنوت – المباحث الكيميائية ، التي قام بها شبان اشتغلوا بالعلم التجريبي ، وفي إيطاليا قضى الإكليروس على أكاديمية البحث الطبيعي التي أنشأها تليزيو في نابلي عام ١٥٦٠ ، وكذلك قاومت بريطانيا البروتستينية الجمعية الملكية والمجمع البريطاني لتقدم العلم ، ووصل هذا الصراع إلى أوجه في القرنين ١٦ و ١٧ ، مع نظريات علم الفلك الحديث التي زلزلت أركان الكنيسة .

---

٢٠٣ - أثر الكنيسة على الفكر الأوربي - د . أحمد علي عجيبة .
٢٠٤ - المصدر السابق.

سادسا : العلمانية التي اختلف كثيرا في معناها بين فتح العين وكسرها .

على كل حال فهي تعني بالإجمال اللادينية أو الدنيوية ، واستبعاد الدين من توجيه شؤون الحياة ، وقد نشأت العلمانية في أوربا بسبب الظروف الخاصة التي مر ذكرها هناك في الغرب ، وبالتالي فلا يمكن بأي حال من الأحوال استنساخها في المجتمعات الإسلامية التي ليس فيها أي عامل من تلك العوامل التي أدت ظهورها .

سابعا : التحول إلى الفكر المادي عند الأوربيين بفعل موقف الكنيسة من العلم .

تطلق المادية على المذهب القائل بأن الظواهر المتعددة للأشياء ترجع إلى أساس واحد هو (المادة) ، ويرى أن العالم مجموعة مكونة من شيء واحد ، والمادة أساس كل شيء ، والحياة والحركة ما هي إلا وظيفة من وظائف المادة أو صفة من صفاتها ، وهذه المادة لم يخلقها الله تعالى ، بل قديمة أزلية ، لا تتغير قوانينها ولا تفنى ، ولكن العلم الحديث أثبت بشكل قاطع اهتراء هذه النظرية وبطلانها ، من خلال تأكيده على أن الكون له بداية ، وأن أزلية المادة وهم وباطل بطلانا تاما . (٢٠٥)

لقد كان للكنيسة وأفعالها المقيدة للعقل والعلم ، أثر بارز وظاهر في اتجاه العقل الأوربي إلى الاتجاه المقابل تماما ، ألا وهو الإيمان بالمحسوس والمادة فحسب ، وطرح الدين (المسيحي) جانبا ، والكفر بمبادئه وعقائده وغيبياته(٢٠٦) .

الأصول الإنجيلية التى تعتمد عليها الكنيسة في موقفها من العلم :

عصر سلطة الكنيسة.

هذه السلطة برزت في القرون الوسطى حين كانت أوروبا تعاني من انتشار الجهل وسيطرة الخرافات بسبب سيطرة رجال الكنيسة وشدة قبضتهم على أتباعهم إذ كانوا بمثابة الدولة الطاغية فقرروا لأنفسهم صلاحيات لا حدود لها صلاحيات دينية وسياسية فوق ما يتصور العقل فلا حق إلا ما قرره البابا وأعضاؤه ولا باطل إلا ما أبطلوه ولا حلال ولا حرام إلا ما جاء عنهم، والويل كل الويل لمن حاول الخروج عن قبضتهم في أي ناحية دينية كانت أو دنيوية فإنه ينال عقابا لا هوادة فيه تحت بنزه بالهرطقة التي اخترعوها لتبرير جرائمهم بالمخالفين كما عرفت.

ومن الأمثلة على مظاهر ذلك الطغيان وعلى مدى صلاحيات رجال الدين في تلك الحقبة التاريخية ما يلي:

اختراعهم الأسماء التي يستحلون بها دماء مخالفيهم ومنها تسمية الهرطقة . ولقد تسلط رجال الكنيسة على كال من حاول أي نوع من إصلاح مفاهيم الكنيسة الخاطئة ورموه بالهرطقة وكان من أولئك الرواد في مجابهة الكنيسة وكل ما يتعلق بها وكانوا ضحية هذا البنز من تقدم ذكر أسمائهم.

فرض هيمنة رجال الدين على كل شيء دنيوي أو أخروي فربطوا كل شيء بأيديهم فلا ينال ما عند الله إلا بإرضائهم وطاعتهم.

---

٢٠٥ - د . أحمد علي عجيبة أستاذ العقيدة والأديان- طباعة دار الآفاق العربية الطبعة الأولى ٢٠٠٤ القاهرة .

٢٠٦ - ax=4&ct=4&http://www.taseel.com/display/pub/default.aspx?id=2796

فرضوا على الناس احترام وطاعة رجال الدين طاعة عمياء قائمة على الذل والخضوع المطلق والاستسلام وعدم الاعتراض في أي أمر كان.

قرروا أنه لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى ملكوت الله إلا عن طريق واسطة وتلك الواسطة هم رجال الدين البابوات فهم و حدهم الذين فوضهم الله تعالى وعلى لسان المسيح – وقد كذبوا على الله عز وجل وعلى المسيح.

لم يجوزوا لأي شخص كان، مهما كان ذكاؤه وعلمه، أن يجرؤ على تفسير الكتاب المقدس إذا لم يكن من أعضاء مجلس البابا.

جعلوا من مراسيم العبادة المتقبلة عند الله والطريق إلى قبول التوبة الاعتراف بالخطأ أمام الكاهن الذي بيده محو وغفران الذنوب فور سرد المخطئ لأخطائه سرية أو جهرية وهو على كرسي الاعتراف الذي شبه دائرة المباحث العامة.

أنشأوا فكرة صكوك الغفران وجعلوها من أهم ما ينبغي أن يفكر فيه الشخص لمستقبل حياته الأخروية، وهي في حقيقتها حيلة لنهب أموال الناس بالباطل، ولولا أن الناس قد سلبوا حتى مجرد التفكير لما قبل أحد منهم هذه المهزلة ولكن الذي يعتقد بوجود ثلاثة آلهة من السهل أن يقبل كل مستحيل وقد عرفت أنهم احتكروا كل شيء من الأمور الدينية والدنيوية وجعلوها قصرا عليهم وبالتالي فليس على الإنسان إذا أراد السعادة في الدنيا والآخرة إلا أن يقدم الهدايا العينية والنقدية والأموال المفروضة عليه وغير المفروضة ويشتري صكوك الغفران بأي ثمن يكون ويتحبب إلى رجال الدين ويتودد إليهم وهم يتولون ما يهمه لمستقبل حياته في الآخرة أو إرضاء الله عنه حسب زعمهم بسبب الصلاحيات الممنوحة له من المسيح عليه السلام وحاشاه من أكاذيبهم.

فرضوا على الناس نظام السُخرة والعشور وذلك بأن يعملوا في الأرض التي تملكها الكنيسة يوما كل أسبوع بدون أجر وأن يدفعوا عشر أموالهم هبة لرجال الدين الذين أصبحوا يأكلون ولا يشبعون.

وقف رجال الدين ضد العلم وحقائقه النظرية والتجريبية موقفا عدائيا لأنه خارج عن نطاق الكتاب المقدس الذي أعطى البابوات صلاحية التدخل في كل أمور الحياة ونشأ عن هذا الموقف العداء المستحكم فيما بعد بين الدين الذي لا يعترف بالاختراعات التجريبية ويعتبرها هرطقة وبين العلم الذي شق طريقه وسط تلك الظلمات ونجح.

تبنت الكنيسة أفكارا ونظريات في علوم الجغرافيا والأحياء وغيرها وقدستها ولم تسمح لأحد بمخالفتها وحكمت على من خالفها بالكفر والإلحاد وإباحة دمه.

وكان من نتيجة تلك الصلاحيات والهيمنة الكهنوتية أن عاش رجال الدين. البابا وأعضاؤه، عيشة البذخ والتهتك والفجور فوق ما كان يعيشه الأباطرة والملوك وحينما قوي الفكر الحر لرجال العلم والتجارب كان لهؤلاء حسابا قاسيا مع رجال الدين، ابتلى الله الظالمين بعضهم ببعض سنة الله ولن تجد لسنة الله تحويلا.

ولقد تبرم بعض كبار أتباع الكنائس من طغيان رجال الكنيسة من أصغر رتبهم إلى أكبرها ومدى ما وصلوا إليه من جرائم واستهتار بالقيم والأخلاق وبذخ لا حد له وحتى تكون الشهادة منهم على حد قوله تعالى :وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا] يوسف:٢٦ [فقد قالت عنهم "كاترين السينائية "

كما ينقل عنها "ول ديروانت ": "إنك أينما وليت وجهك سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين أو الطوائف الدينية المختلفة أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا سواء كانوا صغارا في السن أو كبارا لم تر إلا شرا ورذيلة تزكم أنفك ورائحة الخطايا الآدمية البشعة إنهم كلهم ضيقو العقل شرهون.. تخلوا عن رعاية الأرواح.. اتخذوا بطونهم آلهة لهم يأكلون ويشربون في الولائم الصاخبة حيث يتمرغون في الأقذار ويقضون حياتهم في الفسق والفجور.

كما يصفهم "ماستيشو" بأنهم: " خدم الشيطان منغمسون في الفسق واللواط والشره وبيع الوظائف الدينية والخروج عن الدين ويقر بأنه وجد رجال الجيش أرقى خلقا من رجال الدين.

وبعد أن ذكر " ديوارانت " ما سبق ، ذكر كذلك أن سجلات الأديرة احتوت على عشرين مجلدا من المحاكمات بسبب الاتصال الجنسي بين الرهبان والراهبات (٢٠٧).

محاكم التفتيش:

في خضم الصراع الدائر في الغرب بين الكنيسة ورجال العلم ، أنشأ رجال الكنيسة محاكم التفتيش وهي أسوأ وصمة عار ارتكبها رجال الدين في حق العلم التجريبي والفكر الحر والناس عموما، فلقد كان الجهل والغباء والعناد سمة عقول الباباوات وأعضاء مجالسهم ينظرون إلى كل جديد بعين الريبة والتخوف على مراكزهم الدينية أن تذهب بها فكرة أو حركة أدراج الرياح ليقينهم بأنها قائمة على شفا جرف هار لذلك طلب الراهب " ثور كماندا" إنشاء التفتيش لمقاومة العلم والفكر الحر والنظريات العلمية وكل من يخالفهم، فتم ذلك الكابوس فعاش رجال الفكر في خوف شديد ولم يجرؤ الكثير منهم أن يعلن نظرياته واكتشافاته خوفا من سلطة الكنيسة التي كانت لا ترحم أحدا خالف ما قررته. ولقد كانت تلك المحاكم سيفا مسلطا على رقاب أصحاب الفكر وعلى المسلمين بعد ذلك بخصوصهم فحكمت في المدة من عام ١٤٨١م – ١٤٩٩م أي في حدود ثمانية عشر عاما على عشرة آلاف ومئتين وعشرين شخصا بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا وعلى ستة آلاف وثمانية وستين بالشنق فشنقوا وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت (٢٠٨).

وكان أبرز العلماء الذين حاكمتهم الكنيسة في العصور الوسطى " جاليليو" الذي قال "بدوران الأرض حول الشمس" وقال كذلك "بأن السماء أكثر من سبعة كواكب " مخالفا ما جاء في رؤيا يوحنا في سفره الذي اضطره البابا " أريان الثامن" إلى أن يجثو على ركبتيه وهوفي السبعين من عمره وأن يعلن عن رجوعه عن آرائه وأنها هرطقة.

وصفة اعترافه هكذا " أنا غليليو في السبعين من عمري سجين جاث على ركبتيه وبحضور فخامتك وأمامي الكتاب المقدس الذي ألمسه الآن بيدي أعلن أني لا أشايع بل ألعن وأحتقر خطأ القول وهرطقة الاعتقاد أن الأرض تدور) (٢٠٩) .

ومثله " بافون" الذي أعلن عن رجوعه عن رأيه في تكوين الأرض مما يخالف ما جاء في قصة موسى. وصفة رجوعه " أعلن إقلاعي عن كل ما جاء في كتابي خاصا بتكوين الأرض" وحمله عن كل

---

٢٠٧ - قصة الحضارة ول ديورانت ،ج٢١/ ٨٤- ٩٥، وانظر: موقف الإسلام والكنيسة من العلم- ١٠٣ – ١٠٤.
٢٠٨ - انظر : الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية- تأليف الإمام محمد عبده ، ص ٢٦.
٢٠٩ - بين العلم و الدين: ٧٩ – ٨٠

ما جاء به مخالفا لقصة موسى) (٢١٠).

وكذا " جيورد أنو برونو" الذي أحرقته الكنيسة حيا وذرته في الرياح و" شيكو داسكولي" الذي كان له شهرة في علم الفلك بجامعة كولولينا الذي أحرقته الكنيسة حيا في لفورنسا، و" دي رومينس" الذي قال إن قوس قزح ليس ميثاقا بين الله وبين خلقه وليس قوسا حربية بيد الله ينتقم بها من عباده إذا شاء كما قرره الكتاب المقدس بل هو من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء. فجلب إلى روما وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه وحكم عليها وألقيت في النار. وهذه الأهمية لقوس قزح إشارة لما جاء في خرافات الكتاب المقدس من أنه علامة لله يتذكر به أهل الأرض فلا يجعل المطر عليهم طوفانا يغرقهم به كما أفادته النصوص الآتية من سفر التكوين.

وكلم الله نوحا وبنيه معه قائلا: "وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم. ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم. الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم من جميع الخارجين من الفلك أيضا بحياة الطوفان ولا يكون أيضا طوفان ليخرب الأرض وقال الله هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض فيكون متى أنشر سحابا على الأرض وتظهر القوس في السحاب إني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد فلا تكون أيضا المياه طوفانا لتهلك كل ذي جسد فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقا أبديا بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض) (٢١١)

(وقال الله لنوح "هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمته بيني وبين كل ذي جسد على الأرض) (٢١٢)

ومن المفكرين الذين شملهم عقاب رجال الدين" لينيوس" الذي استطاع بتحليله للماء أن يعرف سبب احمراره وأنه يرجع إلى تكاثر نوع من الجينات فيه. ولكن حينما علم بذلك رجال الكنيسة ثاروا عليه وناصبوه العداء لأن التعليل عندهم لذلك هو أن ذلك خارقة من الخوارق الربانية، تحدث عند غضب الله تعالى وقد اضطر " لينيوس" إلى التراجع خوفا من رجال الكنيسة) (٢١٣)

ومنهم " كوبرنيوكس" الذي كانت له آراء فكرية تخالف ما عليه الجامدون من رجال الكنيسة الذي أفلته الموت من قبضتهم ولكنهم لعنوه وهوفي قبره وصادروا كتبه وأحرقوها وحرموا قراءتها.

ومنهم " نيوتن" الذي تبنى القول بقانون الجاذبية فقد عوقب من قبل الكنيسة لأن هذا القول معناه من وجهة نظر الكنيسة انتزاع قوة التأثير من الله عز وجل إلى قوى مادية) (٢١٤)

ومنهم " بلاج" الذي أظهر رأيه في أن الموت كان موجودا قبل آدم عليه السلام وقامت لذلك ضوضاء وجلبة وانتهى الأمر بصدور أمر إمبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك ولعل السبب في هذا الحكم هو اعتقادهم أن الموت إنما وجد من أجل خطيئة آدم فوجوده قبل آدم يعتبر أمرا لا مبرر له وعبثا وأن الخطيئة كانت موجودة قبل آدم ، وبالأخص الجمهوريات البحرية التي لعبت دورها في

---

٢١٠ - المصدر السابق : ٧٩ – ٨٠ .
٢١١ - سفر التكوين. الإصحاح٩
٢١٢ - سفر التكوين.الإصحاح٩
٢١٣ - موقف الإسلام والكنيسة من العلم: ص ١٣٨
٢١٤ - موقف الإسلام والكنيسة من العلم: ص ١٣٨

هذا التبادل، حتى أن وغير هؤلاء كثيرون لقوا مصارعهم قتلا وحرقا وشنقا وسجنا مؤبدا إلى الموت بسبب ما كانوا يعلنونه من اكتشافات أو آراء علمية قابلة للتجربة والبحث يستحق صاحبها المكافأة إن كانت صادقة أو عدم الاهتمام بها إذا كانت غير صحيحة لكن حكم الكنيسة يختلف.

ولهذا فقد شُلت الحركة الفكرية في أوروبا زمنا طويلا إلى أن جاء القرن الخامس عشر وبدأ المفكرون ينفضون عن الناس غبار جاهلية البابوات وطغيانهم فنادى " مارتن لوثر" بحركته لإصلاح الكنيسة سنة ١٤٨٣م- ١٥٤٦م واعتبر صكوك الغفران من وسائل الذل والعبودية التي يجب أن تنتهي ثم جاء بعده كالفن سنة ١٥٠٩م – ١٥٦٤م على نفس الاتجاه ورغم أن حركة لوثر ومن سار على طريقته غيرت كثيرا من المفاهيم الخاطئة واعتبرت العقل مصدرا من مصادر الفهم أيضا إلا أنه يلاحظ أن تلك الحركات لم تتحرر من تعاليم الكتاب المقدس بل جعلته مصدر الحقيقة فيما يتصل بالإيمان وله الكلمة الأخيرة ولو خرجوا عن هذا لكانوا على جانب من الإصلاح والتحرر من الخرافات.

ومن أسباب قيام المذاهب الفكرية في الغرب ما أحس به الأوروبيون من التخلف الذي كانوا يعيشونه والغبن الفاحش الذي كانوا يعاملون به وقد كان من الأسباب التي أيقظتهم على هذا الواقع المؤلم هو اتصال الغربيين عن طريق طلب العلم في البلدان الإسلامية واحتكاكهم كذلك بالمسلمين عن طريق التجارة أو غير ذلك من الأسباب التي جعلتهم يطلعون على الأوضاع تحت ظل الإسلام والأوضاع التي يعيشونها في ظل حكامهم ورجال دينهم.

ومنها ما قام به مفكرو الغرب من نبش الحضارات القديمة وإحياء الفلسفات اليونانية والاستفادة منها لقيام نظريات ومفاهيم سموها جديدة لإغراء الناس بها كالديمقراطية والعلمانية الرأسمالية وغيرها من الأفكار التي أرادوا أن يسدوا بها فراغ بعدهم عن الكنيسة.

ومنها مكائد اليهود وحبكهم المؤامرات لإثارة الفتن في عامة العالم الغربي لتغيير كل المفاهيم السائدة في ذلك الوقت وتحطيم كل ما كان معاديا لليهود والانتصاف من كل من أسهم بأي نوع من الأذى لليهود حتى تم لهم ما كانوا يخططون له فقامت الثورات التي تسفك فيها الدماء والثورات التي يداس فيها الدين وتداس الأخلاق وجميع النظم المخالفة لليهود. وواقع الغرب اليوم أقوى شاهد على هذا .

وإذا كان ما تقدم يدل على أسباب انتشار المذاهب الفكرية في أوروبا فما هي أسباب انتشارها في العالم الإسلامي.(٢١٥)

قال الدكتور راغب السرجاني (٢١٦): (لم يقف الدين أبدًا عائقًا في طريق المسلمين للعلم، سواء في الجانب النظري أو في الجانب العملي التطبيقي، إنما كان الدين بالفعل عائقًا للعلم في المجتمعات الأوربية قبل نهضتهم الحديثة، وهو الذي رسخ في أذهانهم وأذهان من تعلم على أيديهم واقتفى أثرهم من المسلمين أن الدين من المعوقات الرئيسية للعلم.

فالكنيسة الأوربية في عصور ظلامهم كانت شديدة القسوة على العلماء، وكانت تقمع كل محاولة للابتكار والاختراع والبحث في العلم؛ في سبيل أن تظل لها السيطرة الكاملة على الشعوب وقيادة

---

٢١٥ - موقع الدرر السنية - http://www.dorar.net/enc/mazahib/6

٢١٦ - موقع قصة الإسلام - http://islamstory.com/ar

الناس، وفي سبيل استمرار جباية الأموال، وفي سبيل أخذ القرارات المصيرية، بل وفي سبيل أخذ قرار الغفران من عدمه، لعبد أخطأ أو ارتكب ذنبًا!!.

فصل الدين عن الدولة.

لقد أعلن علماء الغرب صراحة معارضتهم للكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل؛ لاحتوائهما على ما يتعارض مع الحقائق العلمية، ولاعتقادهم بأن الدين -كما رأوا- هو اضطهاد العلم والعلماء، وهو الحجر على العقول (٢١٧).

وقد راحوا يدعون بعد ذلك إلى إعلاء العقل في مقابلة النصوص الرئيسية، وحجتهم أن العقل يستطيع إدراك الحقائق العلمية، ويستطيع التمييز بين الخير والشر.وقد ساعدت الجمعية الوطنية الفرنسية على هذا التحرر، وذلك بإصدار قرارات سنة ١٧٩٠م، كان من شأنها أن قصمت ظهر الكنيسة، حيث سرحت الرهبان والراهبات، وأجبرت رجال الكنيسة على الخضوع للدستور المدني، وأخذت تعين هي رجال الكنيسة بدلا من البابا!!

ثم جاء القانون الذي أقرته الحكومة الفرنسية عام ١٩٠٥م بفصل الدين عن الدولة على أساس التفريق بينهما، وإعلان حياد الدولة تجاه الدين، كقاصمة أخرى شجعت المعارضين للكنيسة على نقد نصوص الكتاب المقدس والكنيسة بحرية، كما أجبر هذا القانون رجال الكنيسة على أن يقسموا يمين الولاء للطاعة والشعب والملك والدستور المدني الجديد.

وقد توالت القرارات بعد ذلك لتعم دول أوربا كلها، ليتقلص بذلك دور الكنيسة من محاولة السيطرة على أمور العلم والسياسة، ولتنزوي تمامًا داخل الجدران، فتمارس فقط الوعظ والترانيم (٢١٨)!!

لماذا تخاف الكنيسة من انتشار العلم والثقافة .

خوفاً على سلطانها والضرائب التى كانت تحصل عليها إضافة إلى صكوك الغفران لذا كان موقفها من العلم والعلماء الرفض ، وحاربت حركات الإصلاح والنهضة في أوربا . (فما أن ظهرت في أوروبا بوادر ما يسمى بالنهضة العلمية المتأثرة بحضارة المسلمين في الأندلس بعد ترجمة العلوم الإسلامية واليونانية إلى اللاتينية، وبرز عدد من العلماء الذين بيَّنوا بطلان آراء الكنيسة العلمية، وبخاصة في الجغرافيا والفلك، حتى تصدَّت لهم الكنيسة استناداً على ما ورد في الإصحاح الخامس من إنجيل يوحنا: (إن كان أحد لا يثبت فيَّ، يُطرح خارجاً كالغصن فيجف، ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق). ولذلك استخدمت ضدهم الرقابة على الكتب والمطبوعات؛ لئلا يذيعوا آراءً مخالفةً للعقيدة الكاثوليكية، وتوسَّعوا في تشكيل محاكم التفتيش ضدهم، وقد حكمت تلك المحاكم في الفترة من (١٤٨١ - ١٤٩٩) م، على تسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بأحكام مختلفة، كما أصدرت قرارات تحرِّم قراءة كتب جاليليو وجيوردا نويرنو، وكوبرنيكوس، ونيوتن؛ لقوله بقانون الجاذبية الأرضية، وتأمر بحرق كتبهم. وقد أحرق بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة ثمانية آلاف كتاب مخطوط؛

---

٢١٧ - الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي فصل بعنوان الكاثوليك بتصرف.

٢١٨ - المرجع السابق فصل بعنوان الكاثوليك.

لمخالفتها آراء الكنيسة) (٢١٩)

- فخر رجال الدين في الغرب بأنهم أميون لا تعليم لديهم .

- كما اشتهر رجال الدين هناك بالأمية وكان ذلك من أسباب رفضهم للعلم .

- أهم مظاهر وآثار معاداة الكنيسة للعلم والثقافة في الغرب .

تاريخ حروب رجال الكنيسة الكاثوليكية للعلم والعلماء في القرون الوسطى طويل وحافل بالجرائم والإبادة الجماعية في حق الإنسانية، وحين كانت تمسك بيدها سلطة القرار فرضت سيطرة شبه كاملة على أوروبا لمدة ألف عام. وفي هذه الفترة أتسمت بعدم التسامح والتعصب الديني، وكانت هذه هي الصفة الغالبة في تعاملها مع الناس مما عطل أدوات البحث والاجتهاد في الغرب، عندما فرض رجال الدين قيودا شاملة على العلماء وحرموهم من مزاولة أي نشاط خارج ما تسمح به مبادئ الكنيسة المسيحية، وكانت نتيجة ذلك اتهام الكثير من العلماء بالهرطقة وممارسة السحر.

وفي زمن حكم رجال الكنيسة كانت تعتبر لديهم الأوبئة مثل الطاعون والكوليرا والجدرى ... إرادة إلهية لا يمكن مواجهتها، ولذلك لما اكتشف دواء التطعيم ضد هذه الأمراض لقي معارضة شديدة من قبل الكنيسة، وكان أن ألقت جماعة نصرانية قنبلة في منزل الطبيب(بولستون) الذي كان مركزه يقوم بتطعيم مرضى الجدري. وظلت الكنيسة تعارض أي بحث علمي لا يتماشى مع المبادئ المسيحية ومنها التشريح الذي اعتبرته تشويها لجثث ستبعث بعد البعث في صور مشوهة.

وكان الاعتقاد السائد لدى رجال الكنيسة هو أن العالم بدأ يوم الأحد ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد، ولما تبين لرجال الكنيسة أن العالم المتوفي (وكليف) يقول بأن عمر الأرض أكثر بمئات السنين، أخرجوا رفاة عظامه وطحنوها ثم نثروها في البحر حتى لا تنجس الأرض.

حدث ذلك في سنة ١٥٤٣م عندما أمر (كوبرنيق) بنشر كتاب له، وهو في أيامه الأخيرة على فراش الموت. كتب فيه أن الأرض ليست هي مركز الكون، وأنه بإمكان الإنسان إذا نظر من نقطة من الفضاء إلى الأجرام السماوية بدت له وهي تدور حول الشمس، ولوجدنا كذلك تفسيرا لضوء النجوم وحركة الكواكب، وبالتالي فإن الكواكب والنجوم هي من تدور حول الشمس، وأن الأرض ليست مركز الكون كما يسود الاعتقاد. وكل هذه الحركة (نجوم وكواكب) بفعل دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. هذا الكلام أغضب رجال الكنيسة وقوبل بسخرية واستهجان، واتهم صاحبه بضعف إيمانه بمسيحيته، وكان جزاءه أن حرم من الشهرة ومن ثمار اكتشافاته العلمية، ووضع مؤلفه في أدراج النسيان، وأضاف إليه رجال الدين عبارة " هذه ما هي إلا مجرد نظرية، لا يجب أخذها في الحسبان".

وقبل أن ينتهي القرن ١٦ ظهر العالم (جيرانو برونو) ليكتشف في أبحاثه معطيات جديدة تضاف إلى أبحاث (كوبرنيق) وتؤكد نظرياته. وأخذ على عاتقه بنشرها في أنحاء أوروبا متنقلا من مدينة إلى أخرى، كما أضاف إلى نظرية (كوبرنيق) قراءات فلكية تثبت صحتها وتدعمها، وطبق مبادئها على جميع الأجرام السماوية. وأضاف في نظريته الجديدة كون الأرض لا تدور حول نفسها فقط، بل تدور حول الشمس التي تعد نجما صغيرا مقارنة بالنجوم الأخرى المنتشرة في المجرات،

---

٢١٩ - موقع الدرر السنية – موسوعة الأديان - http://www.dorar.net/enc/adyan/649

وقال باحتمال وجود كائنات أخرى تسكن الفضاء الخارجي.

جرأة هذا العالم أدت إلى القبض عليه سنة ١٥٩٤م، وتم سجنه من قبل الكنيسة لمدة ستة أعوام في انتظار تقديمه إلى المحاكمة. وفي سنة ١٦٠٠م قدم إلى المحاكمة فأدانته بتهمة ما كان يعرف وقتذاك بالهرطقة والزندقة. رفض مبدائيا أمام المحكمة نوع الخطيئة الموجهة إليه. ثم حكم عليه بالإعدام حرقا، وربط لسانه وتجريده من ملابسه وتقييد يداه ورجلاه بقضيب من حديد ثم جيء به إلى ميدان الزهور وسط روما، ثم بدأ منفذو الإعدامات بحرقه حيا وسط حشود كثيرة من المؤمنين بالكنيسة الذين كانوا يهتفون بالموت للكفار مثل (برونو).

بعد انقضاء ٣٢ سنة من حرق (برنو) ظهر العالم الفلكي(جاليليو) في إيطاليا، يؤكد حقيقة ما ذهب إليه العلماء الذين أتهمتهم الكنيسة بالهرطقة بأدلة وبراهين قاطعة، غير أن اختراع جاليليو للتلسكوب وتجاربه الفلكية كانت أخبارها عمت أوروبا، وكان محل تقدير واحترام بين الناس، لذلك لما سمع بأخباره رجال الكنيسة تملكهم الخوف، ولم يستطيعوا القيام بأي شيء مسئ ضده، ولا أن يجرأ أحد على تقديمه للمحاكمة وقتله نظرا لآرائه المؤيدة للذين أعدموا من قبله. غير أنه لم ينج من المضايقات والتهديدات بالقتل وهو في سن السبعين من عمره، ولكن الكنيسة ارغمته على الاعتراف علنا بخطيئته أمام الناس وعدم دقة أبحاثه العلمية نظرا لكبر سنه، لكي تبقى الحقيقة الثابتة ما يقوله رجال الكنيسة من كون الأرض هي مركز الكون وكل الكواكب والنجوم تدور حولها.

في سنة ١٧٧٠ حدث أن تحول الماء في بعض الأماكن الأوروبية، وفسر علماء الأكاديمية الملكية للعلوم بالأمر الطبيعي لكن رجال الكنيسة رفضوا أن يكون ظاهرة طبيعية وأرجعوا أسبابه إلى غضب الله. ولما تكرر وقوع الظاهرة في السويد قام أحد العلماء بدراستها وانتهى إلى نتيجة مفادها أن احمرار الماء تعود أسبابه إلى وجود حشرات ذات أحجام صغيرة تطلق مادة حمراء، ولما علم كبير الأساقفة بنتائج الدراسة وصفها بالعمل الشيطاني ورفض نتائجها جملة وأصر على أن هذه الظاهرة غير طبيعية، ثم مورست على هذا العالم ضغوطات وتهديدات بالقتل، ليتراجع في الأخير عن نتائج تقريره ويسند ذلك إلى أمر مجهول تتجاوز مستواه ومعرفته العلمية .وأرجعت الكنيسة أسباب حدوث الصواعق والبرق بإعراض الناس عن دفع العشور وعدم مساعدتهم في إصلاح الكنائس، ولما حاول (بنيامين فرانكلين) إثبات أن البرق ما هو إلا شحنات كهربائية موجبة وسالبة، وأن وضع أعمدة حديدية مانعة للصواعق تمتص شحناتها الكهربائية، عارض رجال الكنيسة هذه المانعات، غير أن الناس أخذوا بنصائح هذا الرجل، ووضعوا فوق بيوتهم مانعات الصواعق لامتصاص شحنات الصواعق. ولما وقع في أمريكا (ماساشوست) زلزال سنة ١٧٥٥م أرجعوا أسبابه إلى نصب مانعات الصواعق فوق البيوت والمحلات. وفي ألمانيا أجبروا رجال الدين بوضع مانعات الصواعق على الكنائس بعدما دمرت الصواعق حوالى أربعة مائة برجا من الكنائس وقتلت نحو مائة وعشرين فردا كانوا مكلفين بخدمة الأجراس، ولم يمض وقت طويل حتى كانت جميع الكنائس قد أذعنت للنظرية العلمية ونصبت على أبراجها مانعات الصواعق. وحسب التفسير الكنائسي لبعض الظواهر الطبيعية، فإن الأعاصير والرياح العاتية تصنعها الشياطين، وهي من تقوم بتهييجها، لذلك أصدر البابا (جورجي) الثالث عشر أمرا بدق الأجراس عندما تهب الرياح العاتية ويزداد الجو سوءاً. ثم ربطت ظاهرة الأعاصير بفعل الساحرات اللاتي يساعدن الشياطين في صنع الكوارث المختلفة، ولذلك أصدر البابا (أنوسنت) الثامن فى سنة ١٤٨٤م أمرا بقتل جميع الساحرات، ثم قام رجال الكنيسة بحملة واسعة في ألمانيا ضد الساحرات بتهمة ضلوعهن في فساد الجو وإظهار باقي الظواهر الغريبة، وأدت حملة رجال الكنيسة إلى قتل آلاف الساحرات حرقا.

تلك نظرة على ما فعله رجال الدين النصارى في العلماء والمخالفين لرأيهم ودينهم ومصالحهم، ولكن لم يسجل التاريخ أن أناسا باسم الإسلام قتلوا أهل الديانات الأخرى، أو أنهم قتلوا العلماء والمفكرين، غير أننا لا ننكر أن بعض الأنظمة العربية لم تخل من ممارسات تعسفية ومضايقات في حق المفكرين وسجن أصحاب الرأي بل حتى إعدامهم.(٢٢٠).

المبحث الخامس

مراحل انتشار الإسلام ببلاد المغرب (٢٧ – ٨٢ هـ).

لم تكن عملية فتح بلاد المغرب يسيرة حيث تعددت الحملات العسكرية وتخللتها عدة صعوبات أفضت في النهاية إلى انتشار الإسلام في كامل شمال إفريقيا والأندلس.

١ – المرحلة الأولى لفتح بلاد المغرب (٢٧ – ٦٤ هـ).

منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب فكر عمرو بن العاص في فتح إفريقية سنة ٢٢ هـ وذلك بعد أن فتح ليبيا الحالية، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب لم يوافق على ذلك وقد يكون سبب هذا الرفض أن الحدود الشرقية لإفريقية كانت منيعة حيث كتب عمر بن الخطاب "لا إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت" (٢٢١) .

حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح: لما عينه الخليفة عثمان بن عفان عاملا على مصر قام بأول حملة عسكرية باتجاه إفريقية سنة ٢٧ هـ/ ٦٤٧ م فتمكن من التقدم والتقى بالجيش البيزنطي عند مشارف سبيطلة وانتصر الجيش الإسلامي وقتل القائد البيزنطي جرجير. واكتفت هذه الحملة بتحقيق أول انتصار على البيزنطيين في بلاد المغرب وجمعت الغنائم وحصل اتفاق بين عبد الله بن سعد وزعماء القبائل على أن يأخذ منهم مالا ويخرج من بلادهم فلم يول عليهم أحدا. وكانت هذه الحملة الأولى مجرد اختبار لمدى قوة دفاعات البيزنطيين والتعرف على طبيعة المنطقة واستكشافها تمهيدا للحملات الموالية.

حملات معاوية بن حُديج: قام بثلاث حملات لفتح بلاد المغرب كانت الأولى مع جيش عبد الملك بن مروان سنة ٣٤ هـ حيث اتجه من الفسطاط إلى بلاد قمونية (موضع مدينة القيروان) ثم قاد حملة ثانية سنة ٤٠ هـ وثالثة سنة ٤٦ هـ واستقر في جبل القرن شمال القيروان وأرسل الجيوش لفتح المناطق القريبة ففتح عبد الله بن الزبير سوسة وعبد الملك بن مروان جلولاء.

حملة عقبة بن نافع الفهري: اتجه إلى إفريقية سنة ٥٠ هـ ٦٧٠ م قادما إليها من الصحراء ومعه عشرة آلاف فارس فاتخذ القيروان معسكرا واختار موضعها على سهل فيضي تتوفر فيه المراعي وغابات الزياتين وهي بعيدة عن البحر لتفادي الغزوات البيزنطية وجعلها قاعدة للجيش الإسلامي وعاصمة لكامل بلاد المغرب. وواصل عقبة تقدمه باتجاه الغرب متفاديا الصدام مع البيزنطيين المتواجدين على السواحل الشمالية الشرقية لإفريقية. وفي سنة ٥٥ هـ تم تعيين أبي المهاجر دينار واليا على القيروان فسلك سياسة مرنة مع البربر أدت إلى تراجع الغنائم والجباية فقرر الأمويون إعادة تنصيب عقبة بن نافع واليا على إفريقية والمغرب سنة ٦٢ هـ فواصل حملته على القبائل البربرية مثل لواتة وهوارة وزناتة ومكناسة ووصل إلى طنجة ووليلى وبلاد السوس وبلغ المحيط الأطلسي. وكانت

---

٢٢٠ - موقع مقالاتي - http://www.maqalaty.com/9439.html

٢٢١ - فتوح إفريقية والأندلس، بن عبد الحكم، ص٣٣).

القبائل البربرية قد أعدت نفسها للانتقام والثأر من عقبة واستعانت في ذلك بالجيش البيزنطي واستغلت بقاء عقبة في عدد قليل من الجنود لتباغته في بسكرة جنوب جبال أوراس بجيش يضم ٥٠٠٠٠ جندي يقودهم كسيلة البربري فقتل عقبة سنة ٦٤ هـ ٦٨٤ م ومثلت هذه المعركة نهاية لمرحلة الانتصارات الإسلامية الأولى ببلاد المغرب وبداية لفترة صعوبات واجهت الانتشار الإسلامي. **(٢٢٢)**.

٢ – مرحلة الصعوبات ومواصلة الفتح باتجاه الغرب.

كان لمقتل عقبة بن نافع الأثر الإيجابي القوي على القبائل البربرية الرافضة لانتشار الإسلام وللبيزنطيين الذين يحكمون سواحل إفريقية. فتبنت هذه الأطراف حركة مسلحة تهدف إلى صدّ الحملات القادمة من الشرق.

أ – حركة كسيلة: استقر القائد البربري كسيلة بالقيروان بعد أن هجرها عدد كبير من المسلمين باتجاه مصر بعد مقتل عقبة بن نافع، وهكذا أصبحت السلطة في إفريقية مقسمة بين كسيلة بالقيروان والبيزنطيين بقرطاج. وانتهت هذه المرحلة سنة ٦٩ هـ عندما أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان زهير بن قيس البلوي في جيش لاستعادة إفريقية. ووقعت المعركة في ممس غرب القيروان قتل فيها كسيلة واستعاد فيها المسلمون سيطرتهم على كامل بلاد المغرب إلى حدود نهر ملوية. واضطر زهير إلى الرجوع إلى المشرق على إثر اندلاع حركة عبد الله بن الزبير، وفي طريق العودة هاجمه أسطول بيزنطي في برقة بليبيا وقتل سنة ٧١ هـ. وتواصل تأثير الأحداث السياسية بالمشرق الإسلامي في فتح بلاد المغرب حيث تعطلت الحملات إلى حين القضاء على الحركة الزبيرية فأرسل الخليفة الأموي حسان بن النعمان على رأس جيش يعد ٤٠٠٠٠ مقاتل سنة ٧٦ هـ وتمكن حسان من إخضاع القيروان وانتصر على البيزنطيين والبربر ودخل قرطاج وطرد الروم البيزنطيين منها.

ب – حركة الكاهنة: برزت حركة مقاومة بربرية أخرى قادتها القبائل الزناتية البدوية بجبال أوراس بالمغرب الأوسط (الجزائر) وتزعمتها امرأة وهي داهيا بنت ماتية بن تيفان أطلق عليها لقب الكاهنة وجهزت جيشا لمنع تقدم المسلمين فاتجه إليها حسان ودارت بينهما معركة في جبال أوراس انتهت بانتصار الكاهنة وتراجع الجيش الإسلامي إلى الجريد ثم إلى قابس وفي النهاية استقر في برقة. وهكذا تمكنت الكاهنة من بسط نفوذها على كامل بلاد المغرب من جديد وأعادت بناء مملكة كسيلة في حين انحسر الوجود العربي في منطقة برقة.

واعتمدت الكاهنة سياسة الأرض المحروقة فخربت العمران وأحرقت الزرع واقتلعت الأشجار وخربت البلاد حتى لا يطمع فيها المسلمون. إلا أن هذه السياسة تسببت في نقمة عدد كبير من البربر والأفارقة والروم على الكاهنة ففروا باتجاه الجيوش الإسلامية. وفي سنة ٨٢ هـ دارت معركة بوسط إفريقية انتهت بانتصار حسان بن النعمان ومقتل الكاهنة واسترجع المسلمون نفوذهم على كامل بلاد المغرب من جديد وساهم هذا الانتصار في نشر الإسلام واللغة العربية في صفوف القبائل البربرية التي لم تكن ترفض الدين الجديد وإنما انساقت في معظمها وراء الطامعين في إنشاء إمارة بربرية.

وبشكل عام فإن عملية فتح بلاد المغرب كانت صعبة وبطيئة استغرقت حوالي نصف قرن متأثرة بأزمات الخلافة الإسلامية بالمشرق وكذلك بمحاولات التصدي التي تزعمها بعض القادة من البربر

٢٢٢ - الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وأبعاده الحضارية...د. نعيم الغالي–جامعة منوبة تونس .
roups.google.com/forum/#!msg/fayad61/CQ6Zm2v45r4/TKJKcmq7P9sJ

ودعمها الروم البيزنطيون.

ج – فتح المغرب الأقصى والأندلس:

عينت السلطة الأموية موسى بن نصير واليا جديدا لبلاد المغرب سنة ٨٥ هـ فاتخذ القيروان عاصمة لولايته وواصل حملاته العسكرية باتجاه المغرب الأقصى فأخضع المناطق الغربية لوادي ملوية وصولا إلى المحيط الأطلسي وجعل من مدينة طنجة قاعدة بحرية لتجهيز الجيش والأسطول لدخول الأندلس مستغلا انتشار الإسلام في صفوف البربر الذين اندمجوا في الجيش الإسلامي وكذلك الانقسامات السياسية التي كانت تشهدها الأندلس.

وبدأت الغارات الأولى على السواحل الجنوبية للأندلس منذ سنة ٩١ هـ ثم عين موسى بن نصير طارق بن زياد وهو من أصل بربري على جيش من ٧٠٠٠ مقاتل أغلبهم من القبائل البربرية مثل مكناسة وزناتة وهوارة... وانطلق الأسطول من طنجة سنة ٩٢ هـ/ ٧١١ م وحقق انتصارا حاسما على جيش لذريق، والتحق موسى بن نصير بالأندلس ليدخل طليطلة وسرقسطة واشبيلية سنة ٩٤ هـ ولم تتوقف الفتوحات الإسلامية بل تواصلت على كامل الأندلس ثم وصل عبد الرحمان الغافقي إلى مدينة بواتيي الفرنسية سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م وانهزم أمام شارل مارتال.

تؤكد هذه المعارك والحملات التي قادها المسلمون في إفريقية وبلاد المغرب وصولا إلى الأندلس أهمية المشروع الحضاري الذي حمله المسلمون في مغارب الأرض والمتمثل في نشر الدين الإسلامي وتعاليمه لإخراج هذه المناطق من سيطرة المسيحيين الروم والبيزنطيين من جهة ومن الديانات الأخرى التي انتشرت في صفوف البربر. ولم يكن طول المرحلة الزمنية التي استوجبها فتح بلاد المغرب سوى دليلا على أهمية الصراع بين الدعوة إلى الإسلام والمقاومة التي تزعمها أصحاب النفوذ السياسي والاجتماعي الرافضين للدين الجديد الذي سلبهم تلك الزعامة والنفوذ ونزع عنهم كل سلطة تمكنهم من بسط سيطرتهم على السكان الأصليين للمنطقة أي البربر. كما تدل هذه الأحداث على أن أغلب القبائل البربرية دخلت الإسلام اقتناعا ورفضا للمعتقدات السابقة ولم تسلم نتيجة الحروب وحدة السيف والدليل على ذلك سهولة اندماج البربر في الحضارة الإسلامية ومساهمتهم في انتشارها ورقيها على غرار تزعم طارق بن زياد وهو بربري للجيش الفاتح للأندلس رغم تعدد القادة العرب. وتشهد الحضارة الإسلامية لبلاد المغرب على شدة اندماج العنصر الأصلي البربري في المجتمع الإسلامي الجديد من خلال المعالم الثقافية والعلمية والعمرانية لبلاد المغرب والتي قام فيها البربر بدور فعال وبنّاء. **(٢٢٣)**

الأبعاد الحضارية لانتشار الإسلام في بلاد المغرب .

تعددت مظاهر الازدهار الحضاري لبلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي ومن بينها اندماج البربر في الحضارة العربية الإسلامية المتواصل إلى زمننا الحاضر وإثراء الحضارة الإنسانية بعدد هام من العلماء والمفكرين والمبدعين فضلا عن تطور الفنون كالعمارة والزخرفة...

٢٢٣ - الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وأبعاده الحضارية...د. نعيم الغالي–جامعة منوبة تونس .
roups.google.com/forum/#!msg/fayad61/CQ6Zm2v45r4/TKJKcmq7P9sJ

١ – اندماج البربر في الحضارة الإسلامية

واجهت الجيوش الإسلامية في بلاد المغرب قبائل بربرية تجيد فن القتال ومتمرسة في الحروب إلى جانب الجيش النظامي البيزنطي. وكانت تلك القبائل متحررة في أغلب الحالات من ولاءات أو أحلاف تجمع بينها وبقية القبائل في ما عدى المصالح المشتركة بحيث لم تكن توجد مظاهر وحدة تجمع بينها وتجعلها تتضامن وتتحالف للوقوف بقوة أمام التحديات الخارجية. ولهذا السبب كانت منطقة شمال إفريقيا منذ فجر التاريخ معرضة للغزوات المتتالية من الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والوندال... فغياب المصير المشترك ووحدة العقيدة والثقافة أمران جعلا من القبائل البربرية تبحث عن هويتها المشتتة بين ولاء بعضها للبيزنطيين واستقلال البعض الآخر على أرضه طالما أنه قادر على الدفاع عنها. ولما جاء الإسلام فإنه مثل عامل وحدة ثقافية واجتماعية وعقائدية وسياسية اجتمعت حوله مختلف القبائل تتهافت على القيام بدور لبناء هذا الصرح العملاق المتمثل في "خير أمة أخرجت للناس" والمساهمة في تدعيم المكاسب كنشر الإسلام في الأندلس ودعم الحضارة الإسلامية بمعالم وشخصيات علمية لا يزال أثرها قائما إلى يوم الناس هذا. ويتشابه دور الدين الإسلامي في هذا المجال مع الدور الذي لعبه في الجزيرة العربية لما حثّ الرسول محمّد ﷺعلى تأسيس نظام سياسي يتجاوز الإطار القبلي وأدى إلى نشأة الدولة الإسلامية التي يتساوى فيها جميع الناس بقطع النظر عن انتماءاتهم القبلية.

ولئن كانت بداية عملية اندماج البربر بطيئة فإنها توسعت وفق السياسة التي اتبعها الولاة حيث شجع أبو المهاجر دينار – وهو غير عربي – البربر على اعتناق الإسلام وكان مرنا معهم وأسلم على يده الكثير منهم مثل القائد كسيلة.

وفي سنة ٦٥ هـ كان ثلث جيش زهير بن قيس البلوي من البربر، كما أن كسيلة لما دخل القيروان لم يدمرها وأمّن أهلها وكذلك فعلت الكاهنة. ومن جهة أخرى ساهمت سياسة القائد حسان بن النعمان في اندماج البربر في الحضارة الإسلامية لما اشترط على القبائل المنهزمة نحو ١٢٠٠٠ رهينة لينشر في صفوفهم الدين الإسلامي ويدعم بهم الجيش لتحقيق الانتصارات كما ساهم هؤلاء الرهائن في نشر الإسلام بين ذويهم فيما بعد وشاركوا في الفتوحات ونالوا نصيبهم من الغنائم ومن الأراضي وارتقى العديد منهم في الرتب العسكرية. وتعتبر كل هذه الأمثلة نماذج إسلامية لكيفية تعامل القادة مع السكان الأصليين حيث أن المسلمين لم يصلوا إلى بلاد المغرب ناهبين ومخربين وقاهرين ومستبدين وإنما جاؤوا لرسالة أسمى ونظرة أرقى تتلخص في نشر كلمة التوحيد ورفع راية الإسلام إلى أبعد ما تسمح به الظروف والإمكانيات المتاحة، وكان رد الفعل من طرف البربر بالمثل حيث أقبلت جل القبائل على الإسلام واندمجت في المجتمع الإسلامي الجديد ليس بقوة السيف وإنما بالاقتناع وترسيخ العقيدة الإسلامية لدى فئات واسعة من السكان.

وليس غريبا عن هذه الحضارة الجديدة ببلاد المغرب أن يعين الوالي - وهو عربي – رجلا من البربر وهو طارق بن زياد ليتولى قيادة الجيش الإسلامي لفتح الأندلس، وأن يتكون جند موسى بن نصير من ١٧٠٠٠ من العرب و١٢٠٠٠ من البربر وبذلك نجح المسلمون في نقل مجال الصراع من داخل بلاد المغرب إلى الخارج وأصبح كل من العرب والبربر في خط واحد لمواجهة القوط الغربيين ولنشر الإسلام في الأندلس.

هذه المعالم أتت لتؤسس لحضارة جديدة لم يسبق لها مثيل لدى السكان الأصليين فأمر موسى بن

نصير بتعليم القرآن للبربر وأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز عشرة علماء إلى بلاد المغرب لترسيخ القرآن والسنة النبوية وتعاليم الإسلام في صفوف البربر.

كما ساهم استيطان العرب ببلاد المغرب واختلاطهم بالسكان الأصليين في بناء المجتمع الإسلامي الجديد، فمنذ الفتوحات الأولى وفد إلى بلاد المغرب أكثر من ١٨٠٠٠٠ رجل من المقاتلة العرب استقر أغلبهم فيما بعد بالقيروان وقد كتب اليعقوبي "في مدينة القيروان أخلاط من الناس من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان وبها أصناف من العجم من أهل خراسان ومن كان وردها مع عمال بني هاشم من الجند وبها عجم من عجم البلد البربر والروم وأشباه ذلك. ٣٤٨).

ولم تقف مظاهر الحضارة الإسلامية ببلاد المغرب عند هذا الحد بل شملت ميادين كانت مجهولة من قبل مثل العلوم والفنون والعمارة. **(٢٢٤)**

٢ – تطور العلوم ببلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي .

شهد المغرب الإسلامي نهضة علمية تبرز معالمها من خلال تعدد مراكز العلم كجامع عقبة بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس وجامع قرطبة بالأندلس... وقد اشتهر الولاة والأمراء بحذقهم للعلوم واللغات والفنون والآداب مثل ابراهيم بن الأغلب الذي أجاد الشعر والبلاغة والمعز لدين الله الفاطمي الذي تكلم عدة لغات كالبربرية والرومية والسودانية. وبرز في إفريقية العديد من العلماء المتخرجين من جامعة القيروان فاشتهر في اللغة والأدب ابن الطرماح وأحمد اللؤلؤي ومحمد بن جعفر القزاز، وفي الفلسفة أبو بكر القمودي وسعيد بن الحداد. كما تأسست بالقيروان مدرسة للطب واشتهر فيها عدد من الأطباء مثل اسحاق بن عمران ومحمد بن الجزار وخاصة أحمد بن الجزار صاحب كتاب "زاد المسافر"

كما تطور علم الجغرافيا واستغل في أغراض تطبيقية كالتجارة، وعلم التاريخ والأنساب وقد اشتهر فيه ابن حيان وابن حزم القرطبي والقاضي النعمان.

وقد ساهم الغرب الإسلامي مساهمة فعالة في إثراء الحضارة الإسلامية خاصة في المجال الفكري فبرز العديد من المفكرين ومن أبرزهم ابن رشد الفقيه والقاضي والفيلسوف والطبيب الذي ولد سنة ٥٣٠ هـ/ ١١٢٦ م بقرطبة وعاصر الفيلسوف ابن طفيل والطبيب ابن زهر، وعاش ابن رشد بين الأندلس والمغرب الأقصى وألف العديد من الكتب أهمها "تهافت التهافت" و"فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال" و"الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة" و"الكليات في الطب" وصنّف فيه ابن رشد الأدوية حسب فعالياتها وآثارها. كما شرح ابن رشد فلسفة أرسطو ونقلها إلى الغرب ولخص مؤلفات جالينوس في الطب وأقبل الغرب المسيحي على مؤلفاته باعتباره أبرز مفكري التيار العقلاني داخل الفكر العربي الإسلامي ومرجعا هاما في الفكر الأوروبي فشكل بذلك نقطة تواصل وتفاعل بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية.

كما أفرزت الحضارة الإسلامية ببلاد المغرب عالما اشتهر بمؤلفاته الجغرافية رغم انه كتب في علم النبات والأدوية وهو الإدريسي الذي ولد في مدينة سبتة بالمغرب الأقصى في أواخر القرن

٢٢٤ - الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وأبعاده الحضارية...د. نعيم الغالي–جامعة منوبة تونس .
roups.google.com/forum/#!msg/fayad61/CQ6Zm2v45r4/TKJKcmq7P9sJ

الخامس هجري وتنسب عائلته إلى الأشراف الأدارسة العلويين ودرس في قرطبة ثم تنقل في عدة بلدان وألّف عدة كتب من أهمها "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" و"الأدوية المفردة". وأسس الإدريسي جغرافيته على مفاهيم علمية صحيحة أهمها كروية الأرض ووجود خط الاستواء والأقاليم المناخية وتأثير الجبال في تكييف المناخ وتوجيه الرياح ونزول الأمطار، كما أنجز الإدريسي خريطة العالم المعروف في ذلك الوقت على شكل كروي وذلك قبل أن يثبت العلم الحديث صحة هذا الشكل.

وتجاوز الإشعاع العلمي لبلاد المغرب حدود المنطقة الإفريقية حيث انتقل الإدريسي إلى جزيرة صقلية وعاش في قصر ملكها روجار الثاني الذي كلفه بتأليف كتاب شامل في وصف مملكته والبلدان المعروفة في ذلك العهد. وقد أشار ابن خلدون إلى تلك العلاقة حينما كتب "ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب نزهة المشتاق الذي ألفه العلوي الإدريسي الحمودي لملك صقلية من الإفرنج وهو روجار بن روجار عندما كان نازلا عليه بصقلية... وكان تأليفه للكتاب في منتصف المائة السادسة وجمع له كتبا جمّة للمسعودي وابن خرداذبة والحوقلي وابن إسحاق المنجّم وبطليموس والعذري وغيرهم..." (٢٢٥)...**(٢٢٦)**

خريطة العالم للإدريسي (أعلى الخريطة يمثل الجنوب)

ولم يقتصر دور الحضارة العربية الإسلامية ببلاد المغرب على العلوم والثقافة بل تجاوز ذلك إلى الفنون والعمران بما جعله قادرا على الإسهام في تطوير التراث الإنساني وإثرائه بإضافات بناءة كانت منطلقا للنهضة الأوروبية الحديثة.

٣ – ازدهار فن العمارة الإسلامية ببلاد المغرب .

شهد الغرب الإسلامي نهضة عمرانية لم يسبق لها مثيل تميزت بتعدد المدن إلى حد بروز شبكة حضرية متكونة من مدن كبرى ووسطى وصغرى، واشتهرت المدن الهامة بتنوع خصوصياتها المعمارية كالجوامع والقصور المتميزة بأشكالها الفنية المزخرفة.

أ – تعدد المدن الكبرى بالغرب الإسلامي

تأسست بالغرب الإسلامي شبكة حضرية متمحورة حول المدن الكبرى التي أسسها الأمراء واتخذوها عواصم لدولهم وقواعد لجيوشهم مثل القيروان وفاس وسجلماسة وتيارت (تاهرت) وقرطبة بالأندلس. ونشأت المدن المتوسطة والصغرى على طول المسالك والطرقات التي اتجهت نحو المشرق وباتجاه بلاد السودان جنوبا.

مدينة القيروان: تم اختيار موضع القيروان على سهل فسيح حيث شيدت على أنقاض حصن بيزنطي من طرف عقبة بن نافع. وكانت القيروان في موقع حصين بعيدة عن البحر لتفادي غزوات البيزنطيين وهي في سهل خصب تتوفر به المراعي وعلى طريق المسالك التجارية الرابطة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب. وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك تم تجهيز المدينة بفسقيات وهي مواجل كبيرة الحجم تقع شمال المدينة وجنوبها تجمّع بها المياه لحاجة السكان كما توسعت أسواقها وأحيطت بسور يبلغ عرضه خمسة أمتار، وامتدت المدينة خاصة في العهد الأغلبي فشيدت القصور

٢٢٥ - المقدمة، لابن خلدون، ص ٦٨)

٢٢٦ - الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وأبعاده الحضارية...د. نعيم الغالي–جامعة منوبة تونس .

roups.google.com/forum/#!msg/fayad61/CQ6Zm2v45r4/TKJKcmq7P9sJ

خاصة في العباسية ورقّادة وصبرة المنصورية وازدهرت صناعاتها وقصدها الناس من كل مكان للتعلّم والتجارة والإقامة حتى أصبحت من أهم الحواضر الإسلامية.

مدينة المهدية: تقع المهدية على الساحل الشرقي لإفريقية، أسسها عبيد الله المهدي سنة ٣٠٢ هـ على موقع روماني قديم يسمى جُمّة واختارها عاصمة للدولة الفاطمية عوضا عن القيروان. وقسم المهدي عاصمته إلى قسمين أحدهما مقر الدولة والجامع والأسواق ودار الصناعة والميناء المنقور في الصخر ويدعى المهدية وأحاطها بسور، والثاني لعامة الناس ويدعى زويلة ويفصل بين المدينتين باب الفتوح، ولا تزال معالم المهدية الفاطمية قائمة إلى يومنا هذا شاهدة على شموخ الحضارة الإسلامية بالغرب الإسلامي رغم الحروب والحملات التدميرية التي تعرضت لها. ذكر البكري حول المهدية "ولمدينتها بابا حديد لا خشب فيهما زنة كل باب ألف قنطار وطوله ثلاثون شبرا في كل مسمار من مساميرها ستة أرطال... وفي المهدية من المواجل العظام ٣٦٠... ومرساها منقور من حجر صلد يسع ثلاثين مركبا وعلى طرف المرسى برجان بينهما سلسلة من حديد... وكان لها أرباض كثيرة آهلة عامرة أقربها إليها ربض زويلة فيه الأسواق والحمامات..."(٢٢٧) .... **(٢٢٨)**

مدينة سجلماسة: هي مدينة صحراوية تقع في تافيلالت تنطلق منها القوافل التجارية إلى بلاد السودان جنوبا وإلى فاس شمالا. تأسست سجلماسة سنة ١٤٠ هـ لتكون عاصمة لبني مدرار الصفريين ومركزا تجاريا صحراويا هاما. شيدت بها القصور والمصانع والمساجد ولها سور يفتح بواسطة ١٢ بابا ولها أرباض كثيرة. وكان ازدهار سجلماسة مرتبطا بنشاط التجارة الصحراوية حيث تراكمت إيرادات الذهب من بلاد السودان ومرت بها القوافل قادمة من فاس وأغمات والسوس والسودان وحققت تجارتها أرباحا طائلة.

مدينة فاس: أنشأها الأدارسة سنة ١٧٢ هـ وتقع أسفل جبال الأطلس الأوسط في سهل فسيح واشتهرت بجامع القرويين الذي يعتبر من أهم معالم المدينة إلى يومنا هذا.

تعتبر هذه المدن الكبرى أمثلة معبرة عن حركة التعمير والتمدين التي شهدها الغرب الإسلامي بعد الفتح ولا تزال هذه المدن قائمة إلى اليوم لتؤكد تواصل الحضارة الإسلامية ببلاد المغرب على عكس المدن التي شيدت زمن الفينيقيين والرومان والبيزنطيين والتي لم يبق منها سوى بعض الآثار.

ب – تطور فن العمارة بالغرب الإسلامي

يبرز ازدهار الفن المعماري ببلاد المغرب من خلال العمارة الدينية والمتمثلة في المساجد والجوامع والرباطات، والعمارة المدنية المتكونة من القصور والمنازل والمنشآت المائية الكبرى.

المساجد والجوامع: شيدت المساجد والجوامع في جميع مناطق المغرب الإسلامي بالأرياف والمدن وهي تدل على متانة العلاقة القائمة بين السكان والدين الجديد. وكانت خطة بناء الجوامع متشابهة حيث تكوّن أغلبها من الصحن وقاعة الصلاة والمحراب مع تواجد الأعمدة الرخامية والشمسيات البلورية والقباب.

ويعتبر جامع القيروان من أهم المنشآت الدينية ببلاد المغرب، شيّد على مراحل عديدة وتم

---

٢٢٧ - المسالك ، للبكري، ص ٢٩-٣١).

٢٢٨ - الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وأبعاده الحضارية...د. نعيم الغالي–جامعة منوبة تونس .

roups.google.com/forum/#!msg/fayad61/CQ6Zm2v45r4/TKJKcmq7P9sJ

توسيعه عدة مرات. تنقسم قاعة الصلاة إلى ١٧ بلاطة أعرضها البلاطة الوسطى التي تؤدي إلى المحراب، ويقوم الجامع على أعمدة تعلوها تيجان ومسندات خشبية وحوامل عقود وعقود تضمن الإضاءة والتهوئة، ويضم الجامع قبة المحراب وقبة البهو ومنارة قاعدتها ذات شكل مربع تعلوها قبة. أما المحراب فتغطيه لوحات رخامية تعلوها الزخارف الجصية والخشب المذهب.

جامع عقبة بن نافع بالقيروان

الرباطات: الرباط منشأة دينية وتعليمية وعسكرية تبنى على السواحل لمراقبتها من الغزوات البحرية وكانت الرباطات عبارة عن حصون دفاعية تتكون من عدة غرف ومسجد وتوجد أبراج دائرية في زواياه ويحتوي كل رباط على منارة مستديرة الشكل. ومن أهم الرباطات ما شيد على ساحل سوسة والمنستير وكذلك رباطات المدن المغربية.

القصور: يعتبر تشييد القصور دليلا على أوج الرخاء الاقتصادي والرفاه الاجتماعي الذي تحقق خاصة للفئات الثرية المقيمة بالمدن وخاصة بالقيروان مثل قصر الصحن برقادة وكان يتكون من ١٠٩ غرفة ويحيط به سور ضلعه ١٠٤ مترا. كما تعددت القصور بفاس وسجلماسة وكذلك بمدن الأندلس وخاصة الزهراء وقرطبة، ولا تزال آثار هذه القصور قائمة إلى اليوم.

وتميزت العمارة المغربية بالزخرفة كالنقوش والعقود والأعمدة والتيجان والحنيات وكانت هذه الأشكال الفنية تنحت وتنقش على الرخام والحجارة والجص والخشب إضافة إلى الرسوم والألوان التي زينت المواد الخزفية وتكونت من أشكال طبيعية مثل ورق العنب والبراعم وجريد النخل إضافة على الأشكال الهندسية كالظفائر المعقدة والحروف العربية المكتوبة بالقلم الكوفي.(٢٢٩)

فتح مصر وما بعدها من ممالك الدولة الرومية على الساحل الشرقي للبحر المتوسط .

افتتحها عمرو بن العاص عنوة سنة تسع عشرة في خلافة عمر رضي الله عنهما، وانتهى مفتتحا إلى برقة وزويلة فصالحها وبلغ أطرابلس.٠(٢٣٠).

سنة عشرين : تم فتح مصر وفيها أمر مصر حدثني الوليد بن هشام عن أبيه عن جده وعبد الله بن مغيرة عن أبيه وغيرهم أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص أن سر إلى مصر فسار وبعث عمر الزبير بن العوام مددا له ومعه عمير بن وهب الجمحي وبسر بن أرطاة العامري وخارجة بن حذافة حتى أتى باب أليون فامتنعوا فافتتحها عنوة وصالحه أهل الحصن وكان الزبير أول من ارتقى سور المدينة ثم اتبعه الناس بعد وكلم الزبير بن العوام عمرا أن يقسمها بين من افتتحها فكتب عمرو إلى عمر

---

٢٢٩ - الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وأبعاده الحضارية...د. نعيم الغالي–جامعة منوبة تونس .
roups.google.com/forum/#!msg/fayad61/CQ6Zm2v45r4/TKJKcmq7P9sJ وقد نقل الباحث عن المراجع الآتية :
- ابن خلدون، المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر- ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، دار المعرفة، مصر-ابن عذاري المراكشي (ألف سنة ٧١٢ هـ/١٣١٢ م) البيان المغرب في أخبار المغرب
- أحمد عبد الرزاق أحمد، ١٩٩٠، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة- البلاذري (٢٧٩ هـ/٨٩٢ م) فتوح البلدان- البكري، المسالك- الواقدي (٢٠٧ هـ/٨٢٢ م): كتاب فتوح افريقية - عبد الرحمن بن عبد الحكم (٢٥٧ هـ/ ٨٧١ م): فتوح مصر والمغرب والأندلس- سعد زغلول عبد الحميد، ١٩٦٥، تاريخ المغرب العربي- محمد الطالبي، ١٩٨٥، الدولة الأغلبية (١٨٤-٢٩٦ هـ) التاريخ السياسي- لبيب عبد الستار، ١٩٨٦، الحضارات، دار المشرق بيروت- موسوعة بهجة المعرفة، ١٩٨٢، طرابلس- المركز الوطني البيداغوجي، ٢٠٠٥، كتاب التاريخ للسنة الثانية آداب وعلوم.
٢٣٠ - جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ) ج٣٤٣/١ - المحقق: إحسان عباس-الناشر: دار المعارف – مصر- الطبعة: ١، ١٩٠٠ م.

فكتب عمر أكلة وأكلات خير من إفرازها (٢٣١).

حدثنا من سمع ابن لهيعة عن إبراهيم بن محمد الحضرمي عن ابن أبي العالية عن أبيه قال سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول لقد قعدت مقعدي هذا وما لأحد من قبط مصر علي عهد ولا عقد إن شئت قتلت وإن شئت بعت وإن شئت خمست إلا أهل أنطابلس فإن لهم عهدا يوفى به (٢٣٢)

وعن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سفيان بن وهب الخولاني قال افتتحنا مصر مع عمرو بن العاص عنوة (٢٣٣)

قال ابن لهيعة وأخبرني الصلت بن أبي عاصم كاتب حيان بن شريح أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن مصر افتتحت عنوة بغير عقد ولا عهد قال ابن لهيعة أخبرني أبو سرجون عن عبد الملك بن جنادة عن أبيه وكان ممن فتح مصر أنهم دخلوا مصر بلا عهد ولا عقد من سمع عبد الله بن صالح عن ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح أن أبا بكر الصديق بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس بمصر بناحية قرى الشرقية فأعطوه فلم يزالوا على ذلك حتى دخلها عمرو بن العاص فقاتلهم فانتقض ذلك الصلح(٢٣٤)

من سمع عبد الله بن صالح عن الليث عن يزيد بن أبي حبيب أن المقوقس صالح عمرو بن العاص على أن يفرض على القبط دينارين دينارين فبلغ ذلك هرقل فبعث الجيوش فأغلقوا الاسكندرية وأن يؤذوا عمرا بالحرب فقاتلهم وكتب إلى عمر أما بعد فإن الله فتح علينا الإسكندرية عنوة قسرا بلا عهد ولا عقد قال فمصر كلها صلح في قول يزيد بن أبي حبيب غير الإسكندرية وبهذا القول كان يقول الليث (٢٣٥) .

وقال ابن عبد الحكم: حدثنا عثمان بن صالح، أنبأنا ابن لهيعة، عن عبيد الله بن أبي جعفر وعياش بن عباس القتباني وغيرهما، يزيد بعضهم على بعض، قالوا: لما كانت سنة ثماني عشرة، وقدم عمر بن الخطاب الجابية، قام إليه عمرو بن العاص، فخلا به، وقال: يا أمير المؤمنين، ائذن لي أن أسير إلى مصر، وحرضه عليها، وقال: إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم؛ وهي أكثر الأرض أموالًا، وأعجزهم عن القتال والحرب. فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين، وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر، ويخبره بحالها، ويهون عليه فتحها، حتى ركن لذلك عمر، فعقد له على أربعة آلاف رجل، كلهم من عك، ويقال: على ثلاثة آلاف وخمسمائة. فقال عمر: سر وأنا مستخير الله في مسيرك، وسيأتي إليك سريعًا إن شاء الله تعالى، فإن أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها، أو شيئًا من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي، فامض لوجهك، واستعن بالله واستنصره. فسار عمرو بن العاص من جوف الليل، ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر الله؛ فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين: فأدرك الكتاب عمرًا وهو برفح، فتخوف عمرو بن العاص؛ إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه،

---

٢٣١ - تاريخ خليفة بن خياط- أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (المتوفى: ٢٤٠هـ) ج١٤٢/١ - المحقق: د. أكرم ضياء العمري- الناشر: دار القلم ، مؤسسة الرسالة - دمشق ، بيروت - الطبعة: الثانية، ١٣٩٧

٢٣٢ - المصدر السابق ، ج١٤٣/١ .

٢٣٣ - المصدر السابق ، ج١٤٣/١ .

٢٣٤ - المصدر السابق ، ج١٤٣/١ .

٢٣٥ - المصدر السابق ، ج١٤٤/١ .

وسار كما هو، حتى نزل قريةٍ فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل: إنها من مصر؛ فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين، فقال عمرو: ألستم تعلمون أن هذه من مصر؟ قالوا: بلى، فقال: فإن أمير المؤمنين عهد إليّ، وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع، وإن لم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر؛ فسيروا وامضوا على بركة الله. (٢٣٦).

قال فلمّا بلغ المقوقس قدوم عمرو بن العاص إلى مصر، توجّه إلى الفسطاط فكان يجهّز على عمرو الجيوش، وكان على القصر رجل من الروم يقال له الأعيرج «٣» واليا عليه، وكان «٤» تحت يدى المقوقس، وأقبل عمرو حتى إذا كان بجبل الحلال نفرت معه راشدة وقبائل من لخم، فتوجّه عمرو حتى إذا كان بالعريش أدركه النحر.

فحدثنا عبد الملك بن مسلمة، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، قال: فضحّى عمرو عن أصحابه يومئذ بكبش.(٢٣٧) ، فتقدم عمرو بن العاص. ، فكان يجهز على عمرو الجيوش، فكان أول موضع قوتل فيه الفرما، قاتله الروم قتالًا شديدًا نحوًا من شهر، ثم فتح الله على يديه. وكان بالإسكندرية

أسقف للقبط، يقال له أبو بنيامين ، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص، كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمرو، فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانًا. ثم توجه عمرو؛ لا يُدافع إلّا بالأمر الخفيف، حتى نزل القواصر. فنزل ومن معه، فقال بعض القبط لبعض: ألا تعجبون من هؤلاء القوم، يقدمون على جموع الروم، وهم في قلة من الناس! فأجابه رجل آخر منهم إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه، حتى يقتلوا أخيرهم ، فتقدم عمرو لا يُدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى أتى بلبيس، فقاتلوه بها نحوًا من شهر، حتى فتح الله عليه، ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف، حتى أتى أم دنين، فقاتلوه بها قتالًا شديدًا.(٢٣٨)

وأبطأ عليه الفتح، فكتب إلى عمر يستمده، فأمده بأربعة آلاف، تمام ثمانية آلاف، فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن، فحاصرهم بالقصر الذي يقال له بابليون حينًا، وقاتلهم قتالًا شديدًا؛ يصبحهم ويمسيهم. فلما أبطأ عليه الفتح، كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده، فأمده عمر بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل، وكتب إليه: إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد. واعلم أن معك اثني عشر ألفًا، ولا يغلب اثنا عشر ألفًا من قلة.(٢٣٩)

وكانوا قد خندقوا حول حصنهم، وجعلوا للخندق أبوابًا، وجعلوا سكك الحديد موتدة بأفنية الأبواب. فلما قدم المدد على عمرو بن العاص أتى إلى القصر، ووضع عليه المنجنيق -وكان على القصر رجل من الروم يقال له الأعيرج واليًا عليه، وكان تحت يدي المقوقس- ودخل عمرو إلى صاحب الحصن، فتناظرا في شيء مما هم فيه، فقال: أخرج وأستشير أصحابي، وقد كان صاحب الحصن أوصى

---

٢٣٦ - فتوح مصر والمغرب- عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، أبو القاسم المصري (المتوفى: ٢٥٧هـ)ج١/٧٧ - الناشر: مكتبة الثقافة الدينية- عام النشر: ١٤١٥ هـ

٢٣٧ - فتوح مصر والمغرب ، ج١/٧٩ .

٢٣٨ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة- عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى : ٩١١هـ)ج١/١٠٧ - المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم - الناشر : دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر- الطبعة : الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

٢٣٩ - المصدر السابق ،ج١/١٠٧- ١٠٨

الذي كان على الباب: إذا مر به عمرو أن يلقي عليه صخرة فيقتله، فمر ، عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب، فقال: قد دخلت فانظر كيف تخرج، فرجع عمرو إلى صاحب الحصن، فقال: إني أريد أن آتيك بنفر من أصحابي، حتى يسمعوا منك مثل الذي سمعت، فقال العلج في نفسه: قتل جماعة أحب إلي من قتل واحد، فأرسل إلى الذي كان أمره بقتل عمرو، ألا يتعرض له، رجاء أن يأتي بأصحابه فيقتلهم. وخرج عمرو، فلما أبطأ عليه الفتح، قال الزبير: إني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلمًا إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام، ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعًا، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر معه السيف، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفًا من أن ينكسر. فلما اقتحم الزبير، وتبعه من تبعه، وكبر وكبر من معه، وأجابهم المسلمون من خارج، لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعًا، فهربوا، فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن؛ فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه؛ حينئذ سأل عمرو بن العاص الصلح، ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين دينارين على كل رجل منهم، فأجابه عمرو إلى ذلك (٢٤٠) .

قال الليث بن سعد رضى الله عنه: وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر.

قال ابن الحكم: وحدثنا عثمان بن صالح، أخبرنا خالد بن نجيح، عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد، قالا: حدثنا خالد بن يزيد، عن جماعة من التابعين، بعضهم يزيد على بعض، أن المسلمين لما حاصروا بابليون، وكان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤساؤهم، وعليهم المقوقس، فقاتلوهم بها شهرًا، فلما رأى القوم الجد منهم على فتحه والحرص، ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه، خافوا أن يظهروا، فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلي، ودونهم جماعة يقاتلون العرب، فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر؛ وذلك في جري النيل وتخلف الأعيرج في الحصن بعد المقوقس، فلما خاف فتح الحصن، ركب هو وأهل القوة والشرف، وكانت سفنهم ملصقة بالحصن، ثم لحقوا بالمقوقس في الجزيرة.

فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص: إنكم قوم قد ولجتم في بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا؛ وإنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلتكم الروم، وجهزوا إليكم، ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى قد أيدينا، فأرسلوا إلينا رجالًا منكم نسمع من كلامهم؛ فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام، ولا نقدر عليه؛ ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفًا لطلبتكم ورجائكم، فابعث إلينا رجالًا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم، وما يهم من شيء.

فلما أتت عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين، حتى خاف عليهم المقوقس، فقال لأصحابه: أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم، يستحلون ذلك في دينهم! وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين.

فرد عليهم عمرو مع رسله: أن ليس بيني وبينك إلا إحدى ثلاث خصال: إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما أن

---

٢٤٠ - فتوح مصر ، ج١/١٨٤-١٨٥.و النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ٨٧٤هـ) ج١/٩-١٠ - الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.(٢٤١)

فلما جاءت رسل المقوقس إليه، قال: كيف رأيتموهم؟ قالوا: رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم.

فقال عند ذلك المقوقس: والذي يُحْلَف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبوا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض، وقووا على الخروج من موضعهم.

فرد إليهم المقوقس رسله، وقال: ابعثوا إلينا رسلًا منكم نعاملهم، ونتداعى نحن وهم إلى ما عسى أن يكون فيه صلاح لنا ولكم.

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر، وأحدهم عبادة بن الصامت، وهو أحد من أدرك الإسلام من العرب، طوله عشرة أشبار، وأمره أن يكون متكلم القوم، وألا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الثلاث الخصال؛ فإن أمير المؤمنين قد تقدم في ذلك إليّ، وأمرني ألا أقبل شيئًا سوى خصلة من هذه الثلاث الخصال.

وكان عبادة بن الصامت أسود، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس، ودخلوا عليه، تقدم عبادة، فهابه المقوقس لسواده فقال: نحُّوا عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني، فقالوا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيًا وعلمًا، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنا نرجع جميعًا إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به.

فقال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود، وكلمني برفق؛ فإني أهاب سوادك، وإن اشتد علي كلامك ازددت لك هيبة، فتقدم إليه عبادة، فقال: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سوادًا مني وأفظع منظرًا ولو رأيتهم لكنت أهيب "منك" لي (٢٤٢).

وأنا قد وليت، وأدبر شبابي، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي؛ وذلك إنما رغبتنا وبغيبتا الجهاد في الله تعالى، واتباع رضوان الله؛ وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا، ولا طلبًا للاستكثار منها؛ إلا أن الله قد أحل ذلك لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالًا، وما يبالي أحدنا: أكان له قنطار من ذهب، أم كان لا يملك إلا درهمًا! لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها، يسد بها جوعته، وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإنا كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله، واقتصر على هذا الذي بيده ؛ لأن نعيم الدنيا ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، وبذلك أمرنا ربنا، وأمر به نبينا، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا فيما يمسك جوعته، ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضا ربه، وجهاد عدوه.(٢٤٣)

---

٢٤١ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، ج١/١٠٩-١١٠.
٢٤٢ - فتوح مصر والمغرب ، وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ،ج١/١١٠-١١١.
٢٤٣ - فتوح مصر والمغرب ، ج١/٨٨-٨٩ .

فلما سمع المقوقس ذلك منه، قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط! لقد هبت منظره؛ وإن قوله لأهيب عندي من منظره؛ إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض ؛ وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها.

ثم أقبل المقوقس على عبادة، فقال: أيها الرجل، قد سمعت مقالتك، وما ذكرت عنك وعن أصحابك؛ ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، ولا ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جميع الروم مما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة، ممن لا يبالي أحدهم من لقي، ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلّتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرًا، وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم؛ ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين؛ ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به. (٢٤٤)

أقر لأعيننا، ولا أحب إلينا من ذلك؛ وأنَّا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين؛ إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا؛ وإن الله تعالى قال لنا في كتابه:

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ البقرة: ٢٤٩ .

وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الشهادة،وألا يرده إلى بلده ولا إلى أهله وولده؛ وليس لأحد منا هم فيما خلّفه، وقد استودع كل واحد منا ربّه أهله وولده؛ وإنما همنا ما أمامنا. وأما "قولك": إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا؛ فنحن في أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا، ما أردنا لأنفسنا منها أكثر مما نحن فيه، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينكم خصلة نقلبها منكم، ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت، ولا تُطمع نفسك في الباطل؛ بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين؛ وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا. أما إن أجبتم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا، وكان أخانا في دين الله؛ فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك، فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولا نستحل أذاكم، ولا التعرض لكم، وإن أبيتم إلا الجزية، فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبدًا ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم؛ إذ كنتم في ذمتنا، وكان لكم به عهد الله علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت من آخرنا، أو نصيب ما نريد منكم؛ هذا ديننا الذي ندين الله به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم. فقال له المقوقس: هذا مما لا يكون أبدًا، ما تريدون إلا أن تأخذوا لكم عبيدًا ما كانت الدنيا. فقال له عبادة: هو ذاك، فاختر ما شئت. فقال له المقوقس: أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث؟ فرفع عبادة يديه، وقال: لا ورب السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء، ما لكم عندنا خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم.

٢٤٤ - فتوح مصر والمغرب ، ج٨٩/١ .

فالتفت المقوقس عند ذلك إلى أصحابه، فقال: قد فرغ القول فما ترون؟ فقالوا: أويرضى أحد بهذا الذل! أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم؛ فهذا لا يكون أبدًا، ولا نترك دين المسيح ابن مريم وندخل في دين لا نعرفه، وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيدًا أبدًا، فالموت أيسر من ذلك؛ لو رضوا منا أن نُضعف لهم ما أعطيناهم مرارًا، كان أهون علينا.(٢٤٥)

فقال المقوقس لعبادة: قد أبى القوم، فما ترى؟ فراجع صاحبك، على أن نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون.فقام عبادة وأصحابه، فقال المقوقس لمن حوله عند ذلك: أطيعوني، وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فوالله ما لكم بهم طاقة، وإن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين.

فقالوا: أي خصلة نجيبهم إليها؟ قال: إذًا أُخبركم ... أما دخولكم في غير دينكم، فلا آمركم به؛ وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقدروا عليهم، ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة ؛ قالوا: فنكون لهم عبيدًا أبدًا؟ قال: نعم تكونون عبيدًا مسلطين في بلادكم، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم، وتكونوا عبيدًا وتباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبدًا، أنتم وأهلوكم وذراريكم. قالوا: فالموت أهون علينا.

وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة، وبالقصر من جمع الروم والقبط جمع كثير فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من في القصر حتى ظفروا بهم، وأمكن الله منهم، فقتل منهم خلق كثير، وأسر من أسر، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة، وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه، لا يقدرون على أن ينفذوا ويتقدموا نحو الصعيد، ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى، والمقوقس يقول لأصحابه: ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم؟ ما تنتظرون! فوالله لتجيبهم إلى ما أرادوا طوعًا أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منه كرهًا، فأطيعوني من قبل أن تندموا.

فلما رأوا منهم ما رأوا، وقال لهم المقوقس ما قال: أذعنوا بالجزيرة، ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه. وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص: إني لم أزل حريصًا على أجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت إلي بها، فأبى ذلك عليَّ مَن حضرني من الروم والقبط، فلم يكن لي أن أفتات عليهم، وقد عرفوا نصحي لهم، وحبي صلاحهم، ورجعوا إلى قولي، فأعطني أمانًا أجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابي ونفر من أصحابك، فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعًا؛ وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه.(٢٤٦)

فاستشار عمرو أصحابه في ذلك فقالوا: لا نجيبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية، حتى يفتح الله علينا، وتصير كلها لنا فيئًا وغنيمة، كما صار لنا القصر وما فيه، فقال عمرو: قد علمتم ما عهد إليَّ أمير المؤمنين في عهده، فإن إجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إلي فيها أجبتهم إليها، وقبلت منهم، مع ما قد حال الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم. فاجتمعوا على عهد بينهم، واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم، ومن بلغ الحلم منهم؛ ليس على الشيخ الفاني، ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم، ولا على النساء شيء، وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام، وأن لهم أرضهم وأموالهم، لا يعرض لهم

---

٢٤٥ - فتوح مصر والمغرب ، ج١/١٩٠-١٩١ .
٢٤٦ - المصدر السابق ، ج١/٩١-٩٢.

في شيء منها.

فشرط هذا كله على القبط خاصة، وأحصوا عدد القبط يؤمئذ خاصة من بلغ منهم الجزية، وفرض عليهم الديناران، ورفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة، فكان جميع من أحصي يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس؛ فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر ألف ألف دينار في كل سنة. وقيل: بلغت غلتهم ثمانية آلاف ألف.

وشرط المقوقس للروم أن يتخيروا، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على هذا لازمًا له، مفترضًا عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج، وعلى أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة؛ حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل، فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم؛ وإلا كانوا جميعًا على ما كانوا عليه.

وكتبوا به كتابًا، وكتب المقوقس إلى ملك الروم يعلمه على وجه الأمر كله. فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه، ويرد عليه ما فعل، يقول في كتابه: إنما

أتاك من العرب اثنا عشر ألفًا، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى؛ فإن كان القبط كرهوا القتال، وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم علينا، فإن عندك بمصر من الروم وبالإسكندرية، ومن معك أكثر من مائة ألف، معهم العدة والقوة. والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت، فعجزت عن قتالهم، ورضيت أن تكون أنت ومن معك في حال القبط أذلاء، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت، أو تظهر عليهم؛ فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم، وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة، فناهضهم القتال، ولا يكون لك رأي غير ذلك. وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابًا إلى جماعة الروم.(٢٤٧)

فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم: والله إنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا، إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة منا؛ وذلك أنهم قوم الموت أحب إليهم من الحياة، يقاتل الرجل منهم وهو مستقل، ويتمنى ألا يرجع إلى أهله وبلده ولا ولده، ويرون أن لهم أجرًا عظيمًا فيمن قتلوا منا، ويقولون: إنهم إن قتلوا دخلوا الجنة، وليس لهم رغبة في الدنيا، ولا لذة إلا على قدر بلغة العيش من الطعام واللباس، ونحن قوم نكره الموت، ونحب الحياة ولذتها، فكيف نستقيم نحن وهؤلاء، وكيف صبرنا معهم! واعلموا معشر الروم؛ إني والله لا أخرج مما دخلت فيه، وصالحت العرب فيه؛ وإني لأعلم أنكم سترجعون غدًا إلى قولي ورأيي، وتتمنون أن لو كنتم أطعتموني؛ وذلك أني قد عاينت ورأيت، وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره، ولم يعرفه، ويحكم! أما يرضى أحدكم أن يكون آمنًا في دهره على نفسه وماله وولده، بدينارين في السنة! ثم أقبل المقوقس إلى عمرو بن العاص، فقال له: إن الملك قد كره ما فعلت وعجزني، وكتب إلي وإلى جماعة الروم ألا نرضى بمصالحتك، وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم؛ ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه؛ وإنما سلطاني على نفسي ومن أطاعني، وقد تم الصلح فيما بينك وبينهم؛ ولم يأت من قبلهم نقض، وأنا متم لك على نفسي، والقبط متمون لك على الصلح الذي صالحتهم عليه وعاهدتهم؛ وأما الروم فأنا منهم بريء، وأنا أطلب منك أن تعطيني ثلاث خصال.

قال له عمرو: ما هن؟ قال: لا تنقضن بالقبط، وأدخلني معهم وألزمني ما لزمهم، وقد

---

٢٤٧ - فتوح مصر والمغرب ، ج١/١٩٢-١٩٤ .

اجتمعت كلمتي وكلمتهم على ما عاهدتك، فهم متمون لك على ما تحب. وأما الثانية فإن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئًا وعبيدًا، فإنهم أهل لذلك؛ فإني نصحتهم فاستغشوني، ونظرت لهم فاتهموني. وأما الثالثة، أطلب إليك إن أنا مت، أن تأمرهم أن يدفنوني في أبي يحنس بالإسكندرية.

فأنعم له عمرو بن العاص، وأجابه إلى ما طلب، على أن يضمنوا له الجسرين جميعًا، ويقيموا له الإنزال والضيافة والأسواق والجسور؛ ما بين الفسطاط إلى الإسكندرية. ففعلوا وصارت لهم القبط أعوانًا، كما جاء في الحديث، واستعدت الروم وجاشت، وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم.(٢٤٨)

ثم التقوا بسلطيس، فاقتتلوا بها قتالًا شديدًا، ثم هزمهم الله، ثم التقوا بالكريون، فاقتتلوا بها بضعة عشر يومًا.

وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة، وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو. وصلى عمرو يومئذ صلاة الخوف، ثم فتح الله يومئذ على المسلمين، وقتل منهم المسلمون مقتلة عظيمة، واتبعوهم حتى بلغوا الإسكندرية، فتحصن بها الروم، وكانت عليهم حصون مبنية لا ترام، حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس، إلى ما وراء ذلك؛ ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة، ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم، وكان ملك الروم يقول: لئن ظفرت العرب على الإسكندرية، إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم؛ لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية؛ وإنما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالإسكندرية، فقال الملك: لئن غلبوا على الإسكندرية لقد هلكت الروم، وانقطع ملكها. فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الإسكندرية، حتى يباشر قتالها بنفسه إعظامًا لها، وأمر ألا يتخلف عنه أحد من الروم، وقال: ما بقي للروم بعد الإسكندرية حرمة،فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته، وكفى الله المسلمين مؤنته وكان موته في سنة تسع عشرة .وقال الليث بن سعد: مات هرقل في سنة عشرين، فكسر الله بموته شوكة الروم، فرجع كثير ممن قد توجه إلى الإسكندرية، وانتشرت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الإسكندرية، فقاتلوهم قتالًا شديدًا، وحاصروا الإسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل، وخمسة قبل ذلك، وفتحت يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين .وقال ابن عبد الحكم: أنبأنا عثمان بن صالح، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، قال: أقام عمرو بن العاص محاصرًا الإسكندرية أشهرًا؛ فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: ما أبطأ بفتحها إلا لما أحدثوا.

وأخرج ابن عبد الحكم، عن زيد بن أسلم، قال: لما أبطأ على عمر الخطاب فتح مصر، كتب إلى عمرو بن العاص: أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر؛ إنكم تقاتلونهم منذ سنتين؛ وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكون غيرهم ما غيرهم؛ فإذا أتاك كتابي، فاخطب الناس، وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة

---

٢٤٨ - الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله - ﷺ- والثلاثة الخلفاء - سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري، أبو الربيع (المتوفى: ٦٣٤هـ)ج٣٣٦/٢- الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.وانظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى : ٩١١هـ)ج١١٨/١ ،المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم- = الناشر : دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر- الطبعة : الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها، ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى الله، ويسألوه النصر على عدوهم. فلما أتى عمرًا الكتاب، جمع الناس، وقرأ عليهم كتاب عمر، ثم دعا أولئك النفر، فقدمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهروا، ويصلوا ركعتين، ثم رغبوا إلى الله تعالى، ويسألوه النصر على عدوهم، ففعلوا ففتح الله عليهم . قال ابن عبد الحكم: حدثنا أبي، قال: لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الإسكندرية، استلقى على ظهره، ثم جلس فقال: إني فكرت في هذا الأمر؛ فإنه لا يصلح آخره إلا من أصلح أوله -يريد الأنصار- فدعا عبادة بن الصامت، فعقد له، ففتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك .قال ابن عبد الحكم: وحدثنا عبد الملك بن مسلمة، عن مالك بن أنس، أن صر فتحت سنة عشرين.(٢٤٩).

المبحث السادس

عبور المسلمين إلى الأندلس واستقرارهم بها .

فتح الأندلس: وقع فتحها في سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، دخلها طارق بن زياد، قيل إنه من الصدف، وقيل هو مولى موسى بن نصير، ثم اتبعه موسى بن نصير، ويذكر ولده أنهم من بكر بن وائل، وغيرهم يقول إنه مولى. (٢٥٠).

واستوعب فتح جميع الجزيرة من البحر الشامي إلى ما يقابله من البحر المحيط عند المضيق؛ ثم غلب النصارى بعد ذلك على نحو نصف الجزيرة.

فتح صقلية: افتتحها أسد بن الفرات القاضي الحنفي أيام ابن الأغلب، سنة اثنتي عشرة ومائتين.

فتح أقريطش: فتحها أبو حفص عمر بن عيسى بن نصير من بربر فحص البلوط من قرية ناطرة لونجه منها ، تولد بها بنوه والمسلمون إلى أن غلب عليها الروم سنة خمسين وثلاثمائة؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.(٢٥١)

وعن فتح الأندلس ، قال الواقدي: غزا طارق بن زياد عامل موسى بن نصير الأندلس وهو أول من غزاها وذلك في سنة اثنتين وتسعين فلقيه أليان وهو وال على مجاز الأندلس فآمنه طارق على أن حمله وأصحابه إلى الأندلس في السفن، فلما صار إليها حاربه أهلها ففتحها وذلك في سنة اثنتين وتسعين، وكان ملكها فيما يزعمون من الأشبان وأصلهم من أصبهان، ثم أن موسى بن نصير كتب إلى طارق كتابا غليظا لتغريره بالمسلمين وافتتانه عليه بالرأي في غزوه وأمر أن لا يجاوز قرطبة وسار موسى إلى قرطبة من الأندلس فترضاه طارق فرضي عنه فافتتح طارق مدينة طليطلة وهي مدينة مملكة الأندلس وهي مما يلي فرنجة وأصاب بها مائدة عظيمة أهداها موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك بدمشق حين قفل سنة ست وتسعين والوليد مريض، فلما ولي سليمان بن عبد الملك أخذ موسى بن نصير بمائة ألف دينار فكلمه فيه يزيد بن المهلب فأمسك عنه، ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ولى المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم، فسار أحسن سيره

---

٢٤٩ - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - المؤلف : عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى : ٩١١هـ) ج١/١٠٦-١٢٠ - المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم - الناشر : دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه – مصر- الطبعة : الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

٢٥٠ - جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ) ج١/٣٤٣ - المحقق: إحسان عباس-الناشر: دار المعارف – مصر- الطبعة: ١، ١٩٠٠ م.

٢٥١ - جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ) ج١/٣٤٤ - المحقق: إحسان عباس-الناشر: دار المعارف – مصر- الطبعة: ١، ١٩٠٠ م.

ودعى البربر إلى الإسلام وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتبا يدعوهم بعد إلى ذلك فقرأها إسماعيل عليهم في النواحي فغلب الإسلام على المغرب.(٢٥٢)

قالوا: ولما ولي يزيد بن عبد الملك ولي يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج ابن يوسف أفريقية والمغرب، فقدم أفريقية في سنة اثنتين ومائة وكان حرسه البربر فوسم كل امرئ منهم على يده حرسي، فأنكروا ذلك وملوا سيرته فدب بعضهم إلى بعض وتضافروا على قتله فخرج ذات عشية لصلاة المعرب فقتلوه في مصلاه فولى يزيد بشر بن صفوان الكلبي فضرب عنق عبد الله بن موسى بن نصير بيزيد، وذلك أنه اتهم بقتله وتأليب الناس عليه، ثم ولى هشام بن عبد الملك بشر بن صفوان أيضا فتوفي بالقيروان سنة تسع ومائة فولى مكانه عبيدة بن عبد الرحمن القيسي، ثم استعمل بعده عبد الله بن الحبحاب مولى بني سلول فأغزى عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري السوس وأرض السودان فظفر ظفرا لم ير أحد مثله قط، وأصاب جاريتين من نساء ما هناك ليس للمرأة منهن إلا ثدي واحد وهم يسمون تراجان ثم ولى بعد ابن الحبحاب كلثوم بن عياض القشيري فقدم أفريقية في سنة ثلاث وعشرين فقتل، ثم ولى بعده حنظلة بن صفوان الكلبي أخا بشر بن صفوان فقاتل الخوارج وتوفي هناك وهو وال، وقام الوليد بن يزيد بن عبد الملك فخالف عليه عبد الرحمن بن حبيب الفهري وكان محببا في ذلك الثغر لما كان من آثار جده عقبة بن نافع فيه فغلب عليه وانصرف عنه حنظلة فبقي عبد الرحمن عليه، وولى يزيد بن الوليد الخلافة فلم يبعث إلى المغرب عاملا وقام مروان بن محمد فكاتبه عبد الرحمن بن حبيب وأظهر له الطاعة وبعث إليه بالهدايا، وكان كاتبه خالد بن ربيعة الأفريقي. وكان بينه وبين عبد الحميد بن يحيى مودة ومكاتبة فأقر مروان عبد الرحمن على الثغر ثم ولى بعده الياس بن حبيب ثم حبيب بن عبد الرحمن ثم غلب البربر والأباضية من الخوارج، ثم دخل محمد بن الأشعث الخزاعي أفريقية واليا عليها في آخر خلافة أبي العباس في سبعين ألفا ويقال في أربعين ألفا فوليها أربع سنين فرم مدينة القيروان، ثم وثب عليه جند البلد وغيرهم، وسمعت من تحدث أن أهل البلد والجند المقيمين فيه وثبوا به فمكث يقاتلهم أربعين يوما وهو في قصره حتى اجتمع إليه أهل الطاعة ممن كان شخص معه من أهل خراسان وغيرهم وظفر بمن حاربه وعرضهم على الأسماء، فمن كان اسمه معاوية أو سفيان أو مروان أو اسما موافقا لأسماء بني أمية قتله، ومن كان اسمه خلاف ذلك استبقاه فعزله المنصور. وولى عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبي صفرة العتكي، وهو الذي سمى هزار مرد، وكان المنصور به معجبا فدخل أفريقية وغزا منها حتى بلغ أقصى بلاد البربر وابتنى هناك مدينة سماها العباسية، ثم أن أبا حاتم السدراتي الأباضي من أهل سدراتة وهو مولى لكندة قاتله فاستشهد وجماعة من أهل بيته وانتقض الثغر وهدمت تلك المدينة التي ابتناها، وولى بعد هزار مرد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، فخرج في خمسين ألفا، وشيعه أبو جعفر المنصور إلى بيت المقدس وأنفق عليه مالا عظيما فسار يزيد حتى لقي أبا حاتم بأطرابلس فقتله ودخل أفريقية فاستقامت له، ثم ولى بعد يزيد بن حاتم روح بن حاتم ثم الفضل بن روح فوثب الجند عليه فذبحوه.(٢٥٣). وحدثني أحمد بن ناقد مولى بني الأغلب، قال: كان الأغلب بن سالم التميمي من أهل مرو الروز فيمن قدم مع المسودة من خراسان فولاه موسى الهادي المغرب فجمع له حريش، وهو رجل كان من جند الثغر من تونس جمعا، وسار إليه وهو بقيروان أفريقية فحصره، ثم أن الأغلب خرج إليه فقاتله فأصابه في المعركة سهم فسقط ميتا وأصحابه لا يعلمون بمصابه ولم يعلم به أصحاب حريش، ثم أن حريشا انهزم وجيشه فاتبعهم أصحاب الأغلب ثلاثة أيام فقتلوهم وقتلوا حريشا

---

٢٥٢ - فتوح البلدان - أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (المتوفى: ٢٧٩هـ) ج١/٢٢٨-٢٢٩ ، الناشر: دار ومكتبة الهلال- بيروت - عام النشر: ١٩٨٨ م.

٢٥٣ - فتوح البلدان ، ج١/٢٢٩-٢٣٠.

بموضع يعرف بسوق الأجد فسمي الأغلب الشهيد، قال: وكان إبراهيم بن الأغلب من وجوه جند مصر فوثب واثنا عشر رجلا معه فأخذوا من بيت المال مقدار أرزاقهم لم يزدادوا على ذلك شيا وهربوا فلحقوا بموضع يقال له الزاب، وهو من القيروان على مسيرة أكثر من عشرة أيام، وعامل الثغر يومئذ من قبل الرشيد هارون هرثمة ابن أعين واعتقد إبراهيم بن الأغلب على من كان من تلك الناحية من الجند وغيرهم الرياسة واقبل يهدي إلى هرثمة ويلاطفه ويكتب إليه يعلمه أنه لم يخرج يدا من طاعة ولا اشتمل على معصية وأنه إنما دعاه إلى ما كان منه الأحواج والضرورة فولاه هرثمة ناحيته واستكفاه أمرها، فلما صرف هرثمة من الثغر وليه بعده ابن العكي فساء أثره فيه حتى انتقض عليه فاستشار الرشيد هرثمة في رجل يوليه إياه ويقلده أمره فأشار عليه باستصلاح إبراهيم واصطناعه وتوليته الثغر فكتب إليه الرشيد يعلمه أنه قد صفح له عن جرمه وإقالة هفوته ورأى توليته بلاد المغرب اصطناعا له ليستقبل به الإحسان ويستقبل به النصيحة، فولى إبراهيم ذلك الثغر وقام به وضبطه، ثم أن رجلا من جند البلد يقال له عمران بن مجالد خالف ونقض فانضم إليه جند الثغر وطلبوا أرزاقهم وحاصروا إبراهيم بالقيروان فلم يلبثوا إن أتاهم العراض والمعطون ومعهم مال من خراج مصر فلما أعطوا تفرقوا فابتنى إبراهيم القصر الأبيض الذي في قبلة القيروان على ميلين منها وخط للناس حوله فابتنوا ومصر ما هناك وبنى مسجدا جامعا بالجص والآجر وعمد الرخام وسقفه بالأردن وجعله مائتي ذراع في نحو مائتي ذراع وابتاع عبيدا اعتقهم فبلغوا خمسة آلاف وأسكنهم حوله وسمى تلك المدينة العباسية وهي اليوم آهلة عامرة.

وكان محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أحدث في سنة تسع وثلاثين ومائتان مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية أيضا فأخربها أفلح بن عبد الوهاب الأباضي، وكتب إلى الأموي صاحب الأندلس يعلمه ذلك تقربا إليه به فبعث إليه الأموي مائة ألف درهم. وبالمغرب أرض تعرف بالأرض الكبيرة وبينها وبين برقة مسيرة خمسة عشر يوما أو أقل من ذلك قليلا أو أكثر قليلا وبها مدينة على شاطئ البحر تدعى بارة، وكان أهلها نصارى وليسوا بروم غزاها حبلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها، ثم غزاها خلفون البربري، ويقال: أنه مولى لربيعة ففتحها في أول خلافة المتوكل على الله، وقام بعده رجل يقال له المرج بن سلام ففتح أربعة وعشرين حصنا واستولى عليها وكتب إلى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره وأنه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة إلا بأن يعقد له الإمام على ناحيته ويوليه إياها ليخرج من حد المتغلبين، وبنى مسجدا جامعا، ثم أن أصحابه شغبوا عليه فقتلوه، وقام بعده سوران فوجه رسوله إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله يسأله عقدا وكتاب ولاية، فتوفي قبل أن ينصرف رسوله إليه وتوفي المنتصر بالله. وكانت خلافته ستة أشهر، وقام المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم بالله فأمر عامله على المغرب وهو أو تامش مولى أمير المؤمنين بأن يعقد له على ناحيته فلم يشخص رسوله من سر من رأى حتى قتل أو تامش وولى الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين فعقد له وأنفذه٠(٢٥٤).

حركة الفتوح الإسلامية لأوربا من جهة الشرق وأثر ذلك في عبور الثقافة الإسلامية إلى الغرب .

فتح الأندلس: قرر القائد موسى بن نصير أن يعبر المضيق وينشر الإسلام في بلاد أوروبا ويدخلها في نطاق الدولة الإسلامية، فسير القائد البربري طارق بن زياد إلى الأندلس بحرًا، ويروى

٢٥٤ - فتوح البلدان - أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلاذُري (المتوفى: ٢٧٩هـ) ٢٣٠/١-٢٣٢ ، الناشر: دار ومكتبة الهلال- بيروت ، عام النشر: ١٩٨٨ م.

أنه أحرق سفنه ليقطع على جنوده أمل العودة أو الهروب، وألقى خطابه الشهير: أيها الناس أين المفر .. البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم إلا الصدق والصبر. فخاض معارك عظيمة وقتل حاكمها لذريق وفتحها سنة ٩٢ هـ/ ٧١٠ م، وصل طارق وموسى إلى جبال البرانس، وأخضعا كل تلك المناطق ما عدا جليقية. (٢٥٥).

الجبهة الشرقية (بلاد الترك).

في بلاد ما وراء النهر: اشتهر هناك القائد قتيبة بن مسلم الباهلي، فتح مدينة بيكند سنة ٨٧ هـ/ ٧٠٥ م – وغزا بلاد الصغد ونسف وكش عام ٨٩ هـ/ ٧٠٧ م – فتح بخارى في ٩١ هـ/ ٧٠٩ م ثم فتح الطالقان والفارياب وبلخ. ثم سمرقند عام ٩٣ هـ/ ٧١١ م – غزا بلاد الشاش وفرغانه حتى بلغ خوقند عام ٩٤ هـ/ ٧١٢ م – وفتح كابل في ٩٤ هـ/ ٧١٢ م أيضًا – فتح مدينة كاشغر (في تركستان الشرقية) عام ٩٦ هـ/ ٧١٤ م، استطاع هذا القائد العظيم أن يمد فتوحاته إلى كل البلاد الواقعة بين النهرين (وهذا يشمل معظم مساحة الاتحاد السوفيتي السابق وبلاد أفغانستان) ثم واصل حتى دخل الصين. وفرض الجزية على ملكها. إلى هنا توقف قتيبة شرقًا.

أخضع قتيبة مناطق شاسعة جدًا، تجاوزت مساحتها ٤ ملايين كيلو متر مربع تمتد من أواسط بلاد القفقاس إلى جنوب بحر الخزر، ثم تمتد شمالا لتتعمق في آسيا الوسطى، وتصل شرقًا إلى أواسط تركستان الشرقية، ثم تتجه غربًا نحو كابل (أفغانستان، سجستان) .

في بلاد السند (بلاد السند تكون معظم دولة باكستان حاليًا) أرسل الحجاج جيشًا ضخمًا إلى هذه البلاد بقيادة القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفي (ابن أخيه)، تمكن القائد محمد بن القاسم الثقفي من تحقيق انتصارات ضخمة هناك وقتل داهر ملك السند، واحتل بلاد السند في الفترة ٩٠ – ٩٤ هـ/ ٧٠٨ – ٧١٢ م، فكانت تلك من أعظم الفتوحات.(٢٥٦)

فتح الأندلس وجهود طارق بن زياد:

كان الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الايبيرية (أسبانيا والبرتغال) أمرا طبيعيا حسب الخطة التي اتبعها المسلمون أثناء فتوحاتهم، وهي تأمين حدودهم ونشر دعوتهم وذلك بالمضي في جهادهم إلى ما وراء تلك الحدود، لنشر العقيدة الإسلامية التي تقتضي أن يستمر المد الإسلامي ما دامت فيه القوة على الاستمرار، وبعد أن أرسى موسى بن نصير، ومن معه، كلمة الإسلام بجهودهم في المغرب الكبير، كانت الخطوة التالية الطبيعية هي فتح الأندلس وقد عمل موسى على إكمال جهود من سبقه من الجند الدعاة ـ قادة وجيشا ـ في ترسيخ قدم الإسلام في الشمال الإفريقي، فقد عمل على تثبيت الإسلام في قلوب الناس ونشط في تعليمهم وتربيتهم على مبادئ الدين الحنيف، وآتت جهوده الدعوية ثمارها الزكية فقد أصبح البربر في تلك الديار من أخلص الناس للإسلام والدعوة إليه والجهاد في سبيل نشر تعاليمه، ولقد كانت أكثرية جيش طارق إلى الجزيرة الايبيرية من المسلمين البربر، الذين تحمسوا لدعوة الإسلام، حبا لها وتضحية من أجلها، لا طمعا في مغنم أو حرصا على

---

٢٥٥ - موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧ هـ/٩٦ - ٩٧ م - أحمد معمور العسيري ، ج١/١٥٩ – ١٦٠ ، الناشر: غير معروف (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض) الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٢٥٦ - موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧ هـ/٩٦ - ٩٧ م - أحمد معمور العسيري ، ج١/١٥٩ – ١٦٠ .

جاه، فهذا هو هدف جميع الفتوحات الإسلامية التي يكفي الاطلاع عليها ومعرفة طبيعتها لرفض الإدعاءات وإسقاط المفتريات المزورة، التي تشير ـ تلميحا أو تصريحا ـ إلى إعتبار الغنائم سبب هذا الفتح، وهو أمر عاري من الحجج والبراهين والأدلة، وإنما هي أوهام لا تحمل أي رائحة من الطابع العلمي أو السند التاريخي (٢٥٧).

١ ـ فكرة الفتح:

يمكن القول بأن فكرة فتح الجزيرة الايبيرية هي فكرة إسلامية تماما. بل يروى بأنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فقد كان عقبة بن نافع الفهري يفكر في إجتياز المضيق إلى أسبانيا لو استطاع وسبق للمسلمين نشاط على شواطئ أسبانيا الشرقية وبعض الجزر القريبة منها، وهي ميورقة ومنورقة، واليابسة، يذكر الذهبي أنه في سنة ٨٩هـ: جهز موسى بن نصير ولده عبد الله، فافتتح جزيرتي ميورقة ومنورقة (٢٥٨)، أما الإتصال بيليان حاكم مدينة سبتة أو بغيره من الأسبان فإنها جاءت مواتية على ما يبدو وفي الوقت الذي كان موسى بن نصير يفكر في تنفيذ فكرة الفتح ولكن كيف تم الاتصال بالجانب الأسباني ((يليان وأنصار الملك المخلوع وغيرهم،؟ اختلفت الأقوال فيما إذا تم الأمر بالمراسلة أو باللقاء الشخصي وأين؟ إذا كان هذا الاتصال أصلا قد تم وبهذا المستوى على كل حال فإن اتصالات الجانب الأسباني بموسى ومساعداتهم ـ أثناء عمليات الفتح ـ ربما كانت عاملا مساعدا سهل سير الفتح أو عجل به. لكن المبادأة ومرد العمليات وإنجازها كانت من الجانب الإسلامي الذي اندفع مع الفتح بقوة فائقة معتمدا على الله في تحقيق ما يصبوا إليه من هداية الناس وقد استشار موسى الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) قبل اتصالاته بليليان، أو اتصال هذا الأخير بموسى. وقد ترددت الخلافة ـ بادي الأمر ـ بالقيام بمثل هذا العمل الكبير، خوفا على المسلمين من المخاطرة في مفاوز أو إيقاعهم في مهالك، ولكن موسى أقنع الخليفة بالأمر، ثم تم الاتفاق على أن يسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية (٢٥٩).

٢ ـ الحملة الاستطلاعية، أو حملة طريف:

نفذ موسى أوامر الوليد بأن جهز حملة استطلاعية مؤلفة من خمسمائة جندي منهم مائة فارس بقيادة طريف بن مالك الملقب بأبي زرعة وهو مسلم من البربر وجاز هذا الجيش الزقاق ـ اسم يطلق أحيانا على المضيق ـ من سبتة بسفن يليان أو غيره، ونزل قرب أو في جزيرة بالوما في الجانب الأسباني وعرفت هذه الجزيرة فيما بعد باسم هذا القائد: جزيرة طريف ، وكان إبحار هذه الحملة من سبتة في رمضان عام ٩١هـ) تموز ٧١٠م) وقد جال طريف في المدينة والنواحي المحيطة بها واستطلع أخبار العدو في تلك الجهات ، وعادت حملة طريف بالأخبار المطمئنة والمشجعة على الاستمرار في عملية الفتح ، فقد درس أحوال المنطقة وتعرف على مواقعها وأرسل جماعات إلى عدة أماكن ـ منها جبل طارق ـ لهذا الغرض فكانت هذه المعلومات عونا في وضع خطة الفتح ونزول طارق بجيشه على الجبل (٢٦٠) .

---

٢٥٧ ـ الدولة الأمويَّة عَواملُ الازدهار وتَداعيات الانهيار ـ عَلي محمد محمد الصَّلَّابي،ج٢/٢١ ـ٢٢.الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ـ الطبعة: الثانية، ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م.

٢٥٨ ـ الدولة الأمويَّة عَواملُ الازدهار وتَداعيات الانهيار، ج٢٢/١ .

٢٥٩ ـ المصدر السابق ، ج٢٢/١ـ٢٣ .

٢٦٠ ـ المصدر السابق ، ج٢٣/٢.

٣ . العبور:

لما رأى موسى بن نصير ما حققته حملة طريف، وصح عنده ما نقل إليه من أحوال الأندلس، بعث طارق بن زياد في سبعة آلاف من المسلمين أكثرهم من البربر والموالي وأقلهم من العرب ولما احتاج طارق إلى أعداد في فترة تالية أمده موسى بخمسة آلاف فتم جيش طارق من السفن لنقل الجنود إلى بر الأندلس وقد حرص القائمون على الحملة لاستكمال عملية نزول الجند أن يعموا أخبار الحملة على الناس، لذلك أحضر يوليان السفن إلى سبتة ليلا وأخذت تنقل الجنود تباعا، ويبدو أن عملية إبحار الجند اقتضت أكثر من ليلة، فقيل أن الجند الذين نزلوا بر الأندلس كانوا يكمنون في النهار حتى لا يشعر بهم أحد، وكانت السفن تختلف بين سبتة والأندلس وأهل الأندلس لا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت السفن تختلف به من المنافع والمتاجر، ولما علم أهل الأندلس بالحملة كانت عملية الإبحار قد تمت بسلام في رجب من عام اثنين وتسعين للهجرة، ونزل طارق، بالجند عند جبل كالبي، وهو الجبل الذي أخذ اسم طارق وصار يعرف بجبل طارق، وقيل لما ملك رئيس الموحدين عبد المؤمن الأندلس وعبر جبل طارق أمر ببناء مدينة على الجبل وسماه جبل الفتح ولكن الاسم لم يثبت له وظل اسم جبل طارق جاريا على الألسنة ، وسار طارق بالجيش نحو الجزيرة الخضراء ففتحها، وكان لذريق في شمال الأندلس مشغولا في محاربة البشكنس، وقيل في محاربة الفرنسيين، فأرسل خليفته تدمير يعلمه بالهجوم الإسلامي، فعاد لذريق مسرعا لصده، وفي طريقه لقتال المسلمين عرج على العاصمة طليطلة دون أن يدخلها وصالح أسرة غيطشة ودعاهم والقوط المخالفين له إلى الانضمام إليه في حرب العدو المشترك فساروا معه، وقيل أن لذريق عهد بقيادة ميمنة جيشه وميسرته إلى ابني غيطشة ، وعلم طارق بالحشود التي حشدها لذريق لمجابهته فكتب إلى موسى ينبئه بضخامتها ويطلب منه مددا، فأمده موسى بخمسة آلاف مقاتل ، ويصف المقري، نقلا عن بعض المؤرخين جند طارق لقد أقبلوا وعليهم ((الزرد)) وفوق رؤوسهم ((العمائم البيض)) وبأيديهم ((القسي العربية)) وقد تقلدوا السيوف وحملوا الرماح فلما رآهم لذريق دخله منهم الرعب ، وذكر ابن الأثير: أن طارقا لما ركب البحر غلبته عينه فرأى النبي ﷺ في نومه ـ ومعه المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي، فقال له النبي ﷺ: يا طارق تقدم لشأنك، وأمره بالرفق بالمسلمين، والوفاء بالعهد، فنظر طارق فرأى النبي ﷺ ، وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه، فاستيقظ من نومه مستبشرا وبشر أصحابه وقويت نفسه ولم يشك في الظفر (٢٦١) .

٤ . معركة وادي لكة أو العبور إلى الأندلس:

لم يعد بين طارق وخصمه لذريق سوى عاملي الزمن، والأرض وأصبح من الواضح أن طارقا أكثر حرية من خصمة بعد سقوط ولاية ((الجزيرة الخضراء)) بيده وهزيمة قائد القوط ((بنج)) وهلاك فرقته بكاملها على يدي جيش طارق، وأصبح قادرا على اختيار المكان المناسب للقتال، فقد كان اختيار ميدان القتال من قبله من أهم عناصر نجاحه في هذه المعركة ، إذ كان قد أسند ميمنة جيشه إلى بحيرة خاندا شرقا، الممتدة عدة كيلومترات والتي يصب فيها نهر البرباط الذي بمر بوادي البرباط وأسند ميسرته إلى الوادي المذكور غربا، كما اسند مؤخرة هذا الجيش إلى جبال ((رتينا)) العالية جنوبا، منتظرا أن يأتيه العدو من الشمال بعد أن وضعه في موضع الاضطرار لا الاختيار ، وما أن استكمل لذريق عدة الجيش وعديدة حتى تحرك جنوبا لمواجهة طارق وجيشه في المكان الذي اختاره هذا الأخير، فوصله في الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام ٩٢هـ وعسكر بجيشه على الجهة الشمالية

---

٢٦١ - الدولة الأمويَّة عَواملُ الازدهار وتَداعيات الانهيار، ج٢/٢٣-٢٤.

للوادي ، والتقى الجيشان على نهر لكة من أعمال شذونة لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢هـ واتصلت الحرب بين الجانبين ثمانية أيام استشهد فيها ثلاثة آلاف من المسلمين ولكن الهزيمة دارت على لذريق وجيشه، وقيل أن لذريق غرق وقتل كثير من جيشه، ومما يروي عن ابناء غيطشة أنهم خذلوا لذريق وتركوهم وأنصارهم مواقفهم أمام المسلمين ظنا منهم أن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنائم عادوا إلى بلادهم فبقي الملك لهم ، ولعل خذلان آل غيطشة وأنصارهم لذريق كان بدافع الانتقام منه ، ولا شك أن هذا الفتح مثل غيره يعود إلى قوة المسلمين بتمكن العقيدة وتغلغل معانيها في نفوسهم وحرصهم على الشهادة في سبيلها.

وبعد هذا النصر العظيم تعقب طارق فلول الجيش القوطي التي لاذت بالفرار. وسار الجيش الإسلامي فاتحا لبقية مناطق الجزيرة الإيبيرية (٢٦٢).

٥ ـ الدروس المستخلصة من معركة وادي لكة:

أ ـ أسلوب ((الحذر واليقظة)) تجاه الحلفاء: لم يكتف موسى بن نصير بقول يليان ووعده بالعون والمساعدة في فتح الأندلس بل كلفه مهمة استطلاعية في تلك البلاد ليختبر صدقه ووفاءه بعهده، وقد كان يليان صادقا بما قال ووفيا لما تعهد به، كما كان موسى حذرا ويقظا ونبها.

ب ـ أسلوب الاستطلاع قبل الانزال: أراد موسى أن يستطلع البيئة التي سوف يقتحمها والعدو الذي سوف يقاتله والبقعة التي سوف يتم النزول فيها، وذلك قبل أن يدفع بجيشه في مغامرة مجهولة النتائج، فأرسل حملة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك وما أن عادت تلك الحملة بالمعلومات الوافية عن البيئة والعدو وبقعة النزول حتى اطمأن إلى سلامة قراره فكتب إلى الخليفة يستأذنه بالفتح .

ج ـ الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة: رغم ما سبق من اختبار سواء بواسطة الحملة التي قام بها يليان أو حملة طريف، فقد أبى الخليفة إلا أن يكرر الاختبار فقال لموسى: خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال. ولما لفت موسى نظر الخليفة إلى سهولة عملية الإبحار والإنزال أصر الخليفة قائلا: وإن كان، فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه. وذلك يدل على مدى حرص الخليفة على التأكد من نجاح العملية وسلامتها وتأمين الفوز للمسلمين بدل أن يغرر بهم في بحر شديد الأهوال. وهذا الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة قبل الإنزال والاقتحام سهل عملية الفتح إلى حد كبير وأعان المسلمين في مواجهتهم الحاسمة للعدو، إذ أمن لهم عملية ((المباغتة)) لعدو لم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة أبدا خ ـ أسلوب المباغتة: إن الأسلوب الذي اتبعه طارق في إيصال المسلمين إلى ساحل الأندلسي منفذا تعليمات الخليفة، كان أسلوبا بارعا إلى حد كبير، فهو لم يبحر بالمسلمين دفعة واحدة بل أبحر بهم على دفعات متتالية وفي مراكب تجارية، وما أن التأم شمل المسلمين في تلك البلاد، حتى فوجئوا بالهزيمة الساحقة التي لحقت بهم على يد هؤلاء المسلمين ومقتل أحد أهم قادتهم ((بنج)) ابن أخت مليكهم لذريق، فانتزع المسلمون، بهذه المباغتة وهذا الانتصار، المبادرة من يد أعدائهم وأسقط في يد القوط، وأصبحت هزيمتهم على يد المسلمين قدرا محتوما.

س ـ تنفيذ أسلوب ((رأس الجسر)): نفذ طارق، فور وصول جيشه إلى الساحل الأندلسي، أسلوب ((رأس الجسر)) وهو أسلوب يعمل به في الحروب الحديثة، فأقام على الساحل قاعدة حصينة

٢٦٢ ـ الدولة الأمويَّة عَواملُ الازدهار وتَداعيات الانهيار، ج٢/٢٤-٢٥ .

سورها وحماها وانطلق منها في فتوحاته، تماما كما يفعل أي جيش في أيامنا هذه.

ش ـ اختيار ميدان القتال: لقد أحسن طارق اختيار ميدان القتال وفرض على العدو أن يجابهه من جهة واحدة هي جبهة الشمال، ووضعه في موضع الاضطرار الاختيار.

ص ـ المبادرة بالقتال: كان طارق في هذه المعركة هو البادئ بالقتال بل بادر إلى اجتياز النهر لملاقاة عدوه، فناوشه ثلاثة أيام ثم شن عليه بعد ذلك هجوما عاما انتهى بهزيمته.

ر ـ صدق المسلمين ووفاؤهم بالعهود: كان المسلمون صادقين ووفوا بعهودهم تجاه يليان وأبناء غيطشة فأعادوا لهؤلاء ضياع أبيهم واحترموا تعهداتهم ليليان وأنصاره، وكانت نتيجة ذلك أن أعتقت سلالة كل من يليان وأبناء غيطشة الإسلام، فكان فيها من حسن إسلامه مثل أيوب (توفي سنة٢٢٦ هـ) وسليمان (توفي سنة ٣٧٩ هـ) وأحمد ((توفي سنة ٣٨٨ هـ)) من سلالة يليان، ومثل أبي بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس وهو من سلالة سارة بنت المنذر بن غيطشة آخر ملوك القوط

ك ـ استثمار النصر: طبق طارق بالبداهة، مبدأ من أهم المبادئ العسكرية الحديثة وهو استثمار النصر، إذ أنه ما أن هزم لذريق في وادي لكة حتى لاحق فلول جيشه دون أن يترك لهذا الجيش مجالا للتجمع وإعادة التنظيم من جديد، وكان طارق قد وضع لنفسه هدفا أساسيا هو احتلال طليطلة عاصمة العدو، إذ أنه يعرف ولا شك، أنه باحتلاله لعاصمة المملكة، تفقد هذه المملكة مركزيتها، ويفقد الملك قاعدة ملكه وحكمه، ولكن طارقا مع ذلك، لم ينس أن يرسل جيشه في حملات إلى مختلف أنحاء البلاد لكي يحتل المواقع الاستراتيجية فيها فيفقد القوط كل أمل بمتابعة القتال والنصر، فأرسل إحداها إلى داخل البلاد شمالا نحو قرطبة، وكانت قصبة هامة في الأندلس، وأرسل أخرى شرقا، على الساحل الجنوبي للبلاد، نحو ملقة، وأرسل ثالثة إلى داخل البلاد شمالا بشرق، نحو غرناطة وكانت تشكل موقعا استراتيجيا هاما في البلاد، ثم توجه بنفسه شمالا إلى العاصمة طليطلة واستولى عليها، فظل الحكم القوطي، من جراء ذلك، شديدا طريدا في أنحاء الأندلس إلى أن سقط (٢٦٣).

٦ ـ الخطبة المنسوبة إلى طارق وحرق السفن:

يعتقد كثير من المؤرخين أن طارقا أحرق سفنه، بعد أن أنزل جيشه على الساحل الأندلسي، ثم خطب بجنده الخطبة الشهيرة، أيها الناس، أين المفر البحر وراءكم، والعدو أمامك وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها ... وجاء في الخطبة:،، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات بالدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقبان، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله إلى إعلاء كلمته، .. الخ الخطبة (٢٦٤).

---

٢٦٣ ـ الدولة الأموية ،ج٢/٢٥-٢٧.

٢٦٤ ـ المصدر السابق، ج٢/٢٧ ، وفيات الأعيان ج٥/ ٣٢١، ٣٢٢).

وأما موضوع حرق طارق للسفن التي عبر بها المضيق، كي يقطع على الجيش الإسلامي كل أمل في العودة، فيستميت في الدفاع؟ ذكر بعض المؤرخين ذلك؟ لكن لماذا يحرق طارق السفن، سواء امتلكها المسلمون أم يليان؟ وكان طارق وجيشه يقاتلون من أجل عقيدة وإنهم في ساعة عبورهم جاؤوا مجاهدين مستعدين للشهادة، وطارق متأكد من هذه المعاني، فإذا كانت السفن ليليان فليس من حق طارق التصرف بها، وإن كانت للمسلمين فليس حرقها عملا عسكريا سليما أو مناسبا، ما دام يحتاج إليها وإلى النجدة والاتصال الدائم بالمغرب لأي غرض، وقد رأينا كيف احتاج إلى النجدة قبل خوض هذه المعركة واحتاجها فيما بعد ، كما أن طارقا كان قادرا على إعادتها إلى الساحل الأفريقي إن الدوافع الإسلامية والهدف الذي جاء الجيش من أجله أقوى في الاندفاع من أي سبب آخر، وما كان المسلمون يتخلفون عن خوض معركة أو تقديم أنفسهم لإعلاء كلمة الله، بل لذلك أتوا، والمصادر الأندلسية ـ لاسيما الأولى ـ لا تشير إلى قصة حرق السفن التي لا تخلو من علاقة وارتباط بقصة الخطبة (٢٦٥).

٧ ـ عبور موسى بن نصير إلى الأندلس:

كان موسى بن نصير من التابعين ـ رحمهم الله تعالى ـ وقد روى تميم الداري رضي الله عنه، وكان عالما كريما شجاعا ورعا تقيا لله تعالى (٢٦٦)، وكان من رجال العلم حزما ورأيا وهمة ونبلا وشجاعة وإقداما (٢٦٧)، وكان حين وجه طارقا لفتح الأندلس كان يتلقى الأخبار ويراقب الأحداث، منذ بدايتها، ويهيء المتطلبات لإنجاز هذا الفتح الكبير، بهمة المؤمن وإخلاص التقي، ويدعو الله أن ينزل نصره على المسلمين (٢٦٨). وكان موسى بن نصير يعتقد اعتقادا كبيرا في أهمية الدعاء والتضرع لتحقيق النصر على الأعداء ويعتبر الدعاء من أسباب النصر التي أرشد إليها القرآن الكريم ومارسها رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقول ابن الكردبوس: وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقا مكبا على الدعاء والبكاء والتضرع لله تعالى، والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين، وما علم أنه هزم له جيش قط (٢٦٩)، وكان طارق بن زياد على صلة بقائده موسى بن نصير، يفتح الفتوحات باسمه وبتعليماته، ويخبره عن كل شيء أولا بأول منذ بداية الفتح، ويستشيره فيما يحتاج إليه وقد رأينا كيف طلب المدد قبل معركة وادي لكة وكان موسى على علم تام بأحوال الفتوح وبعد سنة تقريبا من عبور طارق، وتفرق جيشه وتوزيعه على المناطق والمدن التي فتحت ـ خاف طارق أن يغلب وأن يستغل القوط قلة جيشه، فأرسل إلى موسى يستنجده واستخلف موسى على القيروان ولده عبد الله .. ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين من الهجرة في عسكر ضخم (٢٧٠)، وتحرك موسى بجيشه نحو شذونة فكانت أول فتوحاته ثم توجه إلى مدينة قرمونة وليس بالأندلس أحصن منها، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يليان، دخلوا إليهم كأنهم فلال وطرقهم موسى بخيله ليلا ففتحوا لهم الباب، وأوقعوا بالأحراس، فملكت المدينة فافتتحها. وتوجه بعد ذلك: إلى أشبيلية جارتها فحاصرها وهي أعظم مدائن الأندلس ... فامتنعت شهرا على موسى ثم فتحها الله عليه، .. ثم سار إلى مدينة ماردة وفتح في طريقه إليها لبلة وباجة ثم فتح ماردة صلحا بعد

---

٢٦٥ - الدولة الأموية ، ج٢/٢٩ .

٢٦٦ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ ابن خلكان؛ المحقق: إحسان عباس؛ حالة الفهرسة: غير مفهرس؛ الناشر: دار صادر - بيروت؛ سنة النشر... : ، ج٥/ ٣١٨ ـ ٣١٩.

٢٦٧ - العبر في خبر من غبر للذهبي ، ج١/ ١١٦.

٢٦٨ - التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة؛ عبد الرحمن علي الحجي؛ ص ٦٧ -الناشر: دار القلم .

٢٦٩ - التاريخ الأندلسي ص٦٨.

٢٧٠ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة - عبد العزيز سالم. ص ٦٨ - دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.

قتال وجهاد عظيم ، وأقام موسى في ماردة زيادة على شهر يرتب أحوالها وينظم أمورها ويريح الجند من العناء ويستعد لاستئناف السير ، ووجه موسى ابنه عبد العزيز من ماردة إلى أشبيلية، وكانت فلول القوط من لبلة وباجة قد اجتمعت فيها وقتلوا العديد من المسلمين، منتهزين فرصة انشغال موسى بحصار ماردة وبلغه الخبر خلال الحصار، فأعاد عبد العزيز فتح أشبيلية ثم فتح لبلة وباجة ، وأصبحت المدن والقرى تتساقط أمام جيوش الفاتحين كتساقط الأوراق من على الأشجار في فصل الخريف.(٢٧١)

٨ ـ لقاء موسى وطارق:

في بداية ذي القعدة سنة ٩٤هـ ابتدأ موسى بالسير صوب طليطلة ـ وكتب إلى طارق بالتوجه إليه في مجموعة من جيشه ثم جاءه طارق. ذكر البعض أن لقاءهما كان عند طليطلة أو قرطبة، ورجح الدكتور الحجي العالم البارز في تاريخ الأندلس: بأن اللقاء كان خارج مدينة طلبيرة التي تبعد ١٥٠كم غرب طليطلة (٢٧٢)، ووصل موسى وطارق إلى طليطلة ذو القعدة ـ ذي الحجة أو آخر سنة ٩٤هـ وأقاما بالجيش الإسلامي فصل الشتاء أو جله في طليطلة يرتبون أحولها وينظمون شئونها، ويستريحون ويتهيأون ويخططون لفتح شمال شبه الجزيرة الأيبيرية، وكتب موسى والقادة الآخرون إلى الخليفة الوليد ـ وربما ليس لأول مرة ـ أخبار الفتح، وضربت العملة الإسلامية لأول مرة في الأندلس وقام بالدعوة إلى الله وتعليم الناس حقائق الإسلام وشرحه لهم ودعوتهم إليه بعد أن رآه أهل البلاد عمليا في خلق الفاتحين. ولعلهم أرسلوا فرقا إلى بعض المناطق، فقد كان طارق خبر أحوال طليطلة لاسيما شمالها، إذ كان قد وصل إلى المدينة المائدة (في منطقة وادي الحجارة) (٢٧٣). وأما ما تحدثت عنه المصادر عن قصة الخلاف الذي قيل إنه حدث بين القائدين الكبيرين موسى وطارق، وتبالغ هذه المصادر فترجع أمر هذا الخلاف إلى حسد دب في نفس موسى على مولاه طارق وعلى ما حققه من نجاح، وتنسب إلى موسى أنه أهان طارقا بأن وضع السوط على رأسه (٢٧٤)، فهذه روايات ناقشها عدد من الباحثين وأبانوا ضعفها وسقوطها وتفاهتها، كمحمود شيت خطاب (٢٧٥)، وعبد الله عنان (٢٧٦)، ود. عبد الرحمن الحجي (٢٧٧)، ود. محمد بطاينة ، ود. عبد الشافي محمد عبد اللطيف ، وغيرهم وإن كان حدث شيء فلا يعدو أن يكون مناقشة القضايا أو استفهامه من طارق خطته وإبداء الملاحظات عنها، تخوفا من الأذى، وعندما استفسر موسى من طارق عن سبب الايغال والتقحم في بلاد العدو، اعتذر إليه طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه، وقبل موسى عذره. وسارا بعده ـ سوية إخوة مجاهدين، ينشرون دين الله ويعلون كلمته ويبلغون للناس شريعته (٢٧٨)، كما لا ننسى أن طارق جندي من جنود موسى والانتصارات التي حققها طارق إنجازات تكتب في صفحة موسى القيادية .وعند انتهاء الشتاء وحلول الربيع سنة ٩٥هـ ، تهيأ الجيش الإسلامي لترك طليطلة ثم أوغل شمالا ففتح مدن لاردة ووشقة وطركونة وبرشلونة، كما فتح

---

٢٧١ - الدولة الأموية ، ج٢/٢٩-٣٠ .
٢٧٢ - التاريخ الأندلسي ، ص٨٣.
٢٧٣ - المصدر نفسه ، ص٨٥.
٢٧٤ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد (المتوفى: نحو ٦٩٥هـ) ج٢/ ١٦ ، تحقيق ومراجعة: ج. س. والدولة الأموية ، ج٢/٣١ .
٢٧٥ - الدولة الأمويَّة عَواملُ الازدهار وَتَداعيات الانهيار- عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي ،ج٢/٣١ - الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان - الطبعة: الثانية، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
٢٧٦ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص٩١ ـ ٩٢.
٢٧٧ - التاريخ الأندلسي :ص٩٠.
٢٧٨ - التاريخ الأندلسي : ص٩٠..

بلنسية وطرطوشة على الساحل الشرقي للأندلس وفي هذا الوقت وصل مغيث الرومي مبعوثا من جانب الخليفة الوليد عبد الملك يحمل إلى موسى بن نصير أمر الخليفة بالقدوم إلى دمشق، ولكن فتح الأندلس لم يكن قد اكتمل بعد، لذلك لاطف موسى مغيثا وسأله إنظاره إلى أن ينفذ عزمه في دخول بلاد جليقية واشتوريس ويكمل فتح الأندلس ويكون مغيث شريكه في الأجر والغنيمة ـ أي يصبح له سهما في القيمة ـ ففعل مغيث ومشى في ركاب موسى إلى جليقية والأشتوريس ففتحها وتعقب موسى وطارق فلولا القوط حتى اضطر هؤلاء إلى الفرار إلى جبال كنتبرية في أقصى الشمال الغربي من الأندلس ، ولما تأخرت أخبار موسى قلق الخليفة الوليد على مصير الجيش الذي مضى على وجوده في البعوث ما يقارب أربع سنين، لذلك أرسل الوليد رسولا ثانيا، فوصل الرسول الأندلس وموسى في مدينة لك بحليقية يوجه السرايا والبعوث التي بلغت صخرة بلاك التي تقع في الشمال الغربي على البحر الأخضر ـ خليج بسكاي ـ من المحيط الأطلسي، فاستجاب موسى إلى الرسول وعاد إلى طليطلة ثم غادرها إلى قرطبة ومنها إلى أشبيلية حيث استخلف فيها ولده عبد العزيز واليا واتخذ منها عاصمة للبلاد، ولكن أشبيلية لم تمكث طويلا عاصمة للبلاد وإنما استعيض عنها بقرطبة منذ عام ٩٧هـ وظلت قرطبة مركز الديار الأندلسية حتى نهاية عهد الخلافة في الأندلس ، ويبدو أن موسى اختار اشبيلية عاصمة في هذه المرحلة من تاريخ الأندلس لوقوع اشبيلية في منطقة تتساوى عندها احتمالات الخطر والسلامة، وواجبات الحفاظ على البلاد وحمايتها، فهي لم تخرج إلى الأطراف بعيدا عن الوسط، ولم تقترب من خطوط المواجهة مع الأعداء بعيدا عن بلاد المغرب وإمداداتها (٢٧٩).

المبحث السابع
عبور الحضارة الإسلامية إلى أسبانيا

عن معابر الحضارة : يعرض المؤلف : د. عبد المنعم الجميعي في الفصل الاول لمعابر الحضارة العربية الاسلامية إلى اوربا، وهي : الاندلس، صقلية، وجنوب إيطاليا، بلاد الشام والحروب الصليبية ، وحركة الترجمة ويشير المؤلف إلى أنه في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كانت قرطبة أعظم المدن الثقافية في أوربا، فقد حوت خزانة الخليفة ما يزيد على الأربعمائة ألف. وأقبل الأسبان على اللغة العربية والترجمة منها إلى اللاتينية، وكانت الاندلس المركز الرئيسي لحركة الترجمة. أما صقلية فقد حكمها المسلمون من القرن الثالث إلى القرن الخامس الهجري، فانتشرت فيها مظاهر الحضارة الإسلامية من مساجد وقصور وحمامات ومستشفيات وأسواق وقلاع، ودخلت فيها صناعات منها صناعة الورق والحرير والسفن والفسيفساء ذات الرخام الملون، إضافة إلى استخراج المعادن. واستمرت العلاقات الثقافية بين المسلمين واهل صقلية بعد ذلك، فنجد – مثلا – الملك روجر الاول احتضن الثقافة العربية وكتبت مراسيمه بالعربية إلى جانب اللاتينية، وصك على أحد وجهي النقود كتابات بالعربية، وعلى الوجه الآخر كتابات لاتينية ويونانية. وهكذا سارت صقلية في أيامه مملكة نصف إسلامية في دينها ونظامها الإداري والعسكري، وقد سار خلفاء روجر على طريقته. فقد استعان روجر الثاني بالعلماء المسلمين، ومنهم العالم الجغرافي محمد الإدريسي الذي رسم له خريطة للعالم المعروف في عصره على دائرة فضية مسطحة طولها ثلاثة أمتار وعرضها متر ونصف المتر، كما ألف له كتاب " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " الذي يصف هذه الخريطة ..

---

٢٧٩ - الدولة الأمويَّة عَوامِلُ الازدهار وتَداعيات الانهيار- عَلي محمد محمد ، ج٢/٣٠-٣٢ ، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ، الطبعة: الثانية، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م. وقد نقل عن : نفح الطيب (١/ ٢٧٥) التاريخ الأندلسي صـ٩٦ - ٩٨، دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين صـ٣٠٨.

وعن طريق الحروب الصليبية التقى الغربيون بالمسلمين، فنقلوا عنهم نباتات عرفوها لأول مرة وسموها بأسمائها العربية مثل السكر والأرز والقطن والسمسم، وتعلموا بعض الصناعات العربية مثل صناعة الورق والصابون والخزف والزجاج والأصباغ والحلي والعقاقير وهكذا كانت الحروب الصليبية ميدانا للكسب الحضاري، ففيه بدأت محاولات الغرب المنظمة للاقتباس من حضارة العرب، وكانت كفة العرب في هذه العلاقات هي الراجحة، فقد كانوا يملكون من مقومات الحضارة المادية والعقلية ما يستطيعوا ان يقدموا منه لأوربا، على حين لم تكن أوربا حتى القرن السادس عشر تملك من المقومات التي تمكنها من أن تضيفه لتراث العرب لهذا أخذ الأوربيون من العرب أكثر مما أعطوا، فاقتبسوا الكثير من علوم العرب وفلسفتهم وعمارتهم وفنونهم العسكرية وصناعتهم وتجارتهم وحياتهم الاجتماعية، وتأثرت لغاتهم وآدابهم ومجتمعاتهم إلى حد كبير باللغة العربية والآداب العربية والحياة، يضاف إلى ذلك العرب كانوا يملكون مفاتيح التجارة التي يحتاجها الأوربيون مثل التوابل والعقاقير وغيرها من منتجات الشرق المعروفة. وقدم المؤلف الكثير من الشواهد التي تدل على تأثر أوربا بالتراث العربي في مجالات متعددة، ففي الأدب تأثرت أوربا بشعر المفاجأة والشعر العربي والحكم والأمثال والقصص الإسلامي، وطبعت قصص (ألف ليلة وليلة) طبعات كثيرة بالإنجليزية والفرنسية. وفي الفلسفة تأثرت أوربا بابن سينا والفارابي وابن رشد، والأخير خاصة نقلت كتبه إلى اللاتينية.

وفي مجال الجغرافيا استفاد الأوربيون من كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" لشمس الدين المقدسي، و"معجم البلدان" لياقوت الحموي ، و مروج الذهب للمسعودي، أما أهم جرافيي المسلمين وأكثرهم اثرا فكان الشريف عبد الله الإدريسي صاحب الدور الأكبر في تجديد هذا العلم والعناية به، لدرجة ان لقبه البعض بأنه كان أستاذ الجغرافيا الذي علم أوربا هذا العلم وليس بطليموس. وفي مجال الفنون والعمارة نأخذ رسامو أوروبا فكرة تزيين الأسقف بالصور الملونة، إلى درجة أنهم نقلوا كتابات عربية زينوا بها الأسقف، رغم أنها ذات طابع إسلامي، ويشير المؤلف إلى أنه فرضت العمارة الإسلامية على عناصر العمارة المسيحية العديد من الظواهر مثل النوافذ المزدوجة، والعقود المنسوخة، والعقود الثلاثية الفتحات، ومثل الشرفات والكوابيل والأبراج، ومثل القباب المضلعة، ومثل الزخارف والمنحوتات الغائرة المتعددة الألوان، وغير ذلك من الأشكال والعناصر، وكانت الفكرة الزخرفية هي وحدها التي أوحت للفنان الأوربي منذ القرن الرابع الهجري فكرة الاقتباس من حروف العربية وتسجيلها بالحفر على تيجان الأعمدة. وقد برع الفنانون العرب في صناعة الأواني الخزفية المنقوش عليها زخارف بالخط الكوفي، ويوجد بعضها في المتاحف الأوربية. وللعرب فضل على الرياضيات ، فقد اخترع الخوارزمي علم الجبر، وقد دخلت هذه الكلمة إلى اللغات الأوربية بنطقها العربي، وبالإضافة إلى الخوارزمي يوجد آخرون مثل أبي الوفا البوزجاني ونصير الدين الطوسي و ثابت بن قرة والخازن البصري وابن الهيثم والبيروني والبتاني. وللعرب فضل كبير على علم الفلك، حيث تعمقوا في دراسته وخلصوه من التنجيم والخزعبلات، وقد تقدم العرب بعلم الفلك عن طريق إنشاء المراصيد وابتكار الأجهزة والآلات والأدوات ورسم الجداول الفلكية.

أما علم الكيمياء فقد أعطاه العلماء العرب صورة العلم الحقيقي بعد أن أدخلوا التجربة الموضوعية في دراسته. وقد استفاد الأوربيون كثيرا من بحوث العرب في الكيمياء. وبمعنى آخر فإن الكيمياء في صورتها العلمية إنجاز حققه المسلمون. إذ أنهم أدخلوا الملاحظات الدقيقة والتجارب العلمية وعنوا برصد نتائجها، وحللوا كثيراً من المواد تحليلا كيميائياً، وفرقوا بين الأحماض والقلويات، واكتشفوا العلاقة بينهما، ودرسوا ووصفوا مئات العقاقير، ومن أهم اكتشافاتهم أنهم

كانوا أول من طبق الكيمياء على الطب. وهناك جهود أخرى أفاد بها المسلمون أوربا في الطبيعة (الفيزياء) والطب والصيدلة والموسيقى والتاريخ .

وآخر فصول الكتاب يخلص إلى أن حوار الحضارات حقيقة حتمية، وفي الخاتمة يقدم المؤلف حقيقة مؤكدة هي أن الإسلام جوهره التسامح، ويقر بتعددية الثقافات والأعراق، وأن إيحاء البعض بأن الإسلام وريث الخطر الشيوعي إيحاء باطل روجه أعداء الإسلام للإساءة إليه(٢٨٠).

كانت مساهمات المسلمين في أوروبا العصور الوسطى متعددة، وأثرت على مجالات مختلفة كالفن والعمارة والطب والصيدلة والزراعة والموسيقى واللغة والتكنولوجيا .من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر، نهلت أوروبا المعرفة من الحضارة الإسلامية، عن طريق نقل الكلاسيكيات **وبالأخص أعمال الفيلسوف الأغريقي أرسطو، بعد ترجمتها من العربية.(٢٨١)**

جوانب استفادة الغرب من الحضارة الإسلامية :

تمثلت هذه الجوانب في الأمور الآتية :

أولاً: الحياة الاجتماعية : تأثر الأوروبيون في بعض جوانب حياتهم الاجتماعية بالمظاهر الاجتماعية الوافدة عليهم من المشرق الاسلامي ، وأبرز هذه المؤشرات يمكن حصرها في العناصر التالية : –

الأدب الاجتماعي : تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هوتكه " إن الحلي التي يقدمها الأوروبي لحبيبته أو لزوجة صديقه سواء أكانت ماساً أصليا أم زجاجاً مصقولاً ، هي عادة استوردت من الشرق ، ويمارسها الناس كل يوم ولا يعرفون لها مصدراً . كذلك لو أنك كتبت لسيد أو سيدة خطاباً وأنهيته بالمخلص فلان أو خادمك المطيع فأنت تعترف بسيادة العرب لأنك أخذت عنهم هذه الكلمات ، ولم يكن أجدادك في الغرب يعرفون شيئاً منها وأنت كلما انحنيت على يد سيده لتقبلها لاتنسى في تلك اللحظة أنك بهذا تمارس عادة عربية . وتزلف الرجل للمرآه خطباً لودها ولتقديرها سواء أكان هذا من باب الأدب في المجتمعات أم كان عن حب صادق ..

كل ذلك من عادات العرب المسلمين الذين استطاعوا بما حملوه من تشريعات إسلامية عظيمة ، ومن حس حضاري مرهف ، القضاء على شعور العداء للمرآة ، وجعلوا من منهجهم مثالاً احتذاه الغرب ولا يملك الآن منه فكاكاً .

وأصبح الاستمتاع بالجمال والغزل جزء اً من حياة الأوربيين شاءوا أم أبوا...

أما الفروسية بما تمثله من أخلاقيات المروءة والنجدة والأثرة ، فهي سلوك عربي هذبه الإسلام وتعلمه الأوروبيون بعد ذلك .

– النظافة والعناية بالمظهر مثل الاغتسال كسلوك اجتماعي ، والعناية بالمظر في اللبس من حيث تناسق الألوان ، واستخدام أدوات الزينة للنساء ، كل ذلك مظاهر تعلمها الأوروبيون من المسلمين .

---

٢٨٠ - دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الاوربية كنموذج لحوار الحضارات - د. عبد المنعم الجميعي الناشر : العلاقات الثقافية الخارجية - وزارة الثقافة المصرية - عدد الصفحات : ١٨١ صفحة من القطع المتوسطة

٢٨١- موقع : https://ar.wikipedia.org/wiki

ثانياً: النشاط الاقتصادي : إن مظاهر الثراء الذي شهدته بعض المدن الأوروبية وبخاصة تلك المطلة على البحر الأبيض المتوسط أو متلازمة للحدود الإسلامية البيزنطية أو القريبة منها ، كلها مدينة بثرائها للعلاقات الاقتصادية التي كانت تربطها بالعالم الاسلامي، ويظهر الاثر الاقتصادي للعالم الاسلامي في المجالات التالية.

– **التجارة**: ارتبط العالم الاسلامي بالغرب المسيحي من خلال مجالين تجاريين رئيسي يتخلصان في افقين :

الأفق الأول هو : بيزنطة حيث فرض الموقع الجغرافي للعالم الاسلامي على بيزنطة علاقاتها التجارية لأنه كان يطوقها من الشرق والجنوب ، وكل سلع آسيا أو إفريقيا كانت إما منتجاً في هذا العالم أو أنها تمر عن طريقه.

وقد أسهم هذا الوضع في أن تقوم الإمبراطورية البيزنطية بدور الوسيط بين الشرق والغرب ، وأضحت مدنها القريبة من الحدود الإسلامية أو عاصمتها القسطنطينية ، مناطق عبور للتجارة الدولية، وكان في العاصمة القسطنطينية ، جالية عربية من التجار السوريين الذين كان لهم فيها مسجد خاص بهم .

كانت هذه التجارة منتظمة بحيث تكفل للتجار المسلمين تصريف كامل بضائعهم مما كانت كميتها ونوعيتها فإذا تخلت نقابات التجار البيزنطيين المشترين عن جزء من البضائع المعروضة من قبل التجار المسلمين ، فإنه كان على حاكم المدينة أن ينقلها إلى السوق و أن يبحث لها عن تسويق مناسب

الأفق الثاني : كان يتكون من أقوام أوروبية كان مستواها الاقتصادي لا يزال متخلفاً ، وكذلك أنماطها الحضارية كواقع أشمل ، يبد أن وجود الحواضر الإسلامية الكبرى في صقلية والأندلس ، واحتكاك الأوروبيين بها وبالمشرق الاسلامي خلال الحروب الصليبية ، رفع من المستوى الحضاري لتلك الشعوب فتزايد إقبالها تبعا لذلك ،على المنتجات المتنوعة القادمة من العالم الإسلامي ومن ابرز المنتجات التي كانت تصدر من العالم الاسلامي إلى الغرب الأقمشة المصنوعة بإتقان كبير جداً من الحرير والأقطان والصوف بالإضافة إلى المعاجين الطبيعية . وأدوات الزينة ، والملابس ، والآنية بأنواعها المختلفة من الخزف والزجاج ،والمعادن، والورق بأنواعه ،والعطور بأنواعها ،بالإضافة إلى الآلات وأدوات الجراحة والاسطرلابات بالإضافة إلى الصناعات مثل السكر وغيره من المنتجات الصناعية.

وكان العالم الإسلامي يستورد الأحجار الكريمة واللؤلؤ والعاج ، كما كان العالم الإسلامي يستورد من الغرب الأصواف والمعادن والأخشاب والرقيق . هذه المبادلات الواسعة النطاق أسهمت في نمو الخبرات التجارية في الغرب ، وما ارتبط بذلك من نمو مدن وأساطيل تجارية كبرى ، واسهمت في تزايد الثراء لدى الغرب وما تربت عنه من نهضة اقتصادية وحضارية وأبرز الأدلة على ذلك أنه عثر في جزيرة جوتلاند السويدية وحدها أكثر من ثلاثين ألف قطعة نقدية من العملات الإسلامية ،علاوة على ما وجد في غيرها من البلاد الأوروبية .

ثالثاً: الزراعة : نقل العالم الاسلامي الكثير من خبراته في الزراعة إلى الغرب ، ويمكن حصر أهم هذه الخبرات في الجانبين التاليين :

الأساليب الزراعية : مثل بناء المصاطب الزراعية على سفوح الجبال وهو أسلوب نقله المسلمون

إلى بلاد الأندلس قبل أن ينتشر في أوروبا ، ومن الأساليب الزراعية التي عرفها الأوربيون عن طريق المسلمين في الأندلس استخدام القنوات الأرضية في نقل الماء بالإضافة إلى استخدام النواعير في السقيا .

أدخل المسلمون إلى جنوب أوروبا زراعة الأرز والقطن وقصب السكر والبرتقال والليمون وانواع مختلفة من الخضار والحبوب.

رابعاً: الصناعة : تأثرت الصناعات الأوروبية في عصر النهضة بالصناعات الإسلامية .

فصناعة الراعدات (الصواريخ) و القنابل والمدافع والبنادق هي صناعة إسلامية ، صنعها المسلمون لمواجهة الحملات الصليبية المتتابعة على المشرق الاسلامي ، وقد كتب أحد الأوربيين المرافقون لإحدى الحملات الصليبية يقول :" إنه كلما انطلقت قذيفة في الفضاء ، كان يبلغ التأثير بملك فرنسا مبلغاً كبيراً فيصيح باعلى صوته " سيدي الحبيب احمني وشعبي من الكارثة " وعن طريق ترجمات لاتينية وصلت أولى المعلومات عن أنواع المواد المتفجرة وعن الألعاب النارية إلى أوروبا فتلقفها روجر باكون والبرنس ماغنوس والنبيل الآلماني فون بولتشاد، وهذا الأخير هو الذي زود برتولد شفاس الفرنسيسكان ، بجميع المعلومات التي جعلته يدعى اختراع البارود ...

أما المدافع والرعادات والقنابل ، فلقد عرفتها أوروبا عن طريق عرب الأندلس ، الذين استخدموا هذه الأسلحة بفعالية كبيرة في حروبهم قبل أن يقتبس الأوروبيون هذه الخبرات المعرفية ، ويأخذوا في تطويرها ليعيدوا إطلاقها على من علموهم صنعتها .

ومن الصناعات التي نقلها الأوروبيون عن العرب صناعة الورق، حيث كان التجار والحجاج الاوروبيون يذهبون إلى الأندلس أو إلى المشرق الإسلامي ويعودون محملين برزم من الورق الناعم ، وظل الأمر على هذه الحال في أوروبا حتى بدأت إيطاليا في صناعة الورق سنة ١٣٤٠م ثم تبعتها ألمانيا في سنة ١٣٨٩ م وقد استعان الأوروبيون بصناع عرب ومسلمين لبناء مطاحن الورق الأولى بل إنهم تعلموا من العرب جميع أنواع الطواحين ، مثل الطواحين المائية والهوائية . لقد كانت صناعة الورق وغيرها من الصناعات الأخرى في النسيج والمعادن والخشب وغير ذلك ، تبدأ في أوروبا في شكل صناعات مقلدة للصناعات الاسلامية قبل أن تتجه إلى تبني أساليبها الخاصة في الصناعة فمنذ القرن ٦-٧ هـ / ١٢-١٣ م بدأ النساجون الأوروبيون يجتهدون في محاولاتهم لتقليد النسيج المصنوع في العالم الإسلامي.

فكانت بولندا من المراكز المهمة لصناعة النسيج المقلد للنسيج الإسلامي ، أما صناعة المعادن فيها بدأت ايضاً منذ القرن ٦هـ كما تظهر في الأواني الرومانية الطراز التي صنعت على هيئة حيوانات كمثيلاتها الإسلامية وطوت النحاس المطعم بالميناء ، وكانت تصنع في ليموج بفرنسا وتعرف بالتوائم ، ويظهر تأثرها الواضح بمثيلاتها المصنوعة في العالم الإسلامي .

كذلك الاسطرلابات التي كانت تعمل بكثرة في المشرق الإسلامي وتقلد تقليداً دقيقاً في أوروبا

و كان لانتشار التطعيم على المعادن في العالم الإسلامي أثر الكبير على أوروبا وخاصة منذ القرن ٩هـ / ١٥ م حيث شاع هذا الأسلوب في صناعة المعادن في أوروبا ، وظهر على عدد كبير الطسوت والقصاع والأطباق الكبيرة والأباريق والشمعدانات المصنوعة في البندقية وربما في مدن اوروبية اخرى

، وعلى الوتيرة نفسها سار الأمر في الصناعات الأوروبية الأخرى الخزفية والزجاجية والخشبية .

خامساً: العلوم : الأثر العلمي للحضارة الاسلامية على الغرب كان كبيراً جداً ، وللأسف الشديد حتى الوقت الحاضر فإن هذا الأثر لم يتم دراسته واستيعابه بدرجة كافية . ولعل من أسباب ضعف الاستعياب ما أثبتته الدراسات الحديثة عن بواكير المؤلفات اللاتينية التي ظهرت بعد البدايات الأولي للترجمات من العربية إلى اللاتينية في القرن الرابع الهجرى حيث ثبت أنها إنما كانت مجرد نقول من الكتب العربية و لم يتم الإشارة إلى أصحابها بسبب عوامل العداء والكراهية التي كانت في الغرب لكل ما هو إسلامي .

ومن أمثله ذلك قسطنطين الأفريقي ، وهو تاجر عربي من الجزائر لا يعرف كونه ولد مسيحياً أم تنصر . قدم مدينة سالونو في جنوب ايطاليا سنة ١٠٦٥ م وشهد انحطاط مستوى الطب والصيدلة هناك ، فعاهد نفسه أن يعود إلى بلده ليتعلم الطب فيها ، ثم يرجع ليفيد الايطاليين ، فعاد بعد ثلاث سنوات إلى سالونو ومعه الكثير من الكتب ثم عكف في دير من الأديرة مع بعض الرهبان ، ونقل هناك الكثير من الكتب العربية إلى اللاتينية ونسبها إلى نفسه بينما ثبت من خلال الدراسات والأبحاث ، أن جهده العلمي لا يعدو ان يكون نقلا من محتويات أكثر من سبعين كتاباً عربياً . ولقد فتحت ترجمات قسطنطين الافريقي في أوروبا الابواب لعلم الطب .

في القرن ٧ هـ / ١٣ م بدأت تظهر مؤلفات ، هي في الواقع مقلدة للكتب العربية وليس فيها جديد ، بل إنها في كثير من الأحيان تقل في المستوى عن مصادرها العربية ، وذلك من حيث درجة فهم الموضوعات وطريقة العرض وترتيب الموضوع والإيجاز وربما الأمانة ، ولم يمنع ذلك من ظهور ترجمات عملت على النقل بأمانة من العلوم العربية إلى اللاتينية ، فأدى ذلك إلى أن تصبح هذه الكتب هي مفاتيح العلم في الغرب ومن أمثله ذلك :

جابر بن حيان ودوره الرائد في علم الكمياء ، ومن أبرز كتبه كتاب(الرحمة)وكتاب (التجميع) وكتاب (الزئبق الشرقي) وكتاب(الاستتمام) ، وكتاب (السبعين) ، وكتاب (تركيب الكيمياء) وكتاب (السموم) ودفع مضارها ، وقد ترجم له أكثر من كتاب في مطلع عصر النهضة ، حيث تعلم منها **الغرب الكثير مثل " تحضير المواد الكيميائية ودراسات التركيبات والأوزان الجزيئية " وغير ذلك** .

الحسن بن الهيثم : يعد الحسن بن الهيثم أحد أبرز العلماء الذين أزهر بهم العلم فقد الف ٢٥ كتاباً في الرياضيات و ٢١ كتاباً في الهندسة و ٣ كتب في الحساب و ٢٤ مجلداً في الفيزياء والفلك .

وتجد في هذه الكتب الكثير من الآراء والنظريات التي تعكس التطور العلمي عند المسلمين على وجه العموم ، وعند الحسن بن الهيثم على وجه الخصوص ، وخاصة فيما يتعلق بعلم الضوء والعدسات والبصريات وخصائص الإبصار وغير ذلك .

علي الحسين بن عبدالله بن سينا: ألف قرابة مائة كتاب ، تناولت فنوناً مختلفة من أشهرها الطب وخاصة في كتابة (القانون) ، الذي يعد دائرة معارف طبية ، طبع في أوروبا عدة مرات . وظل لعقود طويلة هو المرجع المعتمد عند الدارسين في هذا المجال .

أبو القاسم خلف بن العباس الزهرواي : يعد رائد علوم الجراحة في التاريخ الإنساني وله كتاب قيم في هذا المجال اسماه (**التصريف لمن عجز عن التأليف**) وقد ظل هذا الكتاب بمثابة المرجع الأساسي الذي اعتمد عليه الأوروبيون في الجراحة وتجبير العظام لعدة قرون .

الخوارزمي : الذي نقل عنه الأوروبيون نظريته في الرياضيات فسموها باسمه ، فيقال لوغارزم على وزن خوارزم ، وأصبحت تعرف باللوغريتمات في الرياضيات ..وهناك غيرهم كثير .. من العلماء المسلمين في المجالات المختلفة الذين اثرت كتبهم في تطور العلوم عند الغرب .

والحقيقة فإن أثر المسلمين العلمي يتجاوز الإضافات في العلوم إلى تأسيس العلوم نفسها ، وعلى الرغم من أن لها أثرا سابقاً ولكنها لم تتحول إلى علوم حقيقية بحته تخدم المعرفة والحضارة إلا على يد المسلمين ، مثل علم الجبر والإحياء والكيمياء والفلسفة والتاريخ ... وغير ذلك.

كما أن العالم بأسره مدين للحضارة الإسلامية باكتشاف المنهج التجريبي .وما ترتب عن من تطورات مهمة في تاريخ العلوم . (٢٨٢).

المبحث الثامن

معابر التواصل العلمي واللغوي والحضاري بين الشرق الإسلامي والغرب.

كان الفتح الإسلامي قد امتدَّ بسرعة إلى سورية والعراق ومصر، وبلاد فارس وليبيا وتونس، والجزائر والمغرب والسودان، والأندلس وجنوبي فرنسا وجنوبي إيطاليا، وصقلية، وإلى بلاد الترك والأفغان والسند والهند، وغيرها من الأقطار الأُخرى الَّتي فتحها العرب واعتنقتِ الدِّين الإسلامي وحدث الانصهار العجيب بين العرب وغير العرب في المدن التي تكونت بعد الفتوح الإسلامية. مما أدى إلى تفاعل بين قاطني هذه المدن علمياً واجتماعياً، ترتب عليه استعمال لغتين أو أكثر في آن واحد . (٢٨٣).

وكان هناك تيار يمكن أن نسميه تيار الحب الشديد للدين الإسلامي والإقبال عليه طوعاً وليس قهراً، فأحبوا العرب والعربية من خلاله. وشهد التاريخ الإسلامي أن حسن معاملة الحكام المسلمين لهؤلاء الأقوام من الأعاجم أثناء وبعد الفتوحات جعلهم يدخلون في الدين الإسلامي أفواجا وأفواجا. وانتشار العربية كلغة فكر يرغب فيها معتنقو الدين الإسلامي من غير العرب برغبة ملحة في تعلم اللغة العربية لفهم الدين ولأداء صلاتهم على وجه سليم. مما ساعد في تكوين لغة رسمية في الأقاليم التي انتشر فيها الإسلام، وهي اللغة العربية ولغات أخر هي لغات أهل الأقاليم أو المدن أو القرى(٢٨٤)

---

٢٨٢ - موقع جامعة أم القرى : http://uqu.edu.sa/page/ar/15923

٢٨٣ - التفكير اللغوي عند الجغرافيين والرحالة العرب في ضوء اللسانيات الجغرافية المعاصرة، مازن عوض الوعر: مجلة التراث العربي، العدد ١٠٤ السنة السادسة والعشرون، دمشق ٢٠٠٦.

٢٨٤ - التفكير اللغوي عند الجغرافيين والرحالة العرب في ضوء اللسانيات الجغرافية المعاصرة، مازن عوض الوعر: مجلة التراث العربي، العدد ١٠٤ السنة السادسة والعشرون، دمشق ٢٠٠٦.

ونبدأ باستعراض أول هذه المعابر والعوامل التي ساعدت على التواصل اللغوي والحضاري (٢٨٥)

الأندلس .

على مدى ما يقرب من سبعمائة سنة فيما بين القرنين الثامن والخامس عشر الميلاديين كانت إسبانيا موطن الحضارة الإسلامية. وقد نشرت الأندلس هذه الحضارة في جميع أرجاء أوروبا، وذلك عن طريق التجارة والجامعات والأدب، وكان كثير من العلماء العرب في إسبانيا يقرأون اللاتينية ويكتبونها، كما كان الإسبان المسيحيون أو المستعربون Mozarabs الذين يعيشون تحت الحكم العربي للأندلس يعرفون العربية ..

وامتازت حضارة العرب في الأندلس بميلها الشديد إلى العناية بالآداب والعلوم والفنون، فأنشأوا المدارس والمكتبات في كل ناحية وترجموا الكتب المختلفة، ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيمياوية والطبية بنجاح ولم يكن نشاطهم في الصناعة والتجارة أقل من ذلك، فكانوا يصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة، ومصانع النسائج، والجلود والسكر وبرعوا في الزراعة براعتهم في العلوم والصناعات، ولا يوجد في الأندلس من أعمال الري خلا ما أتمه العرب، وأدخلوا إلى حقول الأندلس زراعة قصب السكر والأرز والقطن والموز.

وقد ارتقت الحضارة الاسلامية في تلك المنطقة من دنيا الإسلام ارتقاءً رائعاً ونافست الحضارة الإسلامية فيها حضارة الإسلام في المشرق، وبلغ من عظمة قُرْطُبَة Cordovaوأزدهارها وخاصة إبان العهد الأموي في الأندلس إنها كانت أعظم مدينة في أوروبا كلها وتأتي على قدم المساواة مع القسطنطينية وبغداد إبان عزهما، وقد بلغت قُرْطُبَة أوجاً لم تصل إليه مدينة في أوروبا قبل القرن الثامن عشر. وفي ذلك يقول الشاعر:

بأربع فاقت الأمصار قُرْطُبَة منهن قنطرة الوادي وجامعها هاتان ثنتان

والزهراء ثالثة والعلم أعظم شئ وهو رابعها.

وقد انتشرت الحلقات التعليمية في أغلب جوامع الأندلس وبشكل خاص في المدن الرئيسية كقُرْطُبَة وطُلَيطِلَةُ وإشبيلِيّة، ولقد وجد في كل جامع مكتبة غنية بمختلف فروع المعرفة الإنسانية، فقد كان للحلقات التي تعقد في جامع طُلَيطِلَةُ شهرتها وأهميتها وجذبت إليها الطلاب المسلمين والنصارى على السواء حتى لقد كان يقصدها طلاب نصارى من جميع أنحاء أوربا بما فيها إنجلترا وأسكوتلندا.

---

٢٨٥ - زيارة جديدة للاستشراق، أنور محمود زناتي: مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٦ م وقد نقل عن : حضارة العرب – غوستاف لوبون: ص٢٧٣ ، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ج٢/ ١٥، ليوبولدو تورتيس بلباس: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة٢٠٠٢، رقم ٤١٢ . ،وقُرْطُبَة، درة مدن أوروبا في العصور الوسطى، حسين مؤنس: مجلة العربي، عدد ٩٥، أكتوبر ١٩٦٦، ص ٨٥. ، ودائرة معارف الشعب: عدد رقم ٦١ مطابع الشعب، ١٩٥٩، ص ١٧. ، ومحمد ماهر حماده: روح التحرر في القرآن. ، وراجع حضارة العرب، جوستاف لوبون: ترجمة: عادل زعيتر، دار احياء الكتب العربية القاهرة.. وموقع : http://www.forsanhaq.com/showthread.php?t=372345 فرسان السنة – أنور محمود زناتي ، وقد نقل عن : حضارة العرب – غوستاف لوبون: ص٢٧٣ ، تاريخ إسبانيا الإسلامية، ج٢/ ١٥، ليوبولدو تورتيس بلباس: المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة٢٠٠٢، رقم ٤١٢ . ،وقُرْطُبَة، درة مدن أوروبا في العصور الوسطى، حسين مؤنس: مجلة العربي، عدد ٩٥، أكتوبر ١٩٦٦، ص ٨٥. ، ودائرة معارف الشعب: عدد رقم ٦١ مطابع الشعب، ١٩٥٩، ص ١٧. ، ومحمد ماهر حماده: روح التحرر في القرآن. ، وراجع حضارة العرب، جوستاف لوبون: ترجمة: عادل زعيتر، دار احياء الكتب العربية القاهرة.

يذكر جوستاف لوبون أنّ الوجود العربيّ في الأندلس الذي دام حوالي ثمانية قرون لم يكن له تأثير سياسيّ كبير ولكنّ عبقريتهم الحضارية كانت أكبر إذْ إنهم حقّقوا تطوّرًا ماديًّا كبيراً وقفزة علميّة نوعيّة ونجحوا في جعل الأندلس تتبوّأ صدارة الدّول الأروبية.

وكان المسيحيون الإسبان الذين هاجروا إلى كثير من بلاد أوروبا قد أشادوا بالعرب وشرائعهم، وحضارتهم، وثقافتهم، وبالعمران الذي عم البلاد الإسبانية على أيديهم؛ فنشروا بذلك- من حيث لا يقصدون- دعاية طيبة للمسلمين في أوروبا ونبهوا أذهان أهلها إلى النهضة الحضارية التي قام بها المسلمون في إسبانيا.

وكان هؤلاء المهاجرون قد تسرعوا في هجرتهم خوفاً على أنفسهم من بطش المسلمين بهم، من غير أن ينتظروا ما سيكون منهم، ولكنهم لم يلبثوا أن ندموا على هجر بلادهم حين علموا من مواطنيهم الذين لم يهاجروا مثلهم أن المسلمين يحسنون جوارهم ويطلقون لهم الحرية في أداء شعائر دينهم، ويعاملونهم بالحسنى وينشرون العدل والأمن في سائر البلاد وأنهم حولوا إسبانيا إلى مروج خضراء وجنات فيحاء(٢٨٦).

هذه الدعاية Propaganda غير المقصودة التي نشرها المهاجرون الإسبان، في أكثر بقاع أوروبا جعلت أهلها يتطلعون للوقوف على هذه النهضة الحضارية، التي وصلت أخبارها إليهم وكان أسبق الأوروبيين إلى ذلك الملك فيليب البافاري؛ حيث بعث إلى الأندلس يرجو الأمير الأموي هشام الأول يرجوه أن يسمح له بإيفاد بعثة إلى قُرْطُبَة Cordova لدراسة أنظمة الأندلس وثقافتها، ومشاهدة أوجه النشاط بها، فقبل الأمير رجاءه وأرسل الملك الجرماني وفداً إلى الأندلس برئاسة وزيره الأول " ويلميبن " الذي أطلق عليه الأندلسيون اسم " وليم الأمين " لأنه تحرى الأمانة في نقل ما رأوه من مظاهر نهضة بلادهم إلى الملك. وقد أشار الوزير على الملك بالاستمرار في إرسال البعثات العلمية لاقتباس ما يفيد البلاد من فنون الحضارة العربية.(٢٨٧).

وقد توالت البعثات على الأندلس بعد ذلك، وفي أوائل القرن الخامس الهجري أرسل جورج الثاني George "ملك إنجلترا ابنة أخيه الأميرة" دوبانتDopant " ، على رأس بعثة من ثمان عشرة فتاة، من بنات الأمراء والأعيان، إلى إشبيليّة بمرافقة النبيل " سفليك " رئيس موظفي القصر الملكي، وأرسل معه كتابا إلى الخليفة هشام الثالث آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس جاء فيه بعد الديباجة: " وقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم، والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل؛ لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة، وقد أرسلنا ابنة شقيقتنا الأميرة " دوبانت " على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز؛ لتتشرف بلثم أهداب العرش؛ والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم؛ وحماية الحاشية الكريمة، وحدب من لدن اللواتي سيتوفرن على تعليمهن، وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها، مع التعظيم والحب الخالص من خادمكم المطيع: جورج(٢٨٨)

---

٢٨٦ - أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية.- جاد أحمد رمضان: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة،١٩٨١ م، ص ٢٣٣-٢٤٩.

٢٨٧ - أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوروبية.- جاد أحمد رمضان: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة،١٩٨١ م، ص ٢٣٣-٢٤٩.

٢٨٨ - المصدر السابق،١٩٨١، م، ص ٢٣٣-٢٤٩.

رسالة جورج الثاني ملك إنجلترا إلى الخليفة هشام الثالث وقد ردّ الخليفة هشام الثالث على ملك إنجلترا برسالة جاء فيها: " لقد اطلعت على التماسكم فوافقت- بعد استشارة من يعنيهم الأمر- على طلبكم وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي. أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد، وبالمقابلة أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية وهى من صنع أبنائنا، هدية لحضرتكم، وفيها المغزى الكافي للتدليل على اتفاقنا ومحبتنا والسلام- خليفة رسول الله على ديار الأندلس: هشام.

وفي عهد ملوك الطوائف في الأندلس كانت توفد إلى معاهد غَرْناطة، وإشبيلِيّة، وغيرهما بعثات من فرنسا، وإيطاليا، والأراضي الواطئة؛ لتنهل من الحضارة العربية، وكان طلاب هذه البعثات يعجبون بالحياة العربية وتقاليدها وثقافتها حتى أن بعضهم اعتنق الإسلام وفضل البقاء بالأندلس ولم يعد إلى بلاده(٢٨٩).

الاختلاط بين المسلمين والأسبان عن طريق الزواج والتعليم والعمل والخبراء ، ومؤسسات التعليم فيها ، وأثر ذلك في نشر الثقافة الإسلامية .

الرحلة في طلب العلم:

قام العديد من طلاب العلم الأندلسيين بالرحلة إلى العراق للتزود بالعلوم من منابعها، وقد أمضى بعضهم سنوات طويلة تجاوزت العشرين سنة أحياناً من أجل هذه المهمة، أمثال محمد بن عبد السلام الخشني ، وأنفق الكثيرون القسم الأكبر من ثرواتهم في شراء الكتب التي أدخلوا منها الكثير إلى الأندلس، بالإضافة إلى أن غيرهم حملوا العلم رواية في الصدور.

ومن نماذج هؤلاء العلماء يحيى بن الحكم الغزال الذي رحل إلى بغداد ودرس الشعر العربي في العراق هناك وقلّد أبا نواس في شعره. وكذلك عبد الله بن محمد بن قاسم الذي رحل إلى العراق ودرس فيه المذهب الظاهري ونقل أصوله إلى الأندلس، وعالم الحديث المشهور محمد بن وضاح، رحل إلى المشرق ودرس على أيدي كبار علماء الحديث ومن أشهرهم الإمام أحمد بن حنبل.

كذلك اشتهر عبد الله بن مسرة بن نجيح بالفلسفة وعلم الكلام وقام برحلته المشرقية إلى العراق ونزل البصرة في أواخر عصر الإمارة مع أخيه. وقد وُصف عبد الله هذا بكونه أشقر شديد الحمرة مما جعل أحد شيوخه في البصرة يحذره مازحاً " إياك أن يبيعك أهل البصرة يا صقلبي "، ثم رجع إلى الأندلس يبشر بهذه العلوم التي درسها في العراق. وقد ازدهرت مدرسة ابن مسرة الفلسفية في عصر الخلافة.(٢٩٠)

هجرة العلماء إلى الأندلس:

نتيجة الاضطراب السياسي في المشرق، هاجر بعض العلماء إلى الأندلس، فلقوا الترحاب والرعاية في ربوعها، فكان الأمر كما يقول أحمد أمين: " ... علماء يضيق بهم الشرق من الفاقة فيرحلون إلى الغرب، وعلماء من الغرب يعوزهم العلم فيرحلون إلى الشرق ... ". ومن العلماء الذين رحلوا من المشرق إلى الأندلس في هذه الفترة، محمد بن موسى الرازي وهو من مدينة الري في إيران، ورأس

---

٢٨٩ - المصدر السابق ، ص ٢٣٣-٢٤٩.

٢٩٠ - تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس - د خليل إبراهيم السامرائي - د عبد الواحد ذنون طه - د ناطق صالح مصلوب – ج٣٢٢/١- الناشر: دار الكتاب الجديد المتحدة - بيروت، لبنان - الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠ م.

عائلة المؤرخين المشاهير في عصر الخلافة (أحمد بن محمد وابنه عيسى بن أحمد). وكان محمد بن موسى الرازي تاجراً مشرقياً اتصل بالأمير محمد وعمل لديه في التجسس على أوضاع المشرق، وهو الذي ألّف كتاب الرايات في التاريخ. (٢٩١).

وفي عصر الإزدهار تقدمت العلوم الطبية في الأندلس، وقد ساهم في تقدمها بعض الأطباء المشارقة الذين رحلوا إلى الأندلس، فعلموا أهلها وما وصل إليه أهل العراق في الطب. ويأتي في مقدمتهم إسحاق بن عمران العراقي الأصل الذي رحل إلى الأندلس. وإذا كان رائد الحركة الطبية في الأندلس في هذا العصر أحمد بن إياس (حمدين بن أبا) الذي ينسب إليه يسون حمدين (شراب) وهو يتألف من مائة صنف من الأعشاب، فقد كان أستاذه طبيباً عراقياً من حران هاجر إلى الأندلس في فترة الإزدهار، وهذا الطبيب المشرقي هو الذي أدخل للأندلس معجوناً لأوجاع الجوف، كان يبيع السقية منه بخمسين ديناراً، وكان حمدين أحد خمسة أطباء أخذوا العلم منه. (٢٩٢).

وأدت هذه العوامل إلى انتشار بعض العلوم التي تعتبر عراقية النشأة في الأندلس، وقد شهدت فترة الإزدهار من عصر الإمارة دخول النتاج العربي العراقي من علوم اللغة والنحو، فنرى عبد الرحمن بن موسى الهواري يدرك الأصمعي في العراق ويأخذ منه علم النحو مباشرة، ولكنه لم يكتف بذلك بل سلك مسلك علماء البصرة بأن داخل الأعراب وتردد في بواديها وحفظ الكثير.

وكذلك محمد بن عبد السلام الخشني الذي قضى في العراق خمسة وعشرين عاماً، فأخذ علم اللغة والنحو والشعر الجاهلي من شيوخ يروونها عن طبقة المشاهير في هذا الباب كالأصمعي وأبي عبيدة معمر بن المثنى وسيبويه، ومن أشهر شيوخه سهل بن محمد السجستاني والعباس بن الفرج الرياشي. كذلك قام جودي بن عثمان النحوي (توفي عام ١٩٨ هـ) بلقاء الكسائي والفراء وأبي جعفر الرؤاسي أثناء رحلته للمشرق، وهو أول من أدخل للأندلس كتاب الكسائي. (٢٩٣)

ساهم التأثير الحضاري الشرقي في تطوير حضارة العرب في الأندلس، ابتداءً من فترة الازدهار في عصر الإمارة، وما تلاها من عصور، إلا أن هذا التأثير لقي في البداية معارضة شديدة من بعض العلماء ورجال البلاط ضد علماء الأندلس الذين تأثروا بالحضارة العراقية أمثال العالم والأديب المعروف عباس بن فرناس الذي لقي الأمرين من جراء ذلك، ولم يخفف عن هؤلاء العذاب، إلا رعاية الأمير عبد الرحمن الأوسط لهم. كما أن التطور الحضاري في الأندلس خلال هذه الفترة زاد وكبر من حجم ظاهرة الاستعراب بالأندلس، أي إقبال الإسبان على تعلم اللغة العربية وآدابها، وتقليد العرب في عاداتهم الإجتماعية. وإزاء هذا الأمر –الذي كان للتيار الفكري العراقي تأثير واضح في كل هذه المتغيرات– كان لبعض رجال الدين الإسبان المتعصبين موقف معادٍ لهذا التيار. وإذا صحت ظاهرة الاستشهاد (الانتحار الديني) في قرطبة ٢٣٥ – ٢٤٤ هـ/ ٨٥٠ – ٨٥٩ م، ومحورها الطعن بالإسلام ومبادئه وشتم رسول الله صلى الله عليه وسلم علناً في المساجد والساحات العامة أولاً، ومحاولة إعادة بعض من أسلم حديثاً من الإسبان إلى دينه القديم ثانياً، والتي ذكرتها المراجع الأوروبية ، فنحن نميل إلى أن هذه الحملة التي قادها الغُلاة تعود إلى ظاهرة التطور الحضاري الأندلسي في هذا العصر بسبب

---

٢٩١ - المصدر السابق ، ج٣٢٣/١.

٢٩٢ - المصدر السابق ، ج٣٢٣/١- ٣٢٤ .

٢٩٣ - تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس - د خليل إبراهيم السامرائي - د عبد الواحد ذنون طه - د ناطق صالح مصلوب – ج٣٢٤/١- الناشر: دار الكتاب الجديد المتحدة - بيروت، لبنان - الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠ م.

التأثيرات الحضارية المشرقية. (٢٩٤)

ويعد منهج تفسير القرآن بالمأثور، من أبرز المناهج التي اشتهرت في الأندلس، وتزعم هذا المنهج فيها العالم الفقيه بقي بن مخلد (توفي عام ٢٧٦ هـ) في أواخر عصر الإزدهار، وقد ألف كتاباً في تفسير القرآن بلغ فيه درجة من الجودة والإتقان. له رحلة مشرقية، وبعد عودته إلى الأندلس لاقى الأمرين من بعض الفقهاء ولم ينقذه من هذا الوضع الحرج إلا المناظرة المشهورة لأعدائه الفقهاء. واستمرت شهرته في العصور التالية. وعلى الرغم من سوء الأحوال السياسية الداخلية للأندلس التي عَجَّت بالفتن والمنازعات في عصر الحروب الأهلية (٢٧٣ - ٣٠٠ هـ) -وهو العصر الأخير من فترة عصر الإمارة-، إلا أن هذه الفترة شهدت تقدماً ملحوظاً في الأدب الأندلسي، وبخاصة في مجال الشعر، الذي ظهرت فيه اتجاهات مختلفة، فهناك الاتجاه القومي العربي، إذ وقف بعض الشعراء العرب يمتدحون العروبة ويمدحون العرب ويفاخرون بهم ضد المولدين، كما وقف بعض الشعراء المولدين موقف المعادي للعرب ودعوا إلى الخلاص منهم، وقد تكون هذه الحركة متأثرة بحركة الشعوبية في المشرق، وهذا هو الإتجاه الثاني قال شاعر العرب:

منازلنا معمورة لا بلاقع ... وقلعتنا حصن من الضيم مانع

ورد عليه الشاعر الشعوبي المدجني:

منازلهم منهم قفار بلاقع ... تجاري السفى فيها الرياح الزعازع

وبرز أيضاً الشعر الذي وصف المعارك الحربية، نظراً لكثرة المعارك بين الأمراء الأمويين في هذه الفترة والخارجين عليهم، وللشاعر والعالم عباس بن فرناس شعرٌ في هذا المجال وكذلك الشاعر سعيد بن جودي السعدي . والاتجاه الآخر في الشعر في هذه الفترة، هو نشأة الموشحات في عهد الأمير عبد الله. وكان مخترع الموشحات في عصر هذا الأمير مقدم بن معافى القبري ، وكان هذا الأمر استجابة إلى ازدهار الغناء في الأندلس منذ دخول زرياب الأندلس أولاً، ونتيجة لامتزاج العرب بالإسبان ثانياً.

والموشح شعر فصيح، وكلمة الموشح مأخوذة من الوشاح، كالقلادة مُرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقيها وجنبيها. ومن أشهر شعراء هذه الفترة ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد، واستمرت شهرته إلى عصر الخلافة .

أما النثر فقد تطور في هذه الفترة، وكثر عدد الأدباء المشتغلين به، فكان للأمير عبد الله، الكاتب موسى بن زياد وعبد الله بن محمد بن أبي عبده وعبد الله بن محمد الزجالي ، كما أن بعض المسيحيين ذوي الأصول الإسبانية عملوا في الكتابة للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط أمثال (قومس بن أنتنيا) الذي أسلم فيما بعد.

وقد كان الجاحظ (توفي ٢٥٥ هـ) ذا شهرة لدى الأندلسيين في هذه الفترة، وقد وصلت بعض كتبه إليهم مثل كتاب البيان والتبيين، كما كان يقصده بعض علماء الأندلس للتلمذة على يديه. وقد وجدت نماذج لبعض الرسائل والمحاورات والتوقيعات في هذا العصر تدل على تقدم النثر الأندلسي في هذه الفترة.

وفي هذه الفترة دخل الأندلس المذهب الشافعي، ويرجع دخوله إلى الفقيه قاسم بن محمد بن

---

٢٩٤ - المصدر السابق ج١/٣٢٤-٣٢٥ .

سيار القرطبي (توفي عام ٢٧٨ هـ). ونشطت كذلك مدرسة ابن مسرة في هذه الفترة، وما يليها من عصور، كما سنوضح ذلك. ونشطت العلوم الطبية في هذه الفترة، ومن أشهر الأطباء (ابن ملوكة النصراني) الذي كان يصنع الأدوية بنفسه، ويفصد العروق، وكذلك (إسحاق الطبيب).(٢٩٥).

الرحالة من المسلمين إلى بلاد الغرب.

كانت الرحلات – مثلما كانت الحروب ، والسفارات – ركنًا أساسيًا في صلة المشرق بالمغرب واتصال المسلمين بالغرب.

لقد وصل المسلمون بجهادهم في جبهة الروم إلى غالب الأراضي التي كانوا قد استولوا عليها في المشرق، وواصلوا جهادهم ففتحوا غير قليل من أراضي الروم شرقًا وغربًا، فالأراضي التي لم تصلها جيوش المسلمين أبدًا هي الجزء الأقل من أرض الروم، إذا ما استبعدنا العالم الجديد الذي لم يكن معروفًا آنذاك.

هذه الأجزاء التي لم يصلها مجاهدون وصلها رحالة مسلمون ممن حُبِّب إليهم السفر والترحال، أو حملهم على ذلك التجارة أو السفارة أو ما سوى ذلك من الأغراض.

ونستطيع أن نقول بمجموع ما وصل إلينا من أخبار الرحلات والمؤلفات فيها إن المسلمين قد شملوا برحلاتهم بلاد أوروبا، فعرفوها بالعيان والمشاهدة لا بمجرد النقل والسماع، ويمكن أن نقسم الرحلات إلى نوعين: الرحلات الفردية التي قام بها رحالة شغوف وسجلها في كتاب، والرحلات الجماعية التي يقوم بها التجار أو المهجرون واللاجئون وأشباههم.

الرحلات الفردية :

تتميز الرحلات الفردية بأن أغراضها علمية وأن صاحبها كان حريصًا على تسجيلها، ولذلك اهتم بالتقاط ما شاهده فيها، فهو عين فاحصة منتبهة، وقد اختلفت مناهج الرحالة في تسجيل مشاهداتهم، فمنهم من اهتم بالجغرافيا، ومنهم من اهتم بالناس وأحوالهم وعوائدهم، ومنهم من اهتم بالسياسة والملوك، وربما مرَّ بالبلد الواحد أكثر من رحالة في أكثر من زمن وكان لكل منهم عين ومنهج، فكانت الصورة المنقولة تتمتع بقدر معقول من الشمول، وهذا كله بخلاف ما ضاع من تراثنا في هذا الجانب.

وأقدم من نعرفه ممن سجل رحلته إلى بلاد الروم هو "ابن فضلان" الذي ذهب رسولاً من الخليفة المقتدر إلى ملك الصقالبة بطلب من هذا الأخير، فقد طلب من يعرفهم الإسلام ووعد بأن يبني مسجدًا كبيرًا ومنبرًا لدعوة قومه .

وشملت رحلات المسعودي حديثه عن بحر الروم – الذي صرح أنه ركبه – وما يقع عليه من البلاد الرومية، وكانت له محاورات مع المجاهدين البحريين والتجار الذين يقطعون البحر وسجل عنهم معلومات عن البحر ومعالمه (٢٩٦).

وشملت رحلة ابن حوقل – وكانت في منتصف القرن الرابع الهجري – نابولي وصقلية، وكانت

---

٢٩٥ - تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس - د خليل إبراهيم السامرائي - د عبد الواحد ذنون طه - د ناطق صالح مصلوب – ج١/٣٢٥-٣٢٧ - الناشر: دار الكتاب الجديد المتحدة - بيروت، لبنان - الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠ م.

٢٩٦ - مروج الذهب - المسعودي: ج١/١٠٨، ١١٨ وما بعدها (ط دار الفكر).

صقلية تحت حكم المسلمين حينئذ، ووصف كثيرًا من مشاهد وجزر بحر الروم وأحوال بعض أهلها، وسجل ما سمعه من ذوي الأعمار والترحال في بلاد الروم (٢٩٧)

وشملت رحلة ابن جبير الأندلسي – وكانت في أواخر القرن السادس الهجري – عكا وصورًا، وكانتا تحت حكم الصليبيين، وصقلية وكانت تحت حكم النورمان (٢٩٨)

ورحلة الهروي ، وهو: أبو الحسن على بن أبى بكر بن على الهروى، رحالة، مؤرخ، أصله من هراة، ومولده بالموصل، طاف البلاد وتوفى بحلب سنة ٦١١ هـ، وكان له فيها رباط.

قال المنذرى: «كان يكتب على الحيطان، وقلما يخلو موضع مشهور من مدينة أو غيرها إلا وفيه خطه، حتى ذكر بعض رؤساء الغزاة البحرية أنهم دخلوا فى البحر المالح إلى موضع وجدوا فى بره حائطا وعليه خطه».

وقد عرف بالسائح الهروى، لأنه قضى حياته مرتحلا فى أنحاء المشرق والمغرب الإسلامى، وفى الهند ومصر وغيرهما، وفى ذلك يقول ابن خلكان: «إنه لم يترك برّا ولا بحرا ولا سهلا ولا جبلا من الأماكن التى يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه فى حائطه، ولقد شاهدت ذلك فى البلاد التى رأيتها مع كثرتها».

من كتبه: «الخطب الهروية» و «التذكرة الهروية فى الحيل الحربية» وكتاب «رحلته» و «الإشارات إلى معرفة الزيارات» وهو الذي نقدم له اليوم.

وقد سجل الهروى فى كتابه «الإشارات» بعضا من الشئون المتصلة به، فتراه فى فلسطين سنة ٥٦٩ هـ، يزور القدس والخليل وغيرهما، ويصل إلى ثغر عسقلان فى العام التالى.

وفى العام نفسه كان فى الإسكندرية يسمع الحديث عن السلفى، ويتجول فى الديار المصرية حتى أسوان، ويحل عام ٥٧٢ هـ وهو لا يزال فى مصر. (٢٩٩) ، وغير ذلك من الرحالة ، كابن بطوطة والإدريسي وغيرهما .

الرحلات الجماعية :

أبرز ما في الرحلات الجماعية: الرحلات التجارية وحركات النزوح واللجوء، ولقد كانت هذه الرحلات الجماعية أنشط وأكبر مساحات الاحتكاك بالغرب والمعرفة به لكثرة أهلها، إلا أن أخبارها لم تُسجل بل كانت قيمتها وقتية.

فبرغم أن حركة التجارة هي الحركة الأوسع في التعرف على الغرب، وبرغم أن التجار هم من أنشط فئات الناس وأذكاهم، إلا أن التجار ليست لهم سجلات يدونون فيها معارفهم، بل حظهم من الحياة ما يقيم تجارتهم، فعلمهم مقصور عليهم وعلى أزمانهم ولا يفيد الناس منه كثيرًا، اللهم إلا من كان منهم مهتمًا بالعلم أو له باع فيه.

---

٢٩٧ - صورة الأرض- ابن حوقل: ج١/١١٨ وما بعدها، ١٩٠ وما بعدها. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، ١٩٧٩.

٢٩٨ - رحلة ابن جبير- ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (المتوفى: ٦١٤هـ) : ص٢٦٩ وما بعدها، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت.

٢٩٩ - الإشارات إلى معرفة الزيارات - علي بن أبي بكر بن علي الهروي، أبو الحسن (المتوفى: ٦١١هـ) ج١/٥ وما بعدها. الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة- الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

وقد كان التجار المسلمون من النشاط بحيث فاق كثيرًا نشاط غيرهم، فحتى عام ١٩١٤م أُحصيت ٢٠٠ قطعة من العملة البيزنطية في السويد مقابل ٣٨٠٠٠ قطعة من العملة العربية عُثر عليها هناك ، ولقد أنعشت حركة التجارة حركة الترجمة حتى لقد كان العثمانيون يأخذون ضريبة على المترجمين تسمى "ترجمانية" . ومن حسن الحظ أن الزمن قد حفظ لنا قطعًا مهمة من تراث بعض التجار، مثل إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي، وهو تاجر أندلسي كان يعمل في جلب الرقيق الأبيض من أوروبا إلى الأندلس، وله كتاب مفقود لم يبق منه إلا ما نقله عنه مؤلفون آخرون كالبكري في المسالك والممالك والحميري في الروض المعطار، وما بقي من رحلته يفيدنا في أنه ذهب إلى ألمانيا وبلاد الصقالبة ووصل حتى شرق أوروبا وعبر البحر الأدرياتي وزار براج والتقى بالملك أوتو الكبير – إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة – والتقى عنده بسفراء من ملك البلغار، وفي ألمانيا التقى بتجار عرب قادمين من بلاد المجر يحملون الدقيق والقصدير والفراء، وزار كذلك بلاد الخزر، ويشير الدكتور حسين مؤنس إلى معلومة بالغة الأهمية في سياقنا هذا، وهي أن الطرطوشي لم يذكر أن أهل بلاد الخزر في ذلك الوقت كانوا يهودًا برغم أن كتّاب اليهود يطيلون الحديث عن دخول الخزر في اليهودية وانتشارها فيهم حينئذ، وقد انتفع المستشرقون بهذه القطعة ذات الأهمية الكبيرة في تاريخ الروس القدامى وأحوالهم، وهي من أهم ما وُجِد في المصادر الإسلامية عن وسط أوروبا وشرقها، ويتوقع برنارد لويس أن رحلته كانت من الأندلس إلى فرنسا ثم هولندا ثم شمال ألمانيا وبوهيميا وبولندا، وأن عودته ربما كانت عن طريق شمال إيطاليا وفيما نزعم فإن حركة المهجرين هي ثاني أوسع الحركات في التعرف على الغرب بعد حركة التجارة، وكثيرًا ما أسفرت الحروب المستمرة على أطراف العالم الإسلامي وفي أعماقه أحيانًا عن حركات نزوح واسعة بفعل مذابح الروم أو استيلائهم على البلد، ثم لقد ألقت الأندلس إلى المغرب بطوفان من أبنائها خلال أربعة قرون منذ بدأ تساقط حواضر الأندلس، وحتى الموجة الكبرى مع سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش ثم قرار الطرد والتهجير، كذلك فقد ألقت كافة الأراضي التي كانت تحت سلطان العثمانيين إلى ما جاورها من بلاد المسلمين طوفانًا أكبر عبر ثلاثة قرون منذ بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة العثمانية وتتساقط حواضرها أمام الروس أو الأوروبيين، وقد عانى المسلمون مثلما عانى إخوانهم قبلهم في الأندلس من المذابح وعمليات الإبادة ومحاكم تفتيش جديدة. ولم يكن المهجّرون في هذه الأحوال من المسلمين فحسب، بل كثيرًا ما استقبلت الدولة العثمانية الهاربين من الاضطهاد الديني الأوروبي، وقد فرَّ كثير من يهود الأندلس إلى الدولة العثمانية، كما فرَّ كثير من المسيحيين البروتستانت والموحدين إلى الدولة العثمانية، كذلك فرَّ القوزاق من اضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إلى الدولة العثمانية أيضًا . إلا أن المهاجرين –كالتجار– لا يسجلون لنا معارفهم سوى من كان منهم من أهل العلم، بل سوى من يهتم بمثل هذا من أهل العلم، غير أن كل هذه الحركة مثلت – في وقتها – إضافات ضخمة للعالم الإسلامي عن الغرب وأحواله ولغاته وثقافته. ومما يمكن إدراجه في الرحلات الجماعية كذلك: رحلات الغربيين للحج إلى بيت المقدس، وقد كانت هذه مزية للتعرف عليهم وليس للغربيين مثلها، إذ ليس في بلادهم ما يحج إليه المسلمون، وقد تمتعت ديار المسلمين بالأمن وحماية الأماكن المقدسة والإحسان إلى عموم الذميين والمستأمنين؛ مما جعل رحلة حجهم إلى بيت المقدس رحلة آمنة وحدثًا يتمتع بالاستقرار في غالب الأحوال، وهو حدث مستمر لا ينقطع بسلم أو بحرب، فمن هنا كانت رحلة الحج مصدرًا متجددًا من مصادر معرفة المسلمين بأهل الغرب.(٣٠٠).

---

٣٠٠ - مقالات:الرحلات الإسلامية المُبكرة إلى الغرب للمؤرخ /محمد إلهامي ،
http://melhamy.blogspot.com/2014/12/blog-post_31.html
http://www.noonpost.net/content/4869

المبحث التاسع

الاحتكاك في الحروب الصليبية وأثر ذلك في نقل الثقافة الإسلامية إلى الغرب .

تعرض العالم الإسلامي في أواخر القرن الحادي عشر لحملات صليبية أخفقت في فرض السيطرة العسكرية على المناطق المقدسة، وأفرزت نتائج مهمة على المستوى الحضاري. فما المقصود بالحروب الصليبية؟ وما هي مظاهر الاحتكاك الحضاري بين المسلمين والمسيحيين؟

تعددت الحملات الصليبية وتنوعت أسبابها:

نفذ الصليبيون ثمانية حملات:

انطلقت الحملات الصليبية من أوربا، ابتداء من سنة ١٠٩٥ م، بدعوة من البابا اوربانوس الثاني..وقد تمكن المسيحيون من تكوين إمارة أنطاكية والرها والقدس وطرابلس... خلال الحملة الأولى،غير أن عماد الدين زنكي تمكن من استرجاع الرها وحلب، وفشلت الحملة الثانية بانتصار صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين سنة ١١٨٧ م والتي أسفرت عن استرجاع إمارة القدس، واقتصرت الحملة الثالثة على احتلال عكا والحصول على تسهيلات تجارية، بنما فشلت باقي الحملات، وتوقفت الحروب الصليبية سنة 1291باسترجاع المماليك لأنطاكية وعكا.

٢ - تميزت أسباب الحملات الصليبية بالتعدد :

تتمثل هذه الدوافع في التدهور السياسي الذي عرفه الشرق الإسلامي بفعل انقسام دولة سلاجقة الروم بعد وفاة ملكشاه الأول سنة ١٠٩٢، والعداوة القائمة بين السلاجقة والفاطميين. وفي رغبة المسيحيين في احتلال المناطق

المقدسة ودعم الإمبراطورية البيزنطية، والقضاء على الاضطرابات داخل أوربا، والاستحواذ على الطرق التجارية، والسيطرة على ثروات العالم الإسلامي.

- **ساهمت المواجهة في الاحتكاك الحضاري**
- **شكلت معركة حطين ابرز أحداث المواجهة**

دارت معركة حطين بين جيوش صلاح الدين والفرنجة سنة ١١٨٧ م. وقد استطاع المسلمون خلال هذه المعركة من إلحاق هزيمة نكراء بالمسيحيين، الأمر الذي أدى إلى تقلص مساحة الإمارات التابعة لهم بالمشرق الإسلامي، وبذلك تحولت الحملات الصليبية إلى حروب تجارية.

٣ - تعددت أوجه الاحتكاك الحضاري

ساهمت الحروب الصليبية في الاحتكاك الحضاري بين المسلمين والمسيحيين، حيث تأثر الأوربيون باللغة العربية التي اخذوا عنها العديد من الكلمات كما يظهر التأثير العربي بوضوح في الميدان العمراني.

امتدت الحروب الصليبية زهاء قرنين من الزمن، تطورت من صراع عسكري إلى احتكاك حضاري، أخذت بموجبه أوربا العديد من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية.(٣٠١)

وقد أثر ذلك في نقل الثقافة الإسلامية إلى الغرب .حيث انتشار الاسلام والثقافه العربيه الإسلامية في المغرب من الفتح الإسلامي حتي نهايه القرن الثاني الهجري.

لقد غلبت على بلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي المعتقدات البدائية ، مثل عبادة النار والنجوم والكواكب وعبادة الأصنام والأوثان والاعتقاد الكبير في السحر ، وعلى الرغم من وجود المسيحية واليهودية إلا أن انتشارهما كان محدوداً وعانت المسيحية خاصة ضعفاً شديداً لدى معتنقيها إبان هذه الفترة ومن ثم كانت بلاد المغرب مهيئة لانتشار الإسلام بها لاسيما وأن الإسلام امتاز بالبساطة والوضوح والتناسب مع عقلية البربر السكان الأصليين للبلاد.

دخلت الدعوة الإسلامية للمغرب مع القوات الفاتحة إبان مرحلة الفتح ، وعلى الرغم من طول هذه المرحلة والصعوبات العديدة التي واجهت العرب خلالها إلا أن الدعوة الإسلامية حققت انتشاراً ملحوظاً إبان هذه المرحلة فقد اعتنق الإسلام الكثير من القبائل وشارك البربر في الجيش الإسلامي الفاتح ، وشاركوا في بناء مدينة القيروان وسكنوها مع العرب وأفادوا من الصحابة والتابعين الذين قطنوها ، وكان مسلمو البربر هم عصب الجيش الفاتح للأندلس بقيادة القائد المغرب الأصل طارق بن زياد ، ونتيجة لظروف عملية الفتح فقد تفاوت الإسلام في انتشاره ما بين منطقة لأخرى إبان هذه المرحلة فينما كان انتشاراً فاعلاً في المغرب الأدنى وولاية إفريقية بسبب اتصال الدعوة في هذه المناطق واستقرار العرب الباكر فيها كان انتشاراً سطحياً بين الكثير من قبائل المغربين الأوسط والأقصى وإن لم تعدم هذه المناطق قبائل رسخ الإسلام لديها بفضل اشتراكهم في الجيش ووقف المعلمين عليهم ليفقهوهم في الدين.

وازداد انتشار الإسلام في المغرب إبان عصر الولاة خاصة مع الحملة المنظمة التي نظمها إسماعيل بن عبيد الله والى عمر بن عبد العزيز على المغرب (١٠٠هـ/ ٧١٩م – ١٠١هـ/ ٧٢٠ م) والتى أسفرت عن اعتناق الكثير من القبائل للإسلام ، وأسهم في هذا النجاح للدعوة الدور الكبير الذي قام به التابعون والدعاة وكذلك تدفق العرب على البلاد وسكناهما المدن واختلاطهم بالسكان الأصليين للمغرب ، والتجارة ، ورحلة الحج

والتزاوج بين العرب والبربر وخروج أبناء القبائل لطلب العلم في الشرق وما تبع ذلك من نتائج ، وكان العنصر الحاسم في نشر الإسلام بين جماهير البربر إبان هذه المرحلة هو الدور المميز لأصحاب الفرق على اختلافها فقد انبث هؤلاء بين القبائل ينشرون الإسلام ويفقهون البربر فيه على مذاهبهم.

وأسهمت كذلك الدول المستقلة التي قامت في المغرب في نشر الإسلام وتفقيه البربر فيه على نحو جيد فقد ترتب على قيام هذه الدول حاله من الاستقرار في المناطق التي قامت فيها ، وأقيمت المدن الإسلامية في نواحيها وازدهرت الحياة الدينية واختلط العرب والمسلمون بالبربر في مناحي الاختلاط المختلفة وترتب على ذلك تفقه البربر في الدين ولم ينته القرن الثاني إلا وقد انتشر الإسلام بين غالبية سكان المغرب ولم يبق بعيداً عن الإسلام إلا بعض المناطق المنعزلة أو القلة التي بقيت على

٣٠١ - مقال بعنوان : الحروب الصليبية: المواجهة واحتكاك الحضارات
/https://jamaldine.wordpress.com/2011/06/06

معتقداتها القديمة.

وصاحب انتشار الإسلام في المغرب إبان الفترة موضع الدراسة انتشار الثقافة العربية لكن انتشارها لم يواكب انتشار الإسلام في السرعة إذ أن الثقافة تحتاج فترة أطول . على أى حال انتشرت الثقافة العربية فى بعض جوانبها خلال مرحلة الفتح بين البربر المخالطين للعرب سواء فى المدن أو عن طرق الجيش وغير ذلك من مناحي الاختلاط وأجاد الكثير من البربر اللغة العربية ووجد من يخطب بها ويقول الشعر الجيد ، وهناك من عُرِّب تعريباً تاماً خاصة السبى سواء الذى ظل فى المغرب أو نقل للشرق والذى عاد بعضه مرة أخرى للمغرب ليسهم فى نشر الثقافة العربية بين ذويه . ولأن العرب تركزوا فى ولاية إفريقية فقد كان شان الثقافة العربية ولغتها بها أفضل من المغربين الأوسط والأقصى وعلى الرغم من انتشار اللغة العربية وشيء من ثقافتها بين الكثير من البربر إلا أن اللغة البربرية ظلت عالية الشان بين غالبية سكان المغرب بوصفها لغة أهل البلد وقد احتفظ بها الكثير من البربر الذين أجادوا العربية وهذا أمر طبيعى لا يقلل من شأن اللغة العربية التى كان يمكن لها يوم بعد يوم بوصفها لغة القرآن ولغة العرب الفاتحين .

وتواصل انتشار الثقافة العربية الإسلامية فى المغرب خلال عصر الولاة خاصة مع ازدياد المقبلين على الإسلام وتدفق العرب على البلاد وازدياد مخالتطهم للبربر وازدهار المدن الإسلامية ثقافياً مثل القيروان وتونس وغيرها وكذلك الازدهار الثقافى الذى اسهم فيه أصحاب الفرق على اختلافهم واستمر انتشار الثقافة العربية ولغتها من خلال الدول المستقلة خاصة الدولة الأغلبية والدولة الإدريسية ودولة بنى صالح فى نكور وكذلك الدولة الرستمية والمدرارية وكان أقل هذه الدول إسهاماً فى هذا المجال دولة براغواطة فى تامسنا والتى اصطبغت بصبغة محلية بربرية.

وعلى الرغم من انتشار الثقافة العربية بشكل ملحوظ إبان القرنيين الأول والثانى للهجرة إلا أن هذا الانتشار كان فاعلاً ومؤثراً فى المدن والمناطق التى اختلط فيها العرب والبربر بينما كان انتشاراً ضعيفاً فى المناطق الصحراوية وبين القبائل البعيدة عن التجمعات العربية (٣٠٢)".

أهم المراكز العلمية في بلاد المغرب التي أثرت بشكل واضح في عبور الثقافة الإسلامية إلى الغرب : قرطبة– إشبيلية– سرقسطة.

٣٠٢ - مركز النظم العالمية – خدمات البحث العلمي - محمد علي محمد عبد الرحمن عين شمس الآداب تاريخ ماجستير ٢٠٠٣. موقع : http://www.alnodom.com/

المبحث العاشر
قرطبة الإسلامية (عصر الولاة)

فتح المسلمون الأمويون قرطبة على يد القائد مغيث الرومي مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك في سنة ٩٢ هـ/ ٧١٠ م، بعد أن عبر بقواته إلى (أيبيريا)التي سماها المسلمون ببلاد الأندلس وقتل ملكها لذريق رودريك.وقد جعل الأمويون الأندلس ولاية تابعة لولاية المغرب، حتى جعلها عمر بن عبد العزيز ولاية الأندلس تتبع للعاصمة الأموية في دمشق بشكل مباشر. وجعل الأمويون قرطبة مقراً لولاتهم على الأندلس فظلت كذلك حتى سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين عام ٧٥٠ م.(٣٠٣)

العصر الأموي

و لكن لم يعل شأن قرطبة إلا مع قدوم الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس فاراً من العباسيين، فاستولى على مقاليد الأمور في الأندلس الإسلامية وجعل قرطبة عاصمة له عام ٧٥٦ م. وقد كان هذا بداية لعصر قرطبة الذهبي، حيث أصبحت عاصمة الأندلس الإسلامية بأكملها وأهم مدينة في شبه الجزيرة، وفي عهد الداخل بدأ العمل على جامع قرطبة الكبير الذي لا زال قائماً في المدينة اليوم. واستمر الحكم بيد الأمويين من سلالة عبد الرحمن الداخل في هذه الفترة.

مسجد قرطبة

و قد تعرضت الدولة الأموية لعدد من الثورات المتعاقبة وفقد أمراؤها مقاليد الأمور حتى تمكن أحد أحفاد الداخل، عبد الرحمن الثالث الملقّب بالناصر، من إعادة توطيد ملك الأمويين وإخضاع معظم الأندلس لسلطته في قرطبة، وذلك في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري). وقد بلغت به القوة إلى أن اتخذ لنفسه لقب خليفة المسلمين، مستنداً إلى ما اعتبره حق أسرته القديم في الخلافة السابق لحق بني العباس .وقام الناصر بنقل حكومته إلى مدينة جديدة اختطها على بعد أميال من قرطبة أسماها الزهراء، إلا أن قرطبة ظلت المدينة الرئيسية في البلاد. بعد أحداث وقعة الربض وصلت المدينة لأوج مجدها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر(961 - 912) ، وابنه الحكم الثاني(976- 961) ، ثم تلاهم الحاجب المنصور بن أبي عامر(1002- 981) ، الذي استولى على مقاليد السلطة في قرطبة وصيّر الخليفة الأموي سجيناً في قصوره في الزهراء وابتنى له قصراً للحكم في طرف قرطبة أسماه بالمدينة الزاهرة .وقد كانت دولة قرطبة من أهم الدول الأوروبية في القرن العاشر، كما كانت منارة للعلم والثقافة في أوروبا، وعاصمة من عواصم الأدب والثقافة العربية والإسلامية، وأنجبت المدينة في هذه الفترة الشاعرابن زيدون، والشاعرة الأموية ولادة بنت المستكفي، والفقيه ابن حزم، والعالم عباس بن فرناس، كما أنتقل إليها الموسيقي زرياب وأسس دار المدنيات.

عصر ملوك الطوائف والمرابطين

في العقدين1020 ، 1030 سقطت الخلافة بسبب ثورة البربر ونشوء ملوك الطوائف الذين قسموا الدولة إلى أكثر من ١٢ دويلة. منها غرناطة وإشبيلية والمرية وبلنسية وطليطلة وسرقسطة والبرازين وبطليوس .وتنازع حكام إشبيلية وطليطلة المسلمين على قرطبة حتى استقرت المدينة بيد

٣٠٣ - موقع : https://ar.wikipedia.org/wiki

ملك إشبيلية الطموح المعتمد بن عباد سنة ١٠٧٨ م، ففقدت قرطبة مكانتها كعاصمة لدولة، وبزغ نجم إشبيلية المجاورة لها بدلاً منها.

وبينما ورثت تلك دويلات الطوائف ثراء الخلافة، إلا أن عدم استقرار الحكم فيها والتناحر المستمر بين بعضها البعض جعل منهم فريسة لمسيحيي الشمال. إلى أن أفتى الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس ليوسف بن تاشفين، زعيم دولة المرابطين في المغرب العربي بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم وصارت إليه بذلك فتاوى أهل الشرق الأعلام مثل : الغزالي والطرطوشي فاقتحم عامة الأندلس من أيدي ملوك الطوائف وانتظمت بلاد الأندلس، بما فيها قرطبة، في مملكة يوسف بن تاشفين، وذلك عام ١٠٩١ م.(٣٠٤)

عصر الموحدين :

وسقطت دولة المرابطين على يد حركة إسلامية أخرى هي حركة الموحدين، فصارت قرطبة وباقي الأندلس الإسلامية بأيديهم في منتصف القرن الثاني عشر. وقام الموحدون بإعادة عاصمة الأندلس إلى قرطبة، فاستعادت شيئاً من مكانتها السابقة. وفي هذه الفترة ظهر في قرطبة الفيلسوف المسلم ابن رشد، بالإضافة إلى العالم الديني اليهودي ابن ميمون، أشهر فلاسفة اليهودية في العصور الوسطى.

و لم يصمد الموحدون طويلاً بعد ذلك، فقد انهزموا هزيمة قاصمة في معركة العقاب (لوس ناباس دي تولوزا بالإسبانية) عام ١٢١٢ م، فتهاوت بعد ذلك معظم المدن الإسلامية في الأندلس في أيدي مملكة قشتالة المسيحية، فسقطت قرطبة عام ١٢٣٦ م على يد فرناندو الثالث بعد ما يزيد على خمسة قرون من الحكم الإسلامي للمدينة.

قرطبة الإسبانية :

فرغت قرطبة سريعاً بعد ذلك من معظم سكانها المسلمين، وسمح الملوك الإسبان لمن تبقى منهم بالبقاء على الإسلام بعد استيلائهم على المدينة، أسوة بباقي المسلمين في الأندلس، واستخدموا العمال والمهندسين المسلمين في تصميم مباني وقصور وكنائس لهم على الطراز الأندلسي، وسمي المسلمون الباقون تحت حكم الإسبان بالمدجنين ("مديخار" بالإسبانية)، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ بدأوا بعد ذلك بالتضييق عليهم ثم إجبارهم على اعتناق المسيحية من خلال محاكم التفتيش، التي استخدمت أنواع التعذيب والقتل حتى البعض منهم يخشى يكتشف إسلامه حتى لا يقتل إلى أن قرّرت إسبانيا طرد المسلمين وأحفادهم ممن اعتنق المسيحية من سائر البلاد، كما تم طرد اليهود منها أيضاً، وذلك في بداية القرن السابع عشر، وتم توزيع الأراضي والإقطاعيات على مهاجرين مسيحيين من الشمال أعادوا توطين المدن مثل قرطبة.

و لا يزال الحيّان الإسلامي واليهودي القديمان معروفين في قرطبة الحالية، كما بقي مسجدها الضخم قائماً في وسطها، إلا أنه تم بناء كنيسة في قلب المسجد في القرن السادس عشر، ويستخدم الجامع الآن ككاتدرائية تتبع الكنيسة الكاثوليكية .وقد جعلت اليونيسكو وسط مدينة قرطبة (أي الحي القديم بما فيه المسجد والحي اليهودي) موقعاً من مواقع التراث العالمي، بالإضافة إلى مدينة الزهراء المجاورة لقرطبة.

---

٣٠٤ - موقع : https://ar.wikipedia.org/wiki

وقد مرت جنوب إسبانيا ("أندلسيا" كما أسماها الإسبان) بفترة من الانحدار الاقتصادي والثقافي بعد ذلك مقارنة بباقي إسبانيا، وازدهرت إشبيلية على حساب قرطبة بسبب استخدامها كميناء يربط إسبانيا بالعالم الجديد، إلا أن المنطقة بأسرها باتت تعيش رخاء اقتصادياً في الوقت الحالي بفعل تنشيط السياحة وإنشاء منطقة أندلسيا ذات الحكم الذاتي. وتشكّل قرطبة مقر محافظة قرطبة داخل هذه المنطقة، وسكانها يتجاوزون الثلاثمائة ألف نسمة (٣٠٥).

أهم معالم قرطبة الإسلامية

مسجدها الجامع من أجمل ما أبدعه المسلمون في الأندلس، وقد صنفه اليونسكو كموقع تراث عالمي.

مدينة الزهراء التي أنشأها عبد الرحمن الناصر باسم زوجته. وقد احترقت تماماً خلال ثورة البربر عام .1020 ويجري حاليا ترميمها، إلا أن مجرّد ١٠٪ فقط من إجمالي مساحتها قد تم التنقيب عنه حتى الآن. وتقع في قلبه دار الروضة، وهي قصر "عبد الرحمن الناصر"، وجلب إليه الماء من الجبل.

الحمامات العربية :

الحي اليهودي بقرطبة، وتسمى في الإسبانية بالخوديريا أي "مكان اليهود"، رغم أن اليهود قد طردوا من قرطبة منذ القرن السابع عشر.

قلعة "كالاهورا"، وهي قلعة إسلامية تقع على الجانب الآخر (الجنوبي) للوادي الكبير عند نهاية الجسر الروماني، أجرى عليها الملوك الإسبان إضافات فيما بعد، وتحوي الآن متحفاً.

بقايا أسوار المدينة وبعض بواباتها، خصوصاً في الجانب الغربي.

الناعورة، وتقع بجوار الجسر الروماني.(٣٠٦)

الثقافة الإسلامية في قرطبة :

في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كانت قرطبة اعظم المدن الثقافية في اوربا، فقد حوت خزانة الخليفة ما يزيد على الاربعمائة ألف. وأقبل الأسبان على اللغة العربية والترجمة منها إلى اللاتينية، وكانت الأندلس المركز الرئيسي لحركة الترجمة(٣٠٧)

إشبيلية :

إشبيلية هذه هي حاضرة الأندلس في وقتنا هذا، وهي التي تسمى عندهم في قديم الزمان حمص؛ سميت بذلك لنزول أجناد حمص إياها حين افتتح المسلمون الأندلس.

وقد زاد أمر هذه المدينة على صفة كل واصف، وأتى فوق نعت كل ناعت؛ وهي على شاطئ نهر عظيم ينصب من جبل شَقُورة؛ وتنصب فيه أنهار كثيرة، فلا يصل إلى إشبيلية إلا وهو بحر خِضَم؛

---

٣٠٥ - موقع : https://ar.wikipedia.org/wiki

٣٠٦ - موقع : https://ar.wikipedia.org/wiki

٣٠٧ - موقع : http://www.alyaum.com/article/1105706

تصعد فيه السفن الكبار من البحر الأعظم، تُرسى على باب المدينة، بينها وبين البحر الأعظم سبعون ميلًا، وذلك مرحلتان.

وهذه المدينة كانت قاعدة ملك بني عباد حسبما تقدم، ثم صيرها المصامدة منزلًا لهم أيام كونهم بالأندلس؛ منها ينفذ أمرهم، وفيها يستقر ملكهم. وبنوا بها قصورًا عظيمة، وأجروا فيها المياه، وغرسوا البساتين؛ فزاد ذلك في حسن هذه المدينة، أعني إشبيلية.(٣٠٨)

تاثير الثقافة الاسلامية في تطور الحضارة الغربية

لا خلاف في ان الحضارة هي مجموعة من تلاقح ثقافات وانتاجات شعوب مختلفة وما احرزه الانسان من تقدم في مختلف العلوم والآداب والثقافات والنشاطات التي مارسها الانسان على مدى التاريخ والتي تقدمت بشكل اكبر كلما تقدمت الوسائل الحاملة لها، فمن الوسائل البدائية الى التقنيات المتطورة الى ما توصل اليه العقل البشري المعاصر.

واذا كان التقدم الحضاري في الجانب المادي اوسع واكبر من الجانب المعنوي والاخلاقي والذي كان له الاثر الواضح في ذلك فاننا نحاول في هذا الموضوع ان نبحث ما اخذته الحضارة الغربية من علوم وثقافة عن المسلمين كان لها الاثر الكبير في تقدم الغرب الذي كان يعيش في ظلام وظلمات كما هم يعترفون بذلك كقول الباحثة الالمانية «زيفريد هونكه» «ان العرب (أي المسلمون) طوروا بتجاربهم وابحاثهم العلمية وما اخذوه من مادة خام عن الاغريق وشكلوه تشكيلا جديدا فهم في الواقع الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي الحق القائم على التجربة...فعندهم فقط بدا البحث الدائب الذي يمكن الاعتماد عليه يتدرج من الجزئيات الى الكليات...وعلى هذا الاساس ساروا في العلوم الطبيعية شوطا كبيرا اثر فيما بعد بطريق غير مباشر على مفكري الغرب وعلمائه امثال روجر باكون وماكنوس وقيتليو ودافنشي.ان العرب [المسلمين] هم مؤسسوا الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والمثلثات وعلم الاجتماع وبالإضافة الى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات في مختلف فروع العلوم والتي سرق اكثرها ونسب لآخرين. قدم العرب [المسلمون] اثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت امام الغرب طريقة لمعرفة اسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم»

وكان الغرب قد ابتهر بنتاجات علماء المسلمين الذين برعوا في مختلف العلوم كالمقدسي في الجغرافية في كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) وهو كتاب شامل، والبلخي والادريسي صاحب كتاب (نزهة المشتاق) الذي اشار الى كروية الارض وكذلك ابن حوقل وغيرهم امثال ابن جبير وابن بطوطة والهروي وكذا فلاسفة المسلمين ومؤلفاتهم التي شغلت الغرب حتى يومنا هذا كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وملاصدرا وغيرهم، وكذلك ابن خلدون في الاجتماع فضلا عن جابر بن حيان عالم الجبر والكيمياء ومحمد بن موسى الخوارزمي الذي تعمق بدراسة الجبر وابن الهيثم الذي برع في الفيزياء وعلم البصريات وعارض اقليدس وبطليموس بزعمهما ان العين ترسل اشعاعات الى الشيء المنظور فتمكن من رؤيته واصر ابن الهيثم ان عملية الرؤية تحدث عندما يرسل

---

٣٠٨ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين - عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، محيي الدين (المتوفى: ٦٤٧هـ)ج٢٦٨/١ - المحقق: الدكتور صلاح الدين الهواري - الناشر: المكتبة العصرية، صيداـبيروت - الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

المنظور اشعاعات تدخل العين والتي يرجع اكتشاف آلة التصوير الى فرضياته وتجاربه. **(٣٠٩)**

لقد برع المسلمون كذلك في الصيدلة والطب وتحضير الحوامض امثال الرازي والزهراوي الذي اشتهر بالجراحة وابن النفيس مكتشف الدورة الدموية.ويقول المؤلف الامريكي المعاصر ول ديورانت «ان العلوم العربية [الاسلامية] تمت في علم الكيمياء الطريقة العلمية التجريبية وهي اهم ادوات العقل الحديث واعظم مفاخره ولما اعلن روجر بيكن هذه الطريقة الى اوروبا كان قد اعلنها جابر بن حيان قبله بخمسمائة عام وكان الذي هداه اليها هو النور الذي اضاء له السبيل عن عرب الاندلس وليس هذا الضياء نفسه الا قبسا من نور المسلمين في الشرق».

كما يشير المستشرق والمفكر الفرنسي غوستاف لوبون الى ان «بيكن» على العموم اول من اقام التجربة والترصد الذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة مقام الاستاذ ولكنه يجب ان يعترف اليوم بان ذلك من عمل العرب وحدهم وقد ابدى هذا الراي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب»

ونحن الآن حينما نلمح الغرب وحضارته التي شيدها لم تكن صنيعته لوحده بل هي حصيلة حضارات متعاقبة على مر العصور.. فالمسلمون الذين فتحوا نصف العالم كما يحدثنا التاريخ قد ملكوا جميع علوم اليونانيين حتى قيل كان في بغداد نحو مائة مترجم ينقلون كتب اليونان الى اللغة العربية والسريانية..لكن بعد ثلاثة قرون اصبحت طليطلة في اسبانيا مركزا لترجمة الكتب العربية الى اللاتينية حيث اضاف العرب لهذه العلوم الكثير من اكتشافاتهم وتجاربهم العلمية الخاصة

وحينما نتمعن في تاريخ الحضارة نجد ان حضارة المسلمين كانت الحضارة المعتمدة وعلومهم كانت هي السائدة وبشهادة الغربيين انفسهم فهذا ارنست‌بانرث المستشرق الالماني يقول «لا شك ان الحضارة الاسلامية ارتفعت في القرون الوسطى الى علوم لم ينته اليها قوم آخرون.ولا يخفى ان هذا الاعتلاء كان ثمرة الاجتهاد في كل نواحي الثقافة وتطبيق الطرق العلمية» ، ثم يؤكد كلامه في اقتباس الاوروبيين لهذه الثقافة وتمسكهم بها لتحقيق مآربهم فيقول «قامت ريح جديدة تهب على اوروبا حيث ان الاوروبيين قد عرفوا ان طرق العرب العلمية كانت انسب لمعرفة الحق من التقاليد الصرف الذي كانوا متعودين عليه منذ قرون» .ثم يعود بانرث ليقول «واول من قلد العرب في التجربة الراهب – روجر بيكون – في انكلترا، وحتى الآن يشكر علماء الطبيعة في اوروبا العرب على ادخال طريقة التجربة العلمية التي دلت على التطور والحديث في جميع الميادين. «ويقول عالم آخر وهو الباحث الامريكي ميلر بروز «في العصر الذهبي للثقافة الاسلامية كان علماء المسلمين يضعون اسس العلم الحديث».

لقد كانت ثقافة الاسلام وحضارته علامة مضيئة في تاريخ الحضارات وقد افردت لها المجلدات الكبيرة والكثيرة، ولعل الآلاف من المصطلحات والمفردات العربية والاسلامية والقرآنية استقرت في بحوث وثقافات العرب دون اي ريب او شك. وكان للثقافة الاسلامية التي كانت اللغة العربية واعتلاء حضارتها هذه الصورة التي نراها الآن. ولم يكن هذا سرا بل حقيقة واضحة كما يقول العالم الامريكي جورج سارتون «لقد مكننا علماء العرب من ان نبني لأنفسنا نحن ابناء الغرب تقاليد ثقافية هي اعلى ما ورثناه من اسلافنا في العلم» ويؤيده في ذلك المستشرق الفرنسي لويس سيديو بقوله «ظاهرة مدرسة بغداد في بدء امرها هي الروح العلمية التي كانت سائدة لأعمالها فكانت مبادئ اساتذتها تقوم على الانتقال من المعلوم الى المجهول وعلى ملاحظة الحوادث ملاحظة وثيقة لمجاوزة

---

٣٠٩ - مقال الدكتور عبد الامير سليماني ، أستاذ جامعي: http://almeseela.7olm.org/t14-topic

المعلومات الى العلل وعلى عدم التسليم بما لا يستند الى التجربة.وكان العرب في القرن التاسع الميلادي اصحابا لهذا المنهج الخصيب فاضحى بعد زمن طويل اداة بيد علماء الزمن الحديث للوصول الى اجمل اكتشافاتهم» . **(٣١٠)**

ان الحديث عن تاثير الثقافة الاسلامية قد يطول بنا ويطول اذا ما عرفنا ان الغرب كان اشبه ب (صحراء قاحلة) لم ينبت فيها اي شيء ويغطيها ظلام دامس شديد وتغلفها افكار الكنيسة المثبطة التي لا تتماشى والعلم خوفا على مقامها ومركزها في المجتمع الذي اغرته طويلا في خرافات وترهات ما انزل الله بها من سلطان، بما تمليه من كونها الرب الذي يامر وينهى ويحلل ويحرم ويوافق ويرفض حيث الحضارة الاسلامية كانت تشق طريقها وتنشر علومها وثقافتها في الاصقاع انطلاقا من مبادئها القرآنية السامية وآدابها الحميدة حيث شعارها «زكاة العلم نشره» لكنما الغرب بعد ان سيطر على بلاد الاسلام واخذ علومه وآدابه وفلسفاته وتجاربه احاله الى هشيم عن طريق محاصرته بالحكام العملاء الخونة الذي اخروا شعوبهم مئات السنين ثم حجزوا علومهم التي اخذوها عن المسلمين وطوروها واصبحت سرية لا يطلع عليها احد خوفا من اقتباسها.

ولهذا فهناك من انصفوا انفسهم ولو بالقول كما تقول الباحثة الايطالية لورا فاغليري وهي تتساءل «الم يكن العرب اول من اصطنعوا الطرائق التجريبية قبل ان يعلن بيكون ضرورتها بزمن طويل؟ وتطور الكيمياء وعلم الفلك...اليست هذه من مآثر العرب» .

كما يقول المفكر المسلم محمد اسد (ليوبولدفايس) الالماني «ان مدنية المسلمين نقلت الى اوروبا كثيرا من الاختراعات الصناعية والفنية ذات الطبيعة الثورية، واكثر من هذا مبادئ تلك الطريقة العلمية نفسها التي يرتكز عليها العلم الحديث والمدنية الحديثة. »

ويشير الجراح الفرنسي ومؤرخ الطب البروفيسور فورغ الى ان العرب «قرروا منذ البداية تقريرا صريحا المبادئ التي ينبغي ان يسير عليها العلم وعدم قبول شيء على انه حقيقة الا بعد ثبوته بالتجربة ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي اثبتوا انهم كانوا قد ملكوا الطريقة العلمية الصحيحة» .

وليس هناك شهادة باعظم من شهادة المستشرق الفرنسي كارادي نو وهو يتحدث عن الثقافة الاسلامية وحضارة الاسلام واثر هذه الحضارة العريقة على العلم والعالم باكمله وكيف انها حفظت العلوم واوجدتها حيثيقول «ان التقاليد المعرفية لثقافة الاسلام حفظت واكملت مختلف فروع العلم، وصانت روح البحث العلمي حية تائقة للتحرر والحركة.متهيئة للمكتشفات المقبلة» هذا ما جاء في كتاب تراث الاسلام لمحررين اشرف عليه توماس ارنولد تعريب جرجيس فتح الله في الصفحات ٥٦٣- ٥٦٥، والذي نشرته دار الطليعة في بيروت عام ١٩٧٢.

ولعل ما اعترف به روم لاندو وهو ينقل عن بريفو Briffault في كتابه تكوين الانسانية « Makiny of Hamanityان العلم هو اجل خدمة اسدتها الحضارة العربية الى العالم الحديث.فالاغريق قد نظموا وعمموا ووضعوا النظريات ولكن روح البحث وتركيم المعرفة اليقينية وطرائق العلم الدقيقة والملاحظة الدائبة المتطاولة كانت غريبة عن المزاج الاغريقي.وانما كان العرب هم اصحاب الفضل فيتعريف اوروبا بهذا كله وبكلمة فان العلم الاوروبي مدين بوجوده للعرب»

ان علماء الغرب ومفكريهم بعد ان وطاوا بلاد الاسلام عملوا كثيرا وكثيرا وبجدية بتفحص

---

٣١٠ - مقال الدكتور عبد الامير سليماني ، أستاذ جامعي: http://almeseela.7olm.org/t14-topic

الحضارة الاسلامية واقتباسها وترجمتها وفك معالمها..لدرجة ان الترجمة كان لها رواجا في الغرب وانتشارا وتعلم اللغة العربية آنذاك كان من نشاطات الغرب، حيث ان اللغة العالمية السائدة ولغة العلوم والآداب والجامعات وبحوث العلماء المسلمين في شتى الاصقاع هي اللغة العربية الفصحى التي تعلمها المسلمون حبا لدينهم وامتثالا لعقيدتهم في التعبد بكلام الله المجيد والتفكر بآياته وعلومه وهدايته. **(٣١١)**

وعلماء الغرب عملوا جديا في نقل العلوم ومتابعة افكار كل عالم ومفكر وفيلسوف اسلامي حتى عرفوا ما نقص من بحوث بعض العلماء المسلمين وضياع بعض البحوث والكتب والنظريات التي اندرست بسبب الهجمات البربرية والهمجية التي اجتاحت البلاد الاسلامية وكان علماء الغرب الذين اسسوا لحضارة الغرب وثقافته قد تابعوا ذلك.وقد اسفوا على عدم استيلائهم على هذه العلوم باكملها. «حيث ياسف الطبيب والمستشرق الالماني مايرهوف لضياع المجموعة الكاملة لآثار الكندي العلمية.ويقول ايضا (بصرياته) التي وصلت الينا بترجمتها اللاتينية كان لها تاثير على (روجر بيكون) وغيره من رجال العلم التجريبي».

ان النهضة العلمية في الغرب كان اساسها ووجودها قائما على الحضارة الاسلامية العريقة سواء ما اخذه الغرب من بلاد الاسلام في الشرق ونقله الكتب ومن ثم ترجمتها من العربية الى اللاتينية.وطبع اكثر هذه الكتب، لكن بعضها بقي على ترجمته لم يطبع (٣١٢) كما حدث لكتاب اندرياس الياكوس حيث ترجم ولم يطبع لكن ترجمته كانت ميسرة وفي متناول اليد.

ويذكر علماء تاريخ العلوم ان الطرق التي حصل بها علماء الغرب علومهم وثقافتهم من المسلمين كانت من خلال:

١. الوجود الاسلامي في الاندلس والذي استمر مدة ثمانية قرون من ٩٣ هجرية – ٨٩٧ هجرية، اي عام ٧١١– ١٤٩٢ ميلادي، وقد جعلت العربية لغة التدريس في جميع المعاهد هناك في عهد هشام بن عبدالرحمن.

وكان للمدرسة التي انشات في قرطبة الاثر الكبير حيث امها الطلبة ورواد العلم من مسلمين ومسيحيين من مختلف بقاع اوروبا وافريقيا وآسيا وقد حييت هذه المدرسة باستدعاء اساتذة من الشرق وكان فيها مكتبة عظيمة بلغت كتبها ٢٠٠ الف كتاب وقيل ٤٠٠ الف كتاب، وكان العرب هم الذين ادخلوا صناعة الورق الى الاندلس عام ١١٧٠ م، وبعدها انتشرت في اوروبا...بل ان اللغة العربية انتشرت في اسبانيا بشكل واسع والتي لاتزال الكثير من المصطلحات والكلمات والعبارات الاسبانية عربية عربية واصبحت اللغة العربية لغة الثقافة والتقدم لدى الاسبان حتى القرن السادس عشر الميلادي حيث كان الاسبان وغير العرب يقبلون على تعلم اللغة العربية بشكل واسع سيما اذا عرفنا ان المجتمع الاندلسي آنذاك كان يتالف من المسلمين وهم العرب الفاتحون والمهاجرون الى الاندلس والاسبان الذين اعتنقوا الاسلام وهم كثيرون فالتقطوا اللغة العربية.واولاد المسلمين ممن تزوجوا اسبانيات كذلك المستعربون وهم المعاهدون الذين لم يعتنقوا الاسلام ويسمون Mozarabesوهم عاة يسكنون المدن. وبقية السكان الذين هم يهود حيث كان للوجود الاسلامي والعربي اثر عليهم.لكن بعد استرداد اسبانيا من المسلمين وسقوط غرناطة عام ١٤٩٢ بداوا في محاربة

٣١١ - مقال الدكتور عبد الامير سليماني ، أستاذ جامعي: http://almeseela.7olm.org/t14-topic

٣١٢ - انظر متان في مجلة ابحاث الايمان ، العدد الاول، عام ١٩٩٣، ص ٩٢، موضوع: انتقال الطلب العربي الى الغرب معابره وتاثيره، د. محمود قاسم محمد.

اللغة العربية وبسبب الظلم والقتل والابادة اصبح الناس على قسمين نصارى العرب الذين تنصروا وكانوا يسمون ب (المورسيكيون Moriscus) تنصروا ظاهرا وبقوا مسلمين يمارسون شعائرهم خفية وقد ثاروا اكثر من مرة لكنهم فشلوا واجبروا عام ١٦٠٩ م على مغادرة اسبانيا فتركوا البلاد وكانوا يقدرون بنصف مليون، ذهب بعضهم الى فرنسا والاكثرية ذهبت الى شمال افريقيا وما الارقام المستعملة الآن في اوروبا بشكلها (١-٢-٣-٤-٥...) الا هي الارقام العربية التي نقلها جربرت الاوريالكي بدلا من الارقام الرومانية عام (٩٤٥ م) وهو الذي اصبح البابا سلفيستر الثاني (بين ٩٩٩- ١٠٠٢ م) اذا كان شديد الاهتمام بالثقافة العربية في الجزر البريطانية. **(٣١٣)**

وكانت مدن طليطلة واشبيلية وقرطبة تشد لها الرجال وتكثر فيها حركة الترجمة الدائبة ونقل العلوم منها الى بقية صقاع اوروبا.

كما كانت الترجمة تنقل مرة الى الاسبانية ثم منها الى لغات اخرى، كما فعل المطران ريموند عام ١١٢٠ م بعد ان جاء بعد غزو الملك الفونسو لطليطلة واحتلالها عام ١٠٨٥ م، اذ اسس فيها حركة ثقافية وترجمة حيث استدعى علماء من مختلف الاديان ليقوموا بنقل الكتب والعلوم العربية وترجمتها.ومن هؤلاء الذين قاموا بهذه المهمة «الترجمة» دومنيك جونزاليز الذي كان يدعى جنديسالفيني والذي استعان باليهود وخاصة ابن داود «حنا الاشبيلي» الذي كان ينقل الى الاسبانية فينقل جنديسالفيني منها الى اللاتينية، فترجما كتاب الشفاء لابن سينا، والمنطق وما بعد الطبيعة ومقتبسات من الطبيعيات وكتاب احصاء العلوم للفارابي ورسالة العقل والمعقول للكندي ومقاصد الفلاسفة للغزالي.وغير هؤلاء مترجمون كثيرون مثل جيرارد الكريموني ويسمى الطليطلي وكذلك teletanumاو يسمى، (١١٨٧-١١١٤ (Geradus Gremonensi(وقد قدم من ايطاليا سنة ١١٥٠ واستوطن في اسبانيا وقد ذكر انه ترجم ما يقارب المائة كتاب اذا كان بمعيته فرقة من المترجمين يعملون بتوجيهه اشهرهم غالب وهو مستعرب الذي عرف بدقة الملاحة والاختيار والكفاءة في انتخاب الكتب التي يقوم بترجمتها، كترجمة القسم الجراحي من كتاب التصريف للزهراوي وكتاب المنصوري للرازي والقانون لابن سينا وكتاب الكندي في معرفة قوى الاودية.وكتب اخرى في الطب والفلك والرياضيات والادب، كما ترجمت رسالة الرازي في طب الاطفال (الذي يعتبر اول مؤلف في طب الاطفال.) كما ترجم ماركوس (شماس طليطلة) ايضا مؤلفات جالينوس الطبية والقرآن الكريم...وهناك اعداد كبيرة من الكتب التي ترجمت من قبل مترجمين

وقد نقل بعض المؤرخين حول حركة الترجمة والجهود التي بذلت فيها، فقد ورد: «وبينما كانت اكثر بلاد اوروبا تحرص كل الحرص على آثار العرب وترفع منزلة من ينقل اليها علومهم كان رجال الدين في اسبانيا عقب جلاء العرب عنها يحرقون الكتب العربية حيث صادفوها.وظلوا خمسين سنة اي منذ ان اصدر الكاردينال كسيمنس سنة ١٥١١ م امره باحراق عشرات الالوف من كتب العرب في ساحات غرناطة.يحرقون الاسفار العربية حتى كادت تبيد مدينة العرب من تلك البلاد لولا المترجمات اللاتينية والعبرية» . وللاطلاع ذكر ان الراهب سرفيتوس الذي كان له الاثر الاكبر في نقل آراء ابن النفيس حول الدورة الدموية، حيث ترك مسقط راسه سرقسطة في اسبانيا عام ١٥١١ م، وسافر الى تولوز في فرنسا وبازل في سويسرا ثم ذهب الى باريس وعمل مع فزاليوس في اسبانيا سنة ١٥٥٣ م، الف كتابا ضخما اسمه بالعربية «اعادة المسيحية» حكم عليه بالموت حرقا بسببه وفي هذا المؤلف وصف مرور الدم من الشريان الرئوي الى الوريد الرئوي عن طريق الرئة.وجاء وصفه مشابها

٣١٣ - مقال الدكتور عبد الامير سليماني ، أستاذ جامعي: http://almeseela.7olm.org/t14-topic

لوصف ابن النفيس بحيثيكون اقتباسا منه وهنالك ادلة على معرفة سرفيتوس للعربية» **(٣١٤)**

٢. مدرسة مونيليه او كاثالونيا وقد قام بتاسيسها العرب المهاجرون والعلماء المتدفقون اليها بعد افول الاندلس في القرن الثاني عشر وزيادة التعصب الذي قصف به ملوك الاسبان حيث ترك العلماء العرب هذه المنطقة في الاندلس قاصدين مونيليه التي تشكل جزءا من فرنسا الحالية لما كانت تتصف به مونيليه من التسامح الديني، وحرية العمل الثقافي والعلمي.فكانت فيها العلوم قد انتعشت كعلوم الطب الاسلامي كذلك حركة الترجمة حيث ترجمت الكثير من الكتب العلمية والفلسفية ككتب ابن سينا والكندي وقسطا بن لوقا وابو العلاء بن زهر

٣. المدرسة العربية في صقلية وما انتجت هذه المدرسة من بحوث ودراسات وتواجد للعلماء كالادريس الذي نبغ في الجغرافيا وابن جلجل الصقلي في الطب صاحب كتاب تاريخ الاطباء والحكماء وابي سعيد بن ابراهيم المغربي صاحب كتاب المنجح في التداوي واحمد بن عبدالسلام الشريف الصقلي مؤلف كتاب الاطباء في الامراض من الفرق الى القدم.وقد تجاوز الاسقاع العلمي صقلية ووصل ايطاليا وانتشرت الثقافة العربية هناك، ومن اشهر المترجمين الذين عرفوا بفعاليتهم العلمية في الترجمة قسطنطين الافريقي ١٠٢٠ – ١٠٨٧ العربي الاصل المولود في قرطاجة في تونس واتقن العربية فضلا عن معرفته اللغة اللاتينية واليونانية واستقر في ايطاليا.فقد ترجم مجموعة من الكتب العربية منها (كامل الصناعة الطبية) لعلي بن العباس المجوسي وكتب اسحاق بن سليمان الاسرائيلي في البول والحميات وكتب ابن الجزار وجالينوس وبقراط الى اللاتينية.

وهناك من المترجمين فرج بن سالم المعروف عند الغرب ب (فراجوت او فرايوس) حيث ترجم كتاب جالينوس في الطب التجريبي ومؤلفات حنين بن اسحاق وكتاب تقويم الابدان لابن جزلة وكتاب الحاوي للرازي الى اللاتينية.

٤. الرحلات والسفر وهذه نوعان منها رحلة العلماء العرب انفسهم عبر افريقيا واسبانيا مثل محمد بن عبدون ذهب من الاندلس عام ٣٣٧ ه الى مصر ليمارس التطبيب في مستشفى الفسطاط ورجع الى الاندلس عام ٣٦٠ ه ، وولدي يونس الحراني ذهبا يدرسان الطب في بغداد وبقيا عشر سنوات ثم عادا للاندلس عام ٣٥١ ه وغير هؤلاء كثيرون.

هذا اضافة الى الحروب الصليبية التي استمرت من عام ١٠٩٥ – ١٢٩١ م، اذ عادت القدس الى المسلمين عام ١١٨٧ بعد معركة حطين.فقد تعرف الغربيون على العلوم العربية وتعلموا اللغة العربية..وتتلمذ الكثير من الطلاب الغربيين على يد اساتذة مسلمين، وقاموا بترجمة الكثير من الكتب العربية وبعضهم ا لف كتبا خلال بقائه في الشرق...كذلك الاسرى الغربيون والجرحى والمرضى الذين عادوا بعد الحرب الى بلادهم.

لقد كان للثقافة والعلوم والآداب الاسلامية والعربية الاثر البالغ في انشاء كيان الثقافة والحضارة الغربية وان ما جاء آنفا هو صورة قادرة على اعطاء القارئ الحقيقة التي اعترف بها الغربيون انفسهم، اذ ان البحث هذا اشبه بعجالة خاطفة حول هذه الحالة..التي ينبغي ان تخلد للمسلمين ويكافؤ عليها لا ان يتآمر عليهم وتغتصب اراضيهم وتدنس مقدساتهم.(٣١٥).

---

٣١٤ - المصدر السابق: http://almeseela.7olm.org/t14-topic

٣١٥ - مقال الدكتور عبد الامير سليماني ، أستاذ جامعي: http://almeseela.7olm.org/t14-topic

المبحث الحادي عشر

أهم وأبرز فروع الثقافة الإسلامية التي ركز الغرب على عبورها إليهم والإفادة منها :

من أهم فروع الثقافة الإسلامية التى عبرت إلى الغرب عن طريق الأندلس (الطب والصيدلة . – الهندسة . – الكيمياء . – الفيزياء . الرياضيات . الفلك . الجغرافيا . – أبرز المصنفات الإسلامية في مختلف العلوم والفنون .) وغيرها.

العلوم التي أخذها الغرب عن المسلمين العرب .

الأدب:

لقد تأثر الأدب الغربي في العصور الوسطى وبداية العصر الحديث تأثراً واضحاً بأسلوب الأدب العربي المعروف بالخصوبة والإبداع. فهذا (جب) يقول: (إنَّ خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبا أنها أثرت بثقافتها وفكرها العربي في شعر العصور الوسطى ونثرها).

وظهر في شمال أسبانيا لون مشابه للشعر الأندلسي الخفيف، كذلك في إقليم (بروفانس) بجنوب فرنسا، وذلك منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ومن ثمَّ شقَّ طريقه إلى مختلف الدول الأوروبية وبخاصة إيطاليا.

وثمة ظاهرة جديرة بالملاحظة في الشعر العاطفي الأوروبي الذي ظهر خلال الشطر الأخير من العصور الوسطى، هي العناية بالقافية. والمعروف أنَّ الشعر الأوروبي الكلاسيكي لم يهتم بالقافية، ولم يُعطها عنايةً تُذكر في مختلف أدواره، بخلاف الوضع في الشعر العربي الذي يرتكز على القافية ويعتبرها منذ نشأته ركناً من أهم أركانه. وهذه الظاهرة جعلت كثيراً من الباحثين والمستشرقين يعتقدون أن القافية جاءت أوروبا عن طريق الشعر العربي.

أما بالنسبة لتأثير العرب في النثر الأوروبي فليس فيه مجال للشك، فاهتمام الأوروبيين بالدراسات والكتب العربية العلمية صحبه اهتمامٌ آخرُ بالمؤلَّفات الأدبية عند العرب، وبصفة خاصة (القصص الخيالية) ذات المغزى الأخلاقي أو التي تتخذ الحيوان موضوعاً لها.

وفي سنة ١٢٥١م تُرجمتْ من العربية إلى الأسبانية أيضاً مجموعة القصص الهندية المعروفة باسم (كليلة ودمنة) وأعقب ذلك بقليل ترجمة قصص الحكماء السبعة أو (السندباد) سنة ١٢٥٣م، ثم كثرت بعد ذلك تراجم الحكم والقصص الخلقية، وانتشرت في أوروبا بوجه عام.

وقد لاحظ الباحثون أوجهَ شبهٍ واضحةً بين القصص العربي الخيالي وبين بعض القصص التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى، مثل قصة (ايزولد) (ذات اليد البيضاء) وقصة (فلورا والزهرة البيضاء). وهكذا استطاع الأدب العربي أن يؤثر تأثيراً واضحاً في القصص الأوروبي، ليس فقط في العصور الوسطى، بل الحديثة. فالروح الأندلسية تبدو واضحةً في قصة (أمادس دي جولا) التي كتبها عدّةُ قُصَّاصٍ في القرن الخامس عشر الميلادي، كما تبدو في غيرها من القصص الأوروبي الذي وضع في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

ويُرَجِّحُ البعض أن (المقامات العربية) أَثّرت هي الأخرى في الأدب الأوروبي في العصور

الوسطى ومستهل الحديثة. والمعروف أن هذه المقامات تتألَّفُ من قصصٍ متفرقةٍ بطلها شخص يستغلُّ خفَّةَ روحه وسعةَ حيلته في كسب قوته، وأشهر هذه المقامات مقاماتٌ (الحريري)، ومقامات (بديع الزمان الهمذاني)، وقد وُجِدَ شبيهٌ لها في بعض الروايات الأسبانية التي تدور حول حياة المشردين والصعاليك والتي أحرزت إقبالاً كبيراً في القرن السابع عشر. وهذه قصّة الفارس (ثيفارو) تضم إلى جانب روحها الشرقية حادثة من الحوادث التي اقترنَ اسمها في الرواية العربية باسم (جحا) الشهيرة.

ولم يقتصر تأثر الأدب الأوروبي بالأدب الإسلامي بالشعر والنثر والقصة، فقد كان للغة العربية نفسها أثر عميق في اللغات الأوروبية. فعدد الألفاظ العربية في اللغتين الأسبانية والبرتغالية أكبر من أن يتصوّره عقلٌ. أما اللغة الإنجليزية ففيها وحدها ما يقرب من ألف كلمةٍ مُشتقةٍ من أصلٍ عربي، منها حوالي مئتين وستين كلمة من الكلمات الشائعة الكثيرة الاستخدام في الحياة اليومية. فمنهًا ما هو خاص بأسماء الحيوانات والطيور، ومنها ما يرتبط بالفلك والكيمياء والنبات، أو الأقمشة والملابس، أو المأكل والمشرب. هذا عدا الاصطلاحات المتعلقة بالطب والجراحة والموسيقى والحروب.

الفلسفة :

لقد كان التأثير الفلسفي على أوروبا عظيماً، حتى أن (ترند) قال: (إنَّ أعظم ما خَلَّفَهُ المسلمون للفكر الأوروبي هو أعمال فلاسفتهم). وكان من المعروف أن المشرق الإسلامي شهد نشاطاً كبيراً لبعض الفلاسفة أمثال: (الفارابي) و(الكندي) و(ابن سينا) ولكن تأثير الفلسفة الإسلامية على الفكر الأوروبي كان مركزه الأندلس، لأن أوروبا لم تعرف فلاسفة المشرق إلا عن طريق الأندلس، حيث أشرف (ريموند) رئيس أساقفة طليطلة على ترجمة أعمال الفارابي وابن سينا والغزالي، والعديد من الكتب العلمية العربية. وقد لَخَّصَ الأستاذ (أحمد أمين) العوامل التي أعانت أهل الأندلس على التفلسف في انتقال بعض الفلاسفة والعلماء من بغداد إلى الأندلس، وتعليم أهلها ما وصل إليه أهل المشرق من تفكير، وفي نشاط أهل الأندلس في نقل الكتب إلى بلادهم، ومنها كتب فلسفية كثيرة تُرجمتْ عن اليونانية.

وكان اتّصالُ العقلية الأوروبية الغربية بالفكر الإسلامي هو الذي أثار حماسة الأوروبيين لدراسة الفلسفة اليونانية. وهنا يتساءل الأستاذ (جيوم) قائلاً: (إذا لم يكن التأثير الأول الفعال عربياً فكيف نُفَسِّرُ اختلاط اسم ارسطو بالتعاليم المنسوبة إلى ابن رشد أجيالاً طويلة؟).

وإذا كان ـ كما قلنا ـ المشرق الإسلامي قد نبغ فيه فلاسفة عظماء، فإن الأندلس كان لها أيضاً فلاسفتها الذين ضربوا الرقم القياسي في حرية التفكير وتركوا أبعد الأثر في الفكر الأوروبي. وأهم فلاسفة الأندلس (ابن باجة) و(ابن طفيل) و(ابن رشد)، وهؤلاء كان تأثيرهم في غرب أوروبا أكثر منه في العالم الإسلامي.

وقد اهتم الغرب بالفيلسوف ابن رشدٍ أكثرَ من غيره، بوصفه أكبرَ شارحٍ لفلسفة آرسطو. ذلك لأن ابن رشد أُعجب إعجاباً شديداً بأرسطو مما جعله يضع ثلاثة شروح على فلسفته. وفي ذلك يقول (رينان): (ألقى أرسطو على باب الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضة، ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرةً خارقةً ففسّرها وشرح غامضها).

لقد اعتبرت الكنيسة أن آراء ابن رشد خالفت تعاليم الكنيسة، مما أحدث هيجاناً عاماً في غرب

أوروبا. فاصدرت عدة قرارات في القرن الثالث عشر الميلادي بتحريم آراء آرسطو وابن رشد، مع توقيع قرار الحرمان ضدَّ كلِّ مَنْ يردد فلسفة هذا أو ذاك.

لقد كان أثر فلسفة ابن رشد واضحاً في تمرُّدِ كثيرٍ من الغربيين على تعاليم الكنيسة، وغير عابئين بعقوباتها، وبتمسكهم بمبدأ حرية الفكر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة، وقد ظهر أثر آراء ابن رشد واضحاً في فلسفة القديس (توما الأكويني).(٣١٦)

لقد كانت هناك منجزات عبقريه للحضاره الاسلاميه وخاصة في العلوم وهذه العلوم مثل الفلك والهندسة والحساب والجبر والكيمياء والفيزياء والتاريخ الطبيعي والطب، وغير ذلك من العلوم التطبيقية.

وقد أسهم المسلمون الأوائل بدور كبير في هذه العلوم، لأن ديننا الحنيف يحث دائمًا على البحث والتحري ودقة النظر، والتأمل في معالم هذا الكون، واستنتاج قدرة الله عز وجل، ولقد تعددت إنجازات المسلمين في العلوم المقتبسة، ومنها: (٣١٧)

علم الفلك

وهو العلم الذي نعرف به أحوال الكواكب والنجوم في السماء وحركاتها وأبعادها، وقد اتجه المسلمون لدراسة هذا العلم دراسة دقيقة فبدءوا بترجمة الكتب التي تتحدث عن الفلك عند اليونان والفرس والهنود، واستوعبوا هذه المعارف وفهموها، ثم نقدوها وعلَّقوا عليها، وأضافوا عليها، وابتكروا أشياء جديدة نافعة في حياة المسلمين . (٣١٨)

ومن أهم علماء الفلك الذين نبغوا في ظل الحضارة الإسلامية :

البتَّاني أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان (ت ٣١٧ هـ)، وهو من أحفاد المترجم المشهور ثابت بن قُرَّة الحراني، وقد أنشأ البتَّاني مرصدًا فلكيًّا عُرِف باسمه، ووصف الآلات الفلكية وصفًا دقيقًا، وشرح طريقة استخدامها، وهو ما يعرف بالأَسْطُرلاب.

وقد كان لأعماله جانب نظري يتمثل في قراءة مؤلفات الفلكي اليوناني بطليموس وانتقائها بطريقة علمية، وَوَضع كتابًا في حركة النجوم وعددها، ظل يدرَّس في أوربا حتى عصر النهضة العلمية في أوربا (٣١٩)

علوم الرياضيات :

علوم الرياضيات تشمل الحساب والجبر والهندسة وغيرها، ويعد العلامة محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٢٣٢ هـ) صاحب الفضل الأكبر في معرفة خانات الآحاد والعشرات والمئات، وفي معرفة الزوجي من الفردي في الأعداد، وفي معرفة عمليات الكسور العشرية، واستخدامها في تحديد النسبة بين محيط الدائرة، وقطرها مما لم تعرفه أوربا قبله.

---

٣١٦ - موقع راجح السباتين: http://islamincounter.blogspot.com/p/blog-page_12.html
٣١٧ - موقع : http://www.pal-stu.com/vb/showthread.php?t=11887
٣١٨ - موقع : http://www.pal-stu.com/vb/showthread.php?t=11887
٣١٩ - موقع : http://www.pal-stu.com/vb/showthread.php?t=11887

ولم يكن الخوارزمي وحده هو البارز في هذا المجال، بل كان هناك علماء كثيرون وضعوا مؤلفات في الحساب والجبر وغيرهما مثل: أبي كامل شجاع بن أسلم المصري، ووسنان بن الفتح الحرَّاني، والكندي، ومحمد بن الحسن الكرخي صاحب كتاب الكافي في الحساب، ويحتوي على مبادئ الحساب الشائعة في زمنه وبعض العمليات الحسابية المبتكرة.

وعلم الجبر من العلوم التي أنشأها المسلمون، برغم أن لها أصولا في بابل والهند وعند الإغريق، لكن المسلمين طوَّروها، وأضافوا إليها الكثير على يد علماء بارعين، حتى تكاد تظهر بصمات اليد العربية عليه، وما زال يحتفظ باسمه العربي في لغات العالم المختلفة.

ويعد الجبر أفضل فروع الرياضيات عند الخوارزمي، الذي يعد أول من ألف فيه بطريقة علمية، وله كتاب في الجبر يسمى (الجبر والمقابلة)، كما نجح في استخدام الجذور واستخدم الرموز في الرياضيات لأول مرة، مما جعل هذا العلم متطورًا بدرجة عالية؛ فسبق الخوارزمي بذلك ديكارت وغيره من علماء الرياضيات الأوربيين. ويرجع السبق إلى المسلمين في اختراع الرقم صفر، فلم يكن معروفًا قبل ذلك..(٣٢٠).

علم الجغرافيا وعلاقته بالفلك والرحلات:

كان المسلمون الأوائل يعيشون في بيئة صحراوية، ارتبطوا بها، ولمسوا تغيرات الجو، وعرفوا تطوراته، وكانت تضاريس الصحراء، وما بها من جبال وتلال وهضاب وسهول ووديان، وأماكن المياه، كان ذلك دافعًا لمعرفة المسلمين بعلم الجغرافية وبراعتهم فيه.

لقد استفاد المسلمون من معارف الأمم السابقة في الجغرافية، وأضافوا إليها معلومات جغرافية كثيرة، فقد برعوا في مجال الجغرافيا الوصفية، وهي ما عرف بعلم المسالك والممالك، وقاموا في ذلك بعدة رحلات برية وبحرية كثيرة وصفوا خلالها الطرق والمسافات والمدن والأقطار وصفًا دقيقًا رائعًا، كما برع المسلمون في مجال التأليف الجغرافي ومحاولة التفسير العلمي لبعض الظواهر الجغرافية، ونجحوا نجاحًا باهرًا في فن رسم الخرائط، مما يدل على الدقة وسعة الثقافة التي وصل إليها الجغرافيون المسلمون في معرفة البلاد ورسم مواقعها.

وكان أشهر رسَّامي الخرائط الإدريسي الذي رسم خريطة للأرض، كما كانت تعرف في عصره بناء على طلب ملك صقلية، وقد رسمها على كرة من الفضة الخالصة، ووضع عليها خطوط الطول والعرض(٣٢١)

علم الفيزياء:

درس المسلمون ظواهر عديدة في البحر، كالمد والجزر، والبراكين، وظواهر جوية كالضغط الجوي والرياح والأعاصير، والمطر والسحاب والبرق والرعد وظواهر الصوت والضوء وغيرها. وظهر الحسن بن الهيثم، صاحب النظريات المعروفة في علم البصريات

وقد اهتم المسلمون بالأوزان، واستخدموا موازين غاية في الدقة، كما تفوقوا في تقدير الأوزان النوعية (النسبة بين وزن المادة ووزن حجم مساوٍ لحجمها من الماء.

---

٣٢٠ - موقع : http://www.pal-stu.com/vb/showthread.php?t=11887

٣٢١ - موقع : http://www.pal-stu.com/vb/showthread.php?t=11887

ولقد اخترع البيروني آلة مخروطية، يتجه مصبها إلى أسفل، صنعها بنفسه ورسمها، لاستخراج الوزن النوعي، وذلك عن طريق ملء هذه الآلة بالماء حتى المصب (النهاية)، ثم يوضع فيها المادة التي يريد معرفة وزنها النوعي، فيخرج من حولها قدر من الماء من خلال المصب، ويسقط في الكفة، فيكون الوزن النوعي لها هو النسبة بين وزنها ووزن الماء المزاح، ونجح البيروني عن طريق تلك الآلة في تحديد وزن ثمانية عشر معدنًا كالذهب والزئبق والنحاس والحديد والياقوت وغيرها، وتوصل إلى نتائج قريبة من نتائج العصر الحديث..

ودرس المسلمون الصوت والضوء، وعرفوا كيفية تمييز الأصوات من خلال دراسة الأوتار الصوتية، واهتزازاتها، وعرفوا المرايا بأنواعها. وهذا قليل من كثير عن علم الفيزياء عند المسلمين، وعطائهم الحضاري في ميدان الفيزياء، ولولا هذا العطاء ما تقدم الغرب هذا التقدم السريع في علوم الفيزياء.(٣٢٢)

علوم الحياة:

وهي العلوم التي تدرس النبات والحيوان. وقد اشتغل المسلمون بعلمي النبات والحيوان، واهتموا بهما اهتمامًا عظيمًا، وكانت تعاليم القرآن والإشارات العلمية الواردة فيه خير دافع للمسلمين للبحث في جميع فروع المعرفة، ومنها علوم الحياة.

وقد ألف أبو حنيفة الدينوري الملقب بشيخ علماء النبات كتاب (النبات)، ألف الإدريسي كتاب (الجامع لصفات أشتات النبات)

وقد اهتم المسلمون بالزراعة، وأصبحت على أيديهم علمًا له أصوله وقواعده قبل باقي العلوم الأخرى، وقد اعترف الأوربيون بفضل العلماء المسلمين ودورهم في نقل كثير من النباتات إلى مصر والأندلس وصقلية، والتي استفاد منها الغربيون في زراعاتهم ومنها القطن، والبطيخ، وقصب السكر، والليمون، واهتموا بشق الترع والقنوات، وقد ذكر ابن حوقل في كتابه (المسالك والممالك) أخبارًا كثيرة عن هذه الترع والقنوات والأنهار.

كما اهتموا ببناء الخزانات وبناء السدود الضخمة على بعض الأنهار، وكذلك شق المجارى المائية تحت سطح الأرض. ومن أهم كتب الزراعة، كتاب الفلاحة الأندلسية لأبي زكريا محمد بن العوام الأشبيلي، وقد تحدث فيه عن أنواع التربة وأجودها، وما يصلح منها للبقول وغيرها وما لا يصلح لها.(٣٢٣)

علم الكيمياء:

لقد عرف المسلمون علم الكيمياء في وقت مبكر، وذلك على يد خالد بن يزيد بن معاوية) ت ٨٥ هـ)، الذي ترك حقه في الخلافة؛ لأنه كان يحب العلم ويفضله على أي شيء آخر، فقام بترجمة كتب النجوم والطب والكيمياء.

وبرع في هذا الجانب جابر بن حيان(١٢٠ - هـ-٢١٠ هـ) الذي أكد على أن التجربة هي أهم مراحل البحث العلمي، وبذلك وضع أسس المنهج التجريبي الحديث، وهو المنهج الذي يقوم على

---

٣٢٢ - موقع : http://www.pal-stu.com/vb/showthread.php?t=11887
٣٢٣ - موقع : http://www.pal-stu.com/vb/showthread.php?t=11887

التجربة والملاحظة والاستنتاج، كما عرف ابن حيان كثيرًا من العمليات الكيميائية، ووصفها بدقة مثل: التبخير، والترشيح، والتقطير، والإذابة، وقد أجرى بعض التفاعلات الكيميائية، وحصل من خلالها على محلول نترات الفضة. هذا وقد بلغت كتبه أكثر من مائة كتاب مثل: الخواص الكبير، والموازين، والإيضاح، وقد عرف الغربيون له قدره فترجموا مؤلفاته إلى اللاتينية من شدة إعجابهم بها.

ومن الكيميائيين المسلمين الذين برعوا في هذا المجال، محمد ابن زكريا الرازي، صاحب كتاب الأسرار في الكيمياء، الذي استخدم علم الكيمياء في الطب وعلاج كثير من الأمراض داخل جسم الإنسان.(٣٢٤)

علم الطب:

لقد اشتغل العرب بالطب في القديم، وتقدموا فيه مع تقدم الأيام، وظهر منهم في عهد الرسول (الحارث بن كَلَدة الثقفي طبيب العرب، الذي شهد له الرسول) ببلاغته في الطب، بالإضافة إلى بعض النساء اللاتي اشتغلن ومارسن هذا العمل، خاصة خلال غزوات الرسول من أمثال رفيدة بنت سعد الأسلمية والشفاء بنت عبد الله، وأم عطية الأنصارية- رضي الله عنهن.- وقد اهتم المسلمون بالطب لما ورد في القرآن الكريم وسنة النبي وقد كثُر الأطباء من سكان الدولة الإسلامية، وترجمت كتب الطب التي كتبها أبقراط وجالينوس، وغيرهما، وتمت الاستفادة منها على أحسن وجه، واشتهر من العلماء الرازي الذي كان له دور كبير في التفريق بين الأعراض المتشابهة لبعض الأمراض، مثل: ألم القولون، وألم الكلى، والتفريق بين الجدري والحصبة وفرَّق ابن سينا بين شلل الوجه الناتج عن سبب أساسي في مراكز المخ، والآخر الناتج عن عامل خارجي. ونجح ابن النفيس في اكتشاف الدورة الدموية الصغرى في القرن السابع الهجري قبل معرفة أوربا لها بثلاثة قرون. وتنبه الطبيب والمؤرخ الأندلسي لسان الدين بن الخطيب إلى خطورة العدوى، ووجودها أثناء انتشار مرض الطاعون في الأندلس، فحذر الناس من خطورتها وبين كيفية الوقاية منها.

وقد عرف المسلمون الأوائل التخصص، فلم يسمحوا لأحد بممارسة الطب إلا بعد نجاحه في امتحان في كتب التخصص المعروفة، للتأكد من سعة ثقافة الطلاب النظرية والعملية ومن التخصصات التي عرفها المسلمون:

الأمراض الباطنية :لقد عرف المسلمون تركيب جسم الإنسان وأجهزته، وطبيعة المعدة وأمراضها، وديدان الأمعاء، والبواسير وغيرها من الأمراض.

الجراحة :وكان كتاب الحاوي للرازي يشتمل على معلومات عن جراحات الأعضاء التناسلية والدماغ والخُرَّاجات الموجودة داخل الأذن وجراحة البطن وغيرها. ويرجع الفضل في تقدم المسلمين في الجراحة إلى الطبيب الأندلسي المسلم أبي القاسم الزهراوي (ت ٤٠٣هـ) رائد هذا التخصص، والذي استفادت أوربا من كتبه لمدة خمسة قرون، حيث تُرجمت مؤلفاته إلى اللغة اللاتينية.

طب العيون :لقد اهتم الأطباء المسلمون بأمراض العيون التي انتشرت في بعض البلاد الحارة، مثل: مصر والشام والعراق، ونجحوا في تشريح عيون الحيوانات، فعرفوا أجزاء كثيرة من عين الإنسان التي لا تختلف كثيرًا عن عين الحيوان، وعرفوا أمراضها المختلفة، ووصفوا لها علاجها، ومن الأطباء الذين برعوا في هذا التخصص عمار بن علي الموصلي (ت ٤٠٠ هـ) صاحب كتاب المنتخب في

٣٢٤ - موقع : http://www.pal-stu.com/vb/showthread.php?t=11887

علاج أمراض العين.

طب العظام: وقد نجح الأطباء المسلمون في علاج جميع الكسور في الأنف والفك والرقبة، والضلوع والركبة، والساقين، والذراع وغير ذلك، وكانوا يشرِّحون جثث الموتى لمعرفة شكل العظام والمفصل وكيفية اتصالها.

طب الأسنان: وفي كتاب الطبيب المسلم الزهراوي الذي سماه التصريف: باب وضح فيه كيف يمكن خلع الأسنان بجذورها، ووصف الآلات المستخدمة في ذلك، وعلاج ورم اللثة وتسكين الآلام، ووضع أسنان بديلة عن المخلوعة من عظم البقر المشدود بخيوط من الذهب أو الفضة، وعرفوا الوقاية من التسوس باستعمال السِّواك وبعض المحاليل والمساحيق التي تشبه معجون الأسنان اليوم.

طب النساء: اشتهر في هذا الفرع من فروع الطب الطبيب المسلم أبو بكر الرازي والزهراوي وابن سينا، ووجدت طبيبات مسلمات للقيام بهذا العمل مثل :أخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها، وهناك مؤلفات إسلامية طبية مثيرة تحتوي على معلومات واسعة عن أمراض النساء وعلاجها.

طب الأطفال: ولقد احتل طب الأطفال مكانة عالية عند المسلمين، ونال الأطفال عناية كبيرة من اهتمام علماء الطب المسلمين، فقد تكلموا عن الرضاع والفطام، ومواقيته، كما عالجوا أمراض الأطفال مثل السعال والإسهال والقيء، وحاولوا علاج شلل الأطفال، والتبول اللاإرادي في الفراش، وغيرها من الأمراض. ومن كتب طب الأطفال: رسالة في أوجاع الأطفال لأبي على بن أحمد بن مندويه الأصفهاني (ت٤١٠ هـ).

الطب النفسي والعقلي:وقد مارسه من أطباء المسلمين الرازي وغيره من الأطباء، واستخدموا فيه الصدمات والمفاجأة لعلاج الأعضاء المصابة بالشلل، وإعادة الحياة إليها، أما الأمراض العقلية فكانت هناك مستشفيات خاصة بهذه الأمراض في جو مليء بالخضرة والزهور والورد، وسماع بعض الآيات القرآنية.

علم الصيدلة: وبرع المسلمون الأوائل في علم الصيدلة، وقاموا بترجمة الكتب التي تتحدث عن العقاقير والأدوية، ثم طوروا وأبدعوا في مجالات الأدوية والأقراص والأشربة والمرهم، كما ورد في كتاب (فردوس الحكمة) لعلي بن سهل الطبري، وكتاب (الحاوي) في الطب لأبي بكر الرازي، وكتاب (القانون) لابن سينا.(٣٢٥).

وكان من أهم إنجازات العلماء المسلمين في مجال الصيدلة :

اكتشاف العديد من العقاقير التي لا تزال تحتفظ بأسمائها العربية في اللغات الأجنبية مثل الحناء، والحنظل، والكافور، والكركم، والكمون.

تحضير أدوية من مواد نباتية وحيوانية ومعدنية، وابتكار المعالجة المعتمدة على الكيمياء الطبية، ويعد الرازي أول من جعل الكيمياء في خدمة الطب، فاستحضر كثيرًا من المركبات.

---

٣٢٥ - موقع : http://www.pal-stu.com/vb/showthread.php?t=11887

تغليف الأدوية المرة بغلاف من السكر أو عصير الفاكهة لكي يستسيغها المريض.

علم التنظيم والإدارة : برع المسلمون في كل المجالات، ومنها التنظيم الإداري، فقد اقتضى قيام الدولة الإسلامية أن يكون لها تنظيمها الإداري الخاص بها، الذي يقوم بتنفيذ سياساتها العامة، والقيام بتطبيق وتنفيذ أحكام الشريعة والحفاظ عليها، وقد مرَّ علم الإدارة والنظام الإداري الإسلامي بالعديد من المراحل.

وفي عهد عمر بن الخطاب، اتسعت الدولة الإسلامية، وازدادت الحاجة إلى تطوير النظام الإداري الإسلامي ليلائم الأوضاع الجديدة، فقام عمر -رضي الله عنه- بتطوير الجهاز الإداري في الدولة الإسلامية، فوضع التاريخ الهجري، وأنشأ الدواوين، ومنها ديوان الإنشاء لحفظ الوثائق الرسمية، وديوان العطاء والجند.(٣٢٦)

أبرز الصناعات التي انتقلت إلى أوروبا من العرب والمسلمين

تجلت مهارة المسلمين الصناعية واضحةً في كثيرٍ من الصناعات التي كانت أوروبا لا تعرف إلا الرديء والبدائي منها، مثل صناعة النسيج والجلود والورق والخزف والزجاج.

١- ففي النسيج نبغ المسلمون في صنع أنواعٍ مختلفة من النسيج، مما حمل أوروبا في العصور الوسطى على الإقبال على المنسوجات العربية إقبالاً يتجلى في أسماء الأقمشة العربية التي ما يزال بعضها مُستعملاً في أوروبا حتى يومنا هذا؛ فقماش (الفستيان) منسوب إلى (الفسطاط)، وقماش (الدمسقيdamasks) منسوب إلى دمشق، وقماش (الموسلين Muslin) منسوب إلى الموصل، وقماش (جرينادين Jrenadines) منسوب إلى غرناطة، وقماش (التابي Tabis) منسوب إلى حي (العتابية ببغداد)، الذي اشتهر بصناعة هذا النوع من القماش، ومنه انتقل إلى اسبانيا وفرنسا وإيطاليا.

٢- أما عن الجلود، فقد اشتهرت قرطبة بصناعتها ودبغها حتى أطلق الأوروبيون على النوع الممتاز من الجلود اسم (القرطبيCordovan). وفيما عدا المصنوعات العادية المعروفة استغل المسلمون الجلود في تغليف الكتب، ونبغوا في ذلك نبوغاً أدهش الأوروبيين المعاصرين، فأحرزت مدينةُ (هراة) الأفغانيّة ـ بصفة خاصة ـ شهرة ذائعة الصيت في فن تجليد الكتب. وقد عجز الأوربيون عن تقليد هذه الصناعة في أول الأمر، ثم اكتفوا في عصر النهضة الإيطالية بعمل نوع من التجليد قريب من الإنتاج الإسلامي وإن لم يبلغ مستواه.

٣- وبرع المسلمون في الصناعات المعدنية، فاستغلوا مناجم النحاس والزئبق والحديد والفضة والذهب؛ وأتقنوا فن تسقية الفولاذ وصناعة السيوف والسلاح الذي اشتهرت به طليطلة، وصناعة مفاتيح الأبواب التي شَكَّلوا أسنانها أحياناً وفق بعض الكلمات والأحرف الكوفية. كذلك نبغ صُنّاع المسلمين في صناعة الحلي الذهبية لتحلية مقابض السيوف والنقش عليها.

٤- أمّا النحاسُ فقد كانت مناجمه في الجزيرة، وبأعلى العراق، وفي مراكش، وفي اسبانيا، ومنها يُحمل إلى بغداد والقيروان وفاس وقرطبة للتصنيع: (على شكل أباريق وأوانٍ وأقداح ومرايا ومصابيح وشمعدانات ومباخر ومكاحل) وقد يكتفون بالفضة. وكان الحرفيون تجار المواد النحاسية موجودين في جميع أسواق المدن الإسلامية الكبرى. وكان خَرَاجُ النحَّاس السنوي بأصفهان عشرة آلاف درهم.

---

٣٢٦ - موقع : http://www.pal-stu.com/vb/showthread.php?t=11887

٥- عرف المسلمون النفط واستخدموه كمادةٍ حربيةٍ للإحراق في النّفاطات، وكدواءٍ لبعض الأمراض. وكان يُستخرج في المشرق في إيران والعراق وصقلية.

٦- وإذا كانت الطباعة أهم حَدَثٍ عرفته الإنسانية في تاريخها الثقافي، فإنَّ الوصول إلى هذا الاختراع كان متعذراً ومستحيلاً بدون الورق. ولا نَدّعي هنا أن العرب كانوا أولَ مَنْ صنعَ الورق، فإن هذا شرفٌ من حق الصينيين وحدهم أن يفخروا به بعد أن ثَبَتَ أنهم أول مَنْ صنع الورق من شرانق الحرير. وإنما يرجع فضل العرب في هذه الصناعة إلى أنهم استطاعوا أن يستبدلوا الحرير في صناعة الورق بمواد أخرى أكثر توافراً وأيسر منالاً، وبذلك تمكنوا من إنتاج الورق بكثرة ووفرة، كما نشروا استعماله لا في الشرق فقط بل في الغرب أيضاً، حيث لم يعرف الأوربيون حتى القرن الثاني عشر الميلادي سوى الرقائق الجلدية في الكتابة. ومن بغداد انتشرت صناعة الورق في العالم الإسلامي مشرقه ومغربه. وقد حاز مصنع (شاطبة) الأندلسيّ شهرة واسعة في صناعة الورق الجيد حتى امتدحه (الإدريسي) في القرن الثاني عشر الميلادي. وعندما عرف الأوربيون الورق من العَرَبِ في القرن الثاني عشر الميلادي، أطلقوا عليه اسم (الصحائف الدمشقية Charta Damascena) نظراً لأن دمشق كانت سوقاً رئيسياً لتجارة الورق في ذلك العصر ... وكان أول المصانع التي أقامها المسلمون لصناعة الورق في الأراضي الأوروبية في صقلية وإسبانيا، ومن الأول انتقلت صناعة الورق إلى إيطاليا، ومن الثانية انتقلت صناعته إلى غرب أوروبا ... وعندما تعلم الأوربيون صناعة الورق، أحلّوه في الكتابة محل الرقائق الجلدية الباهظة التكاليف، والتي كانت- بسبب ارتفاع أثمانها- كثيراً ما يُعادُ استعمالها أكثر من مرّةٍ بعد إزالة ما عليها من كتابة. وقد ثبت أن الرهبان الأوروبيين كثيراً ما لجأوا في العصور الوسطى إلى محو كتابات قيمة من تراث اليونان والرومان ليكتبوا محلها على الرقائق مواعظ أو كتابات دينية.

وهكذا أدى المسلمون خدمة جليلة لأوروبا، لأنهم علّموا الغربيين طريقةً أسهل وأوفر في الكتابة. ويشهد على أثر المسلمين في هذه الناحية كثرة المصطلحات العربية المتعلقة بالورق وصناعته، والتي ما زال بعضها مستعملاً بنطقه العربي في اللغات الأوروبية مثل لفظ (رزمة Rame).

٧- أمّا صناعة الفّخار وما يرتبط بها من القيشاني والخزف، فقد تفوّق المسلمون فيها تفوقاً ظاهراً. وما يزال يوجد حتى اليوم في إسبانيا والبرتغال أنواع مختلفة ونماذج رائعة من تربيعات القيشاني التي خلّفها المسلمون هناك، ولم يجد المسيحيون حرجاً في استخدام ذلك القيشاني المصنوعة بأيدٍ مُسلمةٍ في تزيين كنائسهم وقصورهم.

٨- الرسم والزخرفة: انتشر استعمال الحروف العربية والزخارف الإسلامية في صناعات أوروبا المسيحية. وزاد من هذا الانتشار كثرة اعتماد أوروبا على البضائع المزخرفة الواردة من البلاد الإسلامية كالأقمشة الحريرية والأواني الخزفية والمصابيح النحاسية، مما فتح الطريق أمام الفن الإسلامي ليغزو أوروبا. كما أوحى الصُّنّاع العرب إلى صُنّاع الغرب بطريقة جديدة في زخرفة جلود الكتب. وكان المجلِّدون الأوروبيون يزخرفون جلود الكتب بطبع رسوم عليها مستعينين بمكابس معدنية، فتنتج عن ذلك زخارف بارزة تتخللها أجزاء مُنخفضة. في حين أخذ الصنّاع العرب يزينون الرسوم المطبوعة بملء الأجزاء المنخفضة بطبقاتٍ مذّهبة.

٩- فن العمارة: أجمع الباحثون على أنَّ أعظم ما ابتكرته قرطبة في فن العمارة هو طريقة عمل الأقبية التي تقوم على عقود متقاطعة وأضلاع ظاهرة. وهذه الطريقة تحل المعضلة الأساسية في العمارة،

وهي عمل السقف، (وذلك بالطريقة نفسها التي أُتبعت في العمارة القوطية في أوروبا بعد ذلك بقرنين من الزمن).(٣٢٧).

المبحث الثاني عشر

المستشرقون المعتدلون الذين أنصفوا الإسلام في الغرب.

ستقرأ مما اعترف به المنصفون من المستشرقين أن الحضارة الإسلامية كانت هي صاحبة الفضل في إرساء الحجر الأساس للحضارة الأوروبية الحديثة؛ حيث أسهمت بكنوزها في الطب والكيمياء والرياضيات والفيزياء في الإسراع بقدوم عصر النهضة وما صحبه من إحياء للعلوم المختلفة، فبينما كانت الحضارة الإسلامية تموج بديار الإسلام من الأندلس غربا لتخوم الصين شرقا كانت أوربا وبقية أنحاء المعمورة تعيش في ظلام حضاري وجهل، وامتدت هذه الحضارة القائمة بعدما أصبح لها مصارفها وروافدها لتشع على الغرب وتطرق أبوابه، فنهل منها معارفه، وبهر بها لأصالتها المعرفية والعلمية.

فلم تَخلُ أوروبا من مؤرخين أبصروا ما للمسلمين من فضل في الحضارة الإنسانية على الحضارة الأوروبية؛ فألفوا كتباً ودراسات منصفة تشيد بفضل المسلمين الذي لا يمكن إنكاره، فقد نذكر نفرًا منهم درسوا هذه الحضارة دراسة وافية وأبدوا إعجابهم بها.

فمثلاً يقول " **توماس أرنولد**: "كانت العلوم الإسلامية وهي في أوج عظمتها تضيء كما يضيء القمر فتُبدد غياهب الظلام الذي كان يلف أوربا في القرون الوسطى.

ويقول"**جورج سارتون**" في كتابه"مقدمة في تاريخ العلم:"إنّ الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون؛ فالمسعودي أعظم الجغرافيين، والطبري أعظم المؤرخين.

كذلك يُبدي "**تومبسون**" إعجابه بالعلوم الإسلامية فيقول: "إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربيٍّ أوربا بالمعرفة العلمية العربية، وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك". ويقول في مكان آخر: "إن ولادة العلم في الغرب ربما كان أمجد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية".

هذا، وقد أبدى الباحث اليهودي "**فرانز روزانتال**" إعجابه الشديد ودهشته البالغة لسموّ الحضارة الإسلامية وسرعة تشكلها، فيقول: "إن ترعرع هذه الحضارة هو موضوع مثير ومن أكثر الموضوعات استحقاقًا للتأمل والدراسة في التاريخ، ذلك أن السرعة المذهلة التي تم بها تشكل وتكوّن هذه الحضارة أمر يستحق التأمل العميق، وهي ظاهرة عجيبة جدًّا في تاريخ نشوء وتطور الحضارة، وهي تثير دومًا وأبدًا أعظم أنواع الإعجاب في نفوس الدارسين. ويمكن تسميتها بالحضارة المعجزة، لأنها تأسست وتشكلت وأخذت شكلها النهائي بشكل سريع جدًّا ووقت قصير جداً، بحيث يمكن القول إنها اكتملت وبلغت ذروتها حتى قبل أن تبدأ".

وقد أشاد أحد الباحثين وهو "**روبرت بريفولت**"بالحضارة الإسلامية فقال: "إن القوة التي غيرت وضع العالم المادي كانت من نتاج الصلة الوثيقة بين الفلَكيين والكيميائيين والمدارس الطبية، وكانت هذه الصلة أثرًا من آثار البلاد الإسلامية والحضارة العربية، إن معظم النشاط الأوربي في مجال

٣٢٧ - موقع راجح السباتين: http://islamincounter.blogspot.com/p/blog-page_12.html

العلوم الطبيعية إلى القرن الخامس عشر الميلادي كان مستفادًا من علوم العرب ومعارفهم، وإني قد فصلت الكلام في الدور الذي لعبته العربية في اليقظة الأوربية، لأن الكذب والافتراء كانا قد كثرا في العصر الحاضر، وكان التفصيل لا بد منه للقضاء عليهما."

ويقول المستشرق" **أدم متز** "في كتابه" الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري" :"لا يعرف التاريخ أمة اهتمت باقتناء الكتب والاعتزاز بها كما فعل المسلمون في عصور نهضتهم وازدهارهم، فقد كان في كل بيت مكتبة."

ويقول "**رينيه جيبون**: "لم يدرك كثير من الغربيين قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية، ولا فقهوا حقيقة ما أخذوه من الحضارة العربية في القرون الماضية.

ويذكر"**هينولد**" أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم، وأن المسلمين ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء. فقد قام منهاج المسلمين على التجربة والترصد وكانوا أول من أدرك أهمية المنهاج في العالم، وظلّوا عاملين به وحدهم زمنًا طويلاً.

ويقول"**دُولنبر**" في كتاب"تاريخ الفلك: "لقد منَح اعتمادُ العرب على التجربة مؤلفاتِهم دقة وإبداعاً، ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلا في الفلسفة التي كان يتعذر قيامها على التجربة". ويستطرد قائلاً: "ومن مباحثنا في أعمال العرب العلمية أنهم أنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الأغارقة في زمن أطول من ذلك كثيرًا، وكان تراث اليونان قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه زمنا طويلا، ولما آل إلى العرب حوّلوه إلى غير ما كان عليه، فتلقّاه ورثتهم (يقصد الأوروبيين حديثاً) وحوّلوه مخلوقاً آخر.

يقول"**مسيو ليبري**:"لو لم يظهر المسلمون على مسرح التاريخ لتأخرت نَهضة أوروبا الحديثة عدة قرون"

ولقد أشار أيضاً إلى هذا المعنى المؤرخُ الفرنسيُّ الشهير" سديو" في تاريخه الكبير، الذي ألفه في عشرين سنة، بحثًا عن تاريخ المسلمين، وعظيم حضارتهم، ونتاجهم العلمي الهائل، فقال: "لقد استطاع المسلمون أن ينشروا العلوم والمعارف والرقيَّ والتمدُّن في المشرق والمغرب، حين كان الأوروبيون إذ ذاك في ظلمات جهل القرون الوسطى.

إلى أن يقول: "ولقد كان العرب والمسلمون -بما قاموا به من ابتكارات علمية- ممن أرْسَوا أركان الحضارة والمعارف، ناهيك عما لهم من إنتاج، وجهود علمية، في ميادين علوم الطب، والفلك، والتاريخ الطبيعي والكيمياء والصيدَلَة وعلوم النبات والاقتصاد الزراعي وغير ذلك من أنواع العلوم التي ورِثناها نحن الأوروبيين عنهم، وبحقٍّ كانوا هم معلمينا والأساتذة لنا.

ويذكر العلامة "**سديو**" أيضا: "أن المسلمين سبقوا كيبلر وكوبرنيك في اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بَيضِي وفي دوَران الأرض، وفي كتبهم من النصوص ما تعتقد به أن نفوسهم حدثتهم ببعض اكتشافات العلم الحديث المهمة.

هذا، ولم ينسَ فضلاء علماء الغرب أن يعترفوا بهذه الحقيقة، ونستقي من كتاب "حضارة العرب" لـ"غوستاف لوبون" حيث يقول: "وكلما أمعنا في دراسة حضارة العرب والمسلمين وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وأفاق واسعة، ولسرعان ما رأيتَهم أصحاب

الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون موردًا علميًّا سوى مؤلفاتهم، وإنهم هم الذين مدّنُوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقا، وإن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يَفُقْهم قوم في الإبداع الفني.

ويستطرد قائلاً: "ولم يقتصر فضل العرب والمسلمين في ميدان الحضارة على أنفسهم؛ فقد كان لهم الأثر البالغ في الشرق والغرب، فهُما مدينان لهم في تمدّنِهم، وإن هذا التأثير خاص بهم وحدهم؛ فهم الذين هذّبوا بتأثيرهم الخُلُقي البرابرة، وفتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالَم المعارف العلمية والأدبية، فكانوا مُمدِّنين لنا وأئمة لنا ستة قرون، فقد ظلّت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية مصدرًا وحيدًا للتدريس في جامعات أوروبا خمسة أو ستة قرون. فعَلى العالم أن يعترف للعرب والمسلمين بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة(٣٢٨).

المبحث الثالث عشر

المراكز الإسلامية في الغرب ، وإرسال الدعاة الإسلاميين إليها.

المؤسسات الإسلامية:

في بداية انتشاره في الولايات المتحدة، ظل الإسلام عقيدة شخصية(فردية) غير مُنتظِمة في مؤسسات؛ ولأنه لا أسرار مُقدَّسة، ولا مؤسسة رسمية في الإسلام، فقد لاءمت مرونته ظروف المهاجرين الجدد، وعندما نمت الجماعة الإسلامية بدأت الجماعات تتشكَّل لأداء صلاة الجماعة وشرْح التعاليم الدينية، وبُنيت الأماكن أو حُوِّلت لتُصبِح مساجدَ أو أماكن اجتماعات.

في الإسلام لا يوجد تسلسل ديني هَرَمي تُفرَض فيه التعاليم من أعلى؛ ولذلك فقد انبثقت الجماعات الإسلامية المتعددة العاملة في هذا البلد نتيجة جهود فردية أو محلية، التي تبدأ نتيجة الحاجة المُلحَّة للمواد التعليمية، وأساليب تنظيم المهاجرين الجدد، والعدد المتزايد من الطلبة المسلمين القادمين من الخارج.

من بين هذه المؤسسات" اتحاد الجماعات الإسلامية "في" **ايووا**"، هدف هذا الاتحاد حماية الثقافة الإسلامية، والدعوة إلى التعاليم الإسلامية، هذا الاتحاد الاجتماعي في طبيعته، يَعقِد اجتماعات سنويَّة يلتقي فيها المسلمون، ويقومون بنشاطات ثقافيَّة مشتركة، ويعيشون تجرِبة دينية حية.

في عام ١٩٦٢م أُنشئت" رابطة العالم الإسلامي "في مكة المكرمة، كمؤسسة عالمية تتبنَّى وتَدعَم القضايا الإسلامية في العالم، ولها مكاتب في عدة دول، بما في ذلك الولايات المتحدة، وتشمل نشاطاتُها: توزيع المصاحف، والمواد التعليمية الإسلامية باللغة الإنجليزية، كما تختار أئمة المساجد، وتوفِّر معلومات عن الإسلام في هذا البلد.

---

٣٢٨ - رابط الموضوع http://www.alukah.net/culture/0/21707/#ixzz3nLDCYRfM :

ولعل أكثر المنظمات الإسلامية نشاطًا في الولايات المتحدة" اتحاد الطلبة المسلمين."

إن تزايد عائدات النفط جعلت من الممكن للبلاد الإسلامية تحقيقُ التنمية في مجتمعاتها عن طريق اكتساب المعرفة العلميَّة والتكنولوجية، وأدَّى ذلك إلى زيادة هائلة في عدد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية؛ لذلك فإن" اتحاد الطلبة المسلمين "مؤسسة مهمة جدًّا لنشر التعاليم الإسلامية، وإنشاء المراكز الإسلامية، والدعوة إلى الإسلام، وتجنيد العناصر اللازمة للدعوة وتدريبها، والنهوض بالجماعة الإسلامية ككل.

ومن بين مشاريع الاتحاد" **مسابقات بالمراسَلة** "لتعليم الإسلام، ومشروع تعاوني لتقديم قروض بلا فائدة، وطبْع ونشْر الثقافة الإسلامية، ومشاريع أخرى كثيرة.

وقد أُنشئت مؤسسات أخرى عديدة من قِبل خريجي الاتحاد، مِثل" :**الرابطة الطبية الإسلامية**"، و"رابطة العلماء والمهندسين المسلمين"، و"رابطة علماء الاجتماع المسلمين"، وهذه الروابط تَعقِد باستمرار اجتماعات محليَّة وإقليمية؛ بهدف تقديم إرشادات إسلامية في مجالات التعليم والاقتصاد والمسائل السياسية وغيرها.

وهناك أيضًا" **مجلس المساجد** "في نيويورك، ويَهتم ببناء وتأسيس وصيانة المساجد في الولايات المتحدة، وبتعزيز التعاون مع المساجد في أماكنَ أخرى من العالم الإسلامي.

وهناك تركيز كبير على التبليغ والدعوة في أوساط المسلمين الذين لا يرتادون المساجد، وفي الأوساط الأمريكية ككل، إضافة إلى توزيع المصاحف والترجمات والطباعة، وتوزيع المطبوعات الإسلامية بأسعار رمزية .وتتركَّز الجهود الآن لتوفير المواد التعليمية للمدارس الإسلامية وللسجون، ولمن يَطلُب ذلك.

كذلك تَستخدم الدعوة الإسلامية في الولايات المتحدة وسائلَ الإعلام، وتُشرِف" البعثة الإسلامية الأمريكية "على برامج إذاعية تُغطِّي معظم أنحاء الولايات المتحدة، كما تُقَدم البرامج الدورية والمقابلات الإسلامية على شاشات التلفزيون .من الصحف والدوريات الإسلامية التي تنتشر في الولايات المتحدة: الاتحاد، النجم الإسلامي، الإسلام، طريق الاستقامة، شؤون إسلامية، الرسالة، الأخبار، المنار.

من وسائل الدعوة الإسلامية أيضًا في الولايات المتحدة: الزيارة التي يقوم بها دعاة، إما من خارج الولايات أو من داخلها، حيث يطوفون الولايات معلِّمين ومرشدين.

الدعوة الإسلامية وبنية المجتمع الأمريكي:

إن الولايات المتحدة، بما فيها من ضمانات دستورية للحرية الفردية والدينية، وفَّرت بيئةً فريدة من نوعها للدعوة الإسلامية، (يُلاحظ القارئ أن الكاتبة توظِّف دراستها في عدد من الفقرات للإشادة بالولايات المتحدة، وقد التزمنا الترجمة بأمانة).

كما أن تَعدُّد الخلفيات اللغوية والثقافية الأمريكية وضعت التعاليم الإسلامية أمام تحديات عملية؛ لذلك يؤكِّد خطباء المساجد الأمريكية دائمًا على الإسلام كدينٍ يتخطَّى حدود اللون والجنس، وعلى سبيل المثال: فإن المشاركين في المركز الإسلامي في" نيو انجلند "وفي" ماساشوستيس "يُمثِّلون ثلاثين قوميَّة، فمنهم: الأتراك، والعرب، والصينيون، والألبان، والأفارقة، والباكستانيون،

والإندونيسيون، والأفغان، والفلسطينيون، وغيرهم.

لقد علَّق على ذلك عضوٌ في المركز الإسلامي في نيويورك قائلاً: "إن اللقاء الأسبوعي أصبح تجمعًا دوليًّا، كالحج، حيث يلتقي المسلمون على عبادة الله، ويحدُث أن نأتي إلى هنا، كعرب أو لبنانيين، ولكننا الآن نتذكَّر وَحدتَنا كأمة" لا إله إلا الله"، قد تختلف لهجاتنا، أو ألبستُنا الوطنية، أو ألوان جلودنا، ولكننا متَّحِدون، لقد نحَّينا جانبًا عوامل التفرق، وضحينا باللون والخلفيات الثقافية؛ لنندمج في أمة لها هدف أسمى."

يعتقد بعضهم أن الولايات المتحدة تُوفِّر مرحلة الحضانة لنمو وتَطور المجتمع الإسلامي، والأنموذج الإسلامي الذي يعيشه أناس مُلتزِمون بدينهم.

الصحوة الإسلامية:

شهِد العقد الماضي بروزَ الهُويَّة الإسلامية بين المسلمين في الولايات المتحدة، وقد وفَّر ذلك دفاعًا للجهود المركَّزة التي تَهدِف إلى تخليص الإسلام من بدع الثقافة الأمريكية التي شابتْه على مرِّ السنين، وساعد على ذلك تزايد عدد المهاجرين المسلمين المتلزمين بالإسلام كمنهج حياة.

وقد أدَّى ذلك في السنوات العشر الماضية إلى زيادة عدد الحضور في المناسبات الإسلاميَّة التقليدية، وعند أداء العبادات، لقد أضافت الاحتفالات في مختلف المساجد والمراكز الإسلامية بُعدًا جديدًا للشعور بالكرامة والهويَّة، والهدف المشترك بين المسلمين في هذا البلد.

يقول كبار السن من المسلمين: "إن احتفالات الأعياد في السنوات الأولى هذا القرن كانت مناسبات صغيرة، تَقتصِر على العائلة والأصدقاء، ولكن تَدفُّق المسلمين في الفترة الأخيرة، وانتشار الإسلام بين الأمريكيين السود، والصحوة الإسلامية في العالم ككل، أدى إلى زيادة عدد المسلمين الذين يُشارِكون في المناسبات الإسلامية، ويصومون رمضان، ويذهبون لأداء فريضة الحج."

من المناسبات التي يَحتفِل بها المسلمون في الولايات المتحدة: عيد الفطر، وعيد الأضحى، وذِكرى المولد النبوي، وعاشوراء، وليلة القدر، والإسراء والمعراج، ورمضان.

يقول مسلم يعيش في الولايات المتحدة منذ خمسين عامًا: "كل عام يزداد فرحي عندما أرى عدد المشاركين في المناسبات الإسلامية يتزايد.".

دور المرأة المسلمة:

في المحيط الأمريكي، بتنوُّعه الداخلي، وإمكانياته المَرِنة، قدَّمت المرأة المسلمة مساهمة فريدة من نوعها، لقد قامت بدور حامية الأنموذج الإسلامي، والأسلوب الإسلامي في الحياة.

كثيرًا ما تزوَّج المسلمون من نساء غير مسلمات، وهو أمر مباح للمسلمين الذكور؛ ولأنه غير مسموح للمرأة المسلمة الزواج بغير مسلم، فقد حافظت هذه على عقيدتها؛ ولأن عددًا لا بأس به من الرجال المسلمين يتزوَّجون بغير مسلمات؛ فقد أدَّى ذلك إلى قدوم أقارب من المسلمين الذكور من خارج الولايات المتحدة للزواج من النساء المسلمات هنا، وهذا أدى إلى استمرار الروابط مع الوطن الأم، بما في ذلك استمرار الاطِّلاع على التعاليم الإسلامية، والحديث باللغة العربية.

قامت المرأة المسلمة هنا بدور فعَّال في الوظائف التي يقوم بها المسجد، إنها تُنظِّم مدارس عطلة

نهاية الأسبوع، حيث تشرح التعاليم الإسلامية، وهناك عدد لا بأس به منهن يُدرسن الدين في تلك المدارس.

وتُسهِم المرأة المسلمة كذلك بالدعم المالي للمسجد من خلال بعض النشاطات، مثل: حفلات الغداء، وبيعِ الخبز، ومشاريع أخرى عديدة مرتبطة بالجماعة الإسلامية.

المستقبل المأمول:

في الوقت الحاضر هناك أكثر من ثلاثمائة مسجد ورابطة إسلامية في الولايات المتحدة، موزَّعة في عدة أنحاء، خاصة في منطقتي الساحلين والغرب الأوسط، إنها تعكس نمط نمو التجمع الإسلامي في الولايات المتحدة من خلال الهجرة والإنجاب والاعتناق، وتَبرُز المساجد الرئيسية في مناطق الاستيطان الأولى مثل" :ايووا "و"توليدو "و"أوهيو "و"ديربورن "و"ميتشجان" "شيكاجو " و"إلينوي."

أما المراكز التي أنشئت مؤخرًا، فقد أقيمت على مقربة من الجامعات على يد الطلاب الأعضاء في اتحاد الطلبة المسلمين.

هناك مساجد أخرى أقيمت في الأحياء المُغلَقة في المدن الكبيرة التي تَقطُنها نسبة كبيرة من الأمريكيين السود الذين اعتنَقوا الإسلام.

وفي عام ١٩٥٧م افتتح المركز الإسلامي في واشنطن العاصمة كمقر اجتماعات مركزي للمسلمين الأمريكيين وأعضاء البعثات الدبلوماسية الإسلامية المعتمدة في الولايات المتحدة.

من الواضح للمراقبين المهتمين بشؤون الولايات المتحدة أن الإسلام يؤدي دورًا متزايد الأهمية في هذا البلد، في مجالات الطب والهندسة والتعليم الجامعي والبحث العلمي، هذه المجالات التي تُشكِّل المستقبل الأمريكي.

الرأي الإسلامي ووِجهات النظر الإسلامية تُعرَض من خلال المطبوعات العديدة، في السجون الأمريكية سمحت الحكومة الاتحادية بتخصيص أماكن لمن يَعتنِقون الإسلام من النزلاء لأداء صلاة الجمعة، كذلك تُقدِّم لهم وجبات الطعام الخالية من الخنزير، ويسمح لهم بصوم رمضان، وتُقدِّم لهم وجبات الطعام بتوقيت يتلاءم مع تلك الفريضة .الأسطول الأمريكي طلب مساعدة قادة المسلمين في اختيار الكتب الإسلامية لتوزيعها على" وعَّاظ "الأسطول لمساعدتِهم في تعليم الأعداد المتزايدة من المسلمين في سلاح البحرية.

المجلس الوطني للكنائس في الولايات المتحدة أدرك منذ سنوات أهمية الإسلام في أمريكا، فأقام وحدة خاصة للعلاقات الإسلامية النصرانية، مهمتُها تنمية التعاون مع المسلمين، وهناك عدد من المسلمين ممثَّلون في مجالس هذه الوحدة كأعضاء مراقبين، تَعقِد هذه الوحدة عدة اجتماعات سنويًّا؛ حيث يتباحث المسلمون مع قادة الكنيسة في مسائل التعاون المشترك بينهما.

مستقبل الإسلام في الولايات المتحدة يبدو مشرقًا وواعدًا جدًّا، لقد حافظ الآباء المؤسِّسون على عقيدتهم، ونقلوها بأمانة إلى أبنائهم، ولقد دبَّت دماء جديدة في الجماعة الإسلامية في الولايات المتحدة مع قدوم مهاجرين جدد، لديهم خبرة بالثقافة الإسلامية، ووعي بالعقيدة الإسلامية، والتزام بالطريقة الإسلامية في الحياة، يُمثِّل هؤلاء طاقاتٍ جديدةً، وأملاً جديدًا، ويَسعون لتحقيق أهداف

ستُعيد تشكيل صورة الحياة الدينية في أمريكا.(٣٢٩).

١ - التجمع الإسلامي بأمريكا الشمالية :

التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية أحد المؤسسات الإسلامية في العالم الغربي ، ويقوم بدور كبير في حياة المسلمين المقيمين في هذه المجتمعات ، فمن أولويات الدعوة الإسلامية في العالم الغربي الحفاظ على الأقليات المسلمة ، ورعاية هويتها ، وتوفير الخدمات الاجتماعية والعلمية ، ودعوة غير المسلمين للإسلام ويقوم برعاية برامج الدعوة والتعليم والإعلام

ورغم تواضع الإمكانيات إلا أنه يحقق أثرا مشهودا ، ويمتد نفعه إلى العالم العربي والإسلامي في عدد من جوانب التوعية والثقافة وبقاء الصلة بين المسلمين في الشرق والغرب .

والتجمع الإسلامي الذي تأسس عام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م ، يهدف إلى تأصيل المعرفة بالإسلام والدعوة له وجمع الشمل عليه ، وقد انتفع عدد كبير من المسلمين وغيرهم باحد مشروعات التجمع أو إصداراته ، والأعمال المتنوعة التي يرعاها ، فهذا بصره الله بالحكم الشرعي عبر خط الفتوى المجاني ، وذاك اهتدى إلى الإسلام أو حسن إسلامه عن طريق مكتبة السجين ، وهذه عائلة بأكملها تأوي إلى مؤتمر التجمع السنوي بحثا عن الجو الإسلامي والتبصر بقضايا المسلمين ، وتلك مساجد ومراكز ترقب موعد اللقاءات والمخيمات لتحقيق التواصل الأخوي والتواصي على الحق والصبر ، ومن لم يسعقه الحضور والمشاركة فإن مكتب التجمع يوفر أغلب تلك المواد .

وأعداد من المسلمين في الولايات المتحدة وكندا ودول أخرى وصلتها كتب التجمع المتميزة في موضوعاتها ، ومجلة "المنار الجديد " تقدم الثقافة الإسلامية ، وصفحات التجمع وإذاعته ومجلة المنار ومجلة العصر الإلكترونية ، وموقع طريق الإسلام ، تعرض خدماتها وموادها للمسلمين على شبكة الإنترنت ليستفيد منها المسلمون من مختلف البقاع

والتجمع مؤسسة دعوية غير ربحية ، مسجلة في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، يقوم عليها نخبة من أهل العلم والخبرة ، ويقع مقر التجمع الرئيسي في مدينة "آن آربر" بولاية ميتشيجان الأمريكية، وقد اهتم التجمع بالوقف وشكل مؤسسة للوقف ستدخل في مشاريع استثمارية ، وأنشأ التجمع إذاعة إسلامية على شبكة الاتصالات الدولية "الإنترنت" ، وبدأ بثها في الأول من شهر يونيو ١٩٩٩م ، وقامت بعض المؤسسات والصفحات الإلكترونية بوضع بعض برامج الإذاعة وخاصة الإخبارية منها على صفحاتها الخاصة ، هذا إلى جانب إذاعة طريق الإسلام باللغة العربية والتي بها أكبر مكتبة صوتية على الإنترنت وتشمل صفحاتها عددا أكبر من اللغات المختلفة ، وأسس التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية مشروع مكتبات السجون سعيا للتعريف بالإسلام وجمعا للجهود الفردية في هذا الشأن للدعوة بين المساجين علما أنهم من أكثر فئات المجتمع إقبالا على الإسلام .

وتحوي مكتبة السجين نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم وتفسيرها باللغة الإنجليزية ، وسبعة من الكتب ، وأثنى عشر شريطا صوتيا تتناول المبادئ العامة والمفصلة التي يحتاجها المسلم الجديد في أمور العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات ، بلغة وأسلوب ميسر ، بالإضافة إلى اشتراك سنوي في مجلة الجمعة الإسلامية التي تصدر شهريا باللغة الإنجليزية ، ولقد تم توزيع أكثر من ٤٠٠

٣٢٩ - نشرت في مجلة الأمة العدد الثالث والأربعون السنة الرابعة رجب ١٤٠٤هـ نيسان (أبريل) ١٩٨٤م.
رابط الموضوع http://www.alukah.net/world_muslims/0/65705/#ixzz3nOElBjNd :

مكتبة على مختلف السجون في أمريكا الشمالية .

وأنشئ مركز البحوث والفتوى استجابة للحاجة الملحة للتأصيل الشرعي وتعريف المسلمين بدينهم .

ولقد قام المركز باستكتاب نخبة من العلماء والكتاب في عدد من القضايا المعاصرة ، كان من أبرزها البحوث والرسائل التي قدمها وفد التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية .

ويعقد التجمع في مقره الرئيسي في مدينة آن أربر ، ندوة شهرية تتناول عددا من القضايا الشرعية والفكرية والدعوية المعاصرة ، وتشارك بعض المراكز والمساجد من أمريكا وكندا في الندوة عن طريق الهاتف . ويحرص التجمع في الكتب التي يصدرها على تغطية الموضوعات التي تحتاجها الساحة الدعوية في هذه القارة خاصة ، وفي بلاد المسلمين عامة ،وصدر من هذه الكتب مجموعة باللغة الإنجليزية ومجموعة باللغة العربية .

ومن أبرز أعمال مركز البحوث والفتوى ومشاريعه في الوقت الحاضر ، الخط الهاتفي المجاني للفتوى . وقد بدأ الخط في استقبال أسئلة واستفسارات المسلمين والرد عليها من قبل بعض أهل العلم على رقم مجاني منذ عام ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥ وحتى الآن ، كما يستضيف التجمع بعض العلماء والمشايخ والدعاة على الهاتف للمحاضرة أو تلقي الأسئلة والفتاوى ، ويكون ذلك بالمشاركة والتنسيق مع المساجد والمراكز الإسلامية في مختلف أنحاء أمريكا الشمالية .

ويستقبل الخط أسئلة المسلمين واستفساراتهم للعام السادس على التوالي ، ويقدم خدماته لمدة ثماني ساعات أسبوعيا ، كما يقدم التجمع في إطار سعيه لنشر العلم الشرعي عددا من المنح الدراسية في الجامعة الأمريكية المفتوحة وغيرها ، وقد قدم أربع منح دراسية إلى الآن لطالبين وطالبتين

ومن أبرز مظاهر تماسك المسلمين وتواصلهم في الغرب اللقاءات والمؤتمرات الإسلامية التي تجمعهم وتحقق بعض معاني الإخاء والجسد الواحد ، وقد حرص التجمع منذ تأسيسه على جمع المسلمين والسعي لتجديد النظر في قضاياهم والمساهمة في حل مشكلاتهم .

ويعتبر المؤتمر السنوي وسيلة للتعليم والتوجيه العام وأسلوبا للتآلف والتواصل بين جمهور المسلمين في أمريكا وكندا وغيرها من بلاد الغرب ، وبين أهل العلم وأصحاب الخبرات والتجارب ، ممن يدعوهم التجمع لحضور مؤتمره السنوي ، تعزيزا للجهود والمساعي في مجالات التوعية والترشيد والتوجيه ، ويعقد في فترة الإجازات الرسمية ، ويقام في إحدى المدن التي يكثر فيها المسلمون ويسهل الوصول إليها ، تعميما للنفع .

وتنقسم البرامج في المؤتمر السنوي إلى : البرنامج العربي للرجال والنساء . والبرنامج الإنجليزي للرجال والنساء . وبرنامج الناشئة للفتيان ، وبرنامج الناشئة للفتيات

وتستمر وقائع المؤتمر أربعة أيام متوالية تقدم خلالها المحاضرات والندوات والدورات والبرامج المتخصصة في المجالات المختلفة ، والتي يقدمها عدد من العلماء وطلاب العلم والدعاة المختصين ، كما يستضيف المؤتمر عددا آخر من المشايخ ورجال الدعوة والفكر والمثقفين لحضور المؤتمر والمشاركة في فعالياته .

كما يضم المؤتمر سوقا يجمع كثيرا مما يحتاجه المسلمون في هذه البلاد ، كالمكتبات وبرامج

الحاسب الآلي والألبسة والهدايا ، فضلا عن هيئات الإغاثة والمؤسسات العلمية والدعوية والسياسية والاجتماعية وغيرها .

ويقيم التجمع لقاءا موسعا في كندا في كل عام ، ويكون في إحدى المدن الرئيسية بالتعاون مع أحد المساجد الكبيرة ، ويحضر اللقاء عادة ٢٠٠ – ٣٠٠ شخص من المدينة التي يعقد فيها اللقاء وما حولها من المناطق والمدن ، ويستمر اللقاء عادة ٣ – ٤ أيام ، ويحضار فيه عدد من طلبة العلم والدعاة .

وفي كل عام يقيم التجمع عددا من المخيمات والدورات الشرعية واللقاءات العلمية ، في مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، وذلك لنشر العلم الشرعي والدعوة إلى الله بين المسلمين في هذه الولاية ويقدم هذه الدورات عدد من المشايخ وطلاب العلم والدعاة من داخل القارة الأمريكية الشمالية وخارجها وتعالج تلك اللقاءات قضايا العقيدة وقضايا الاعتقاد والسلوك ، والمشكلات الاجتماعية والفقهية وغيرها من الشؤون المعاصرة ، وعادة ما تعقد هذه اللقاءات في فترات العطل الأسبوعية والرسمية ، ويكون عدد المشاركين فيها في المتوسط ما بين ١٠٠ – ٣٠٠ شخص من الرجال والنساء من المسلمين العرب والأمريكيين وغيرهم .

كما يساعد التجمع المراكز الإسلامية والمساجد في ترتيب بعض البرامج واستضافة المتحدثين من الخطباء والتنسيق معهم في ذلك بصفة دائمة .

وتتراوح تكلفة اللقاء الواحد ما بين ٣٠٠٠ – ٥٠٠٠ دولار (يسعى التجمع أن يعقد في كل عام ١٢ لقاء ، مما يجعل القيمة التقديرية لمتوسط تكلفة هذه اللقاءات ٤٨.٠٠٠ دولار سنويا) .

وقد أصدر التجمع مجلة المنار الجديد www.almanar.netوهي مجلة فصلية فكرية ومجلة "العصر (www.alasr.ws) "وهي مجلة تحليلية إلكترونية تقوم على متابعة الأحداث والقضايا الراهنة خاصة ذات الصلة بالأمة الإسلامية ومعالجتها من منظور إسلامي

ويصدر قسم التسجيلات عددا من الأشرطة سنويا يعلن عنها في قوائم إصداراته ، وتشمل هذه القوائم أشرطة المؤتمرات السنوية للتجمع وبعض المخيمات واللقاءات الدورية ، كما تصدر ألبومات خاصة بالموضوعات الشرعية والدعوية التي يحتاجها المسلمون ، وقد بلغ عدد ما أنتج أكثر من ٢٥٠ شريطا.(٣٣٠).

٣٣٠ - موقع إسلام ويب http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=4156

المبحث الرابع عشر

دور الثقافة في التنسيق بين الشرق والغرب

لقد وثقت الثقافة الإسلامية العلاقة بين الشرق والغرب وذلك لإيجاد أرضية مشتركة للتفاهم بينهما ، (وكانت نقاط التواصل بين أوروبا والأراضي الإسلامية متعددة، فقد انتقلت المعارف الإسلامية بكثافة إلى أوروبا عن طريق صقلية والأندلس، وبالأخص في طليطلة على يد جيراردو الكريموني بعد أن استولى الإسبان المسيحيون على المدينة عام ١٠٨٥). وفي صقلية، بعد ضم المسلمون الجزيرة عام ٩٦٥، واستعادها النورمان مرة أخرى عام ١٠٩١، تولّدت ثقافة نورمانية عربية، التي رعاها حكام أمثال روجر الثاني ملك صقلية، الذي كان لديه جنود وشعراء وعلماء مسلمين في بلاطه. ويعد كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي كتبه العالم الجغرافي الإدريسي للملك روجر أحد أعظم المخطوطات الجغرافية في العصور الوسطى(٣٣١) ، كان للحملات الصليبية أيضًا دورها في تبادل المعرفة بين أوروبا وبلاد الشام، وبالأخص الجمهوريات البحرية التي لعبت دورها في هذا التبادل، حتى أن مدنًا كأنطاكية اختلطت فيها الثقافتين العربية واللاتينية بشدة(٣٣٢)

خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، رحل العديد من المسيحيين إلى الأراضي الإسلامية لطلب العلم، أمثال ليوناردو فيبوناتشي وأديلارد أوف باث وقسطنطين الإفريقي .أيضًا خلال القرون الحادي عشر إلى الرابع عشر، درس العديد من الطلبة الأوروبيين في مراكز العلم الإسلامية لدراسة الطب والفلسفة والرياضيات والعلوم الأخرى (٣٣٣)

التبادل العلمي والثقافي :

التبادل العلمي والثقافي يعدّ أحد الوسائل المهمة والمختلفة للتنصير. وتقوم معاهدات واتفاقيات ثقافية بين بلاد المسلمين والبلاد الأجنبية يكون نصيب المسلمين ومنها غالبا عرض " الفلوكلور الشعبي " من رقص وغناء ولباس الذكور والإناث، وأكلات شعبية وصناعات يدوية ونحوها، وقد يسمح بتوزيع كتيبات ونشرات وشرائح وأفلام عن البلاد العارضة ونهضتها المادية. ويكون نصيب البلاد الأجنبية إقامة المراكز الثقافية الدائمة، واستقطاب رجال الفكر والثقافة من أبناء البلاد نفسها، وجلب المحاضرين من مفكرين وأساتذة جامعات ورجال سياسة وقانون.

وتعمل هذه المراكز على إيجاد قوائم للمراسلة، وتتابع ذوي التأثير على المجتمع وتزودهم بالمطبوعة والنشرات والأشرطة المسموعة والمرئية المسموعة، وتدعوهم للمناسبات الاجتماعية والوطنية، وبعضهم للدينية النصرانية التي تمر على بلادهم. وكل هذه وسائل تتغير وتتبدل وتطوع بحسب ما يقتضيه المقام ، ويتناسب مع الأشخاص المستهدفين.

ولعل معظم أوجه النشاط الفني والرياضي تدخل في المفهوم العام للتبادل الثقافي، وهناك خطوات عملية فنية ورياضية واضحة فيه رائحة التنصير. وتستغل هذه المعاهدات الثقافية للوصول إلى أوساط الشباب من خلال أوجه النشاط الرياضية الدولية والإقليمية والمحلية، توزع فيها النشرات والأشرطة والكتاب المقدس. وتحشد الميزانيات

---

٣٣١ - موقع : https://ar.wikipedia.org/wiki

٣٣٢ - موقع : https://ar.wikipedia.org/wiki

٣٣٣ - ويكيبيديا الموسوعة الحرة https://www.google.com/search?client=opera&q

الهائلة لهذه الوسيلة. ويظهر هذا بجلاء في المباريات الدولية، حيث يحضرها مئات الآلاف ويشاهدها مئات الملايين. حتى لو لم يصل الأمر إلى هذا التصور الواضح، فإن استغلال هذه المباريات بالتنصير لا يمكن تجاهله.(٣٣٤)

مع أن التبادل الثقافي والعلمي بين المسلمين ونصارى أوربا قد بدأ قبل ذلك بكثير، لا سيما في عهد الخليفة العباسي " هارون الرشيد " (ت ١٨٢ هـ) ، و " المأمون: (ت ٢٣٠ هـ) (٣٣٥)

انحراف البعثات العلمية عن أغراضها الحقيقية التي بعثت من أجلها، وعدم الاستفادة من الحقائق العلمية سواء كان في مجال التسلح وصناعة الأسلحة والتدريب عليها أو في مجال التقنية العلمية، والاكتفاء بالانجراف في تيار الفساد الخلقي والاجتماعي، وهذا يعود بالوبال والخسران على المجتمع الإسلامي بعامة.

هذه هي أهم العوامل الداخلية التي أدت إلى إضعاف الروح الإسلامية في نفوس أبنائها. أما العوامل الخارجية فسيأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى مفصلا في موضوع التيارات المعادية للإسلام.

ولكن المسلمين بما أوتوا من عقيدة التوحيد الصافية السائغة، وبما تعهد الله سبحانه من حفظ كتابه العظيم الذي هو النبع الخالد للإسلام عقيدة ومنهج حياة، فإنهم سيتغلبون على كل قوة مادية مهما عظمت وسيحطون كل الوسائل التي توجه لطعنهم.. وسينتصرون على جميع دعاة البغي والعدوان مهما تآزرت ضدهم، بشرط أن يتحصن المسلمون بثقافتهم الإسلامية وأن يعتزوا بقيمهم ومبادئهم وأن ينقلوا تعاليم دينهم إلى الواقع العملي فيطبقوها على أنفسهم وعلى مجتمعهم.(٣٣٦).

ابن حزم الأندلسى :

تحدث المفكر أ/ أحمد أمين فى موسوعته ، عن العلامة " ابن حزم " فقال : وكان هناك العالم الكبير " ابن حزم الأندلسى" الذي تأثر بأستاذه أبي علي الفارسي (٣٣٧) .. وقد تعلم ابن حزم الحديث وتبحر فيه .. وهو مؤسس المذهب الظاهري وقد قارب ابن حزم في عصره " عبد الواحد المراكشي " ، ويعتبر ابن حزم أشهر علماء الأندلس إلى اليوم ، قال فيه الغزالي بعدما قرأ له كتاب في " أسماء الله الحسنى " : (إنه يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه) .. عاش ابن حزم ٧٢ سنة وتوفى عام ٤٥٦ ، ومن كتبه : " الفصل في الملل والنحل " هاجم فيه الفرق الإسلامية ، بل هاجم اليهودية والنصرانية ، واستغل العقيدة الإسلامية بأن التوراة والإنجيل حرفا عن أصليهما استغلالا عظيماً ، وحاول بكل إمكانه أن يجد تناقضاً في كتبهم ، ليبرر اتهامهم في تحريف النصوص (٣٣٨)

إن اليهود والنصارى بدلوا التوراة والإنجيل ، وألا يرجعوا إلى الحمق ويكذبوا ربهم جل وعز ، ويصدقوا اليهود والنصارى فيلحقوا بهم ، ويكون السؤال عليهم كلهم حينئذٍ واحدًا (٣٣٩) ورؤساء

---

٣٣٤ - التنصير، مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته - علي بن إبراهيم الحمد النملة ، ج١/٨٧-٨٨ ، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ .
٣٣٥ - مراكز الترجمة القديمة عند المسلمين - علي بن إبراهيم النملة: الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٢ هـ.
٣٣٦ - أضواء على الثقافة الاسلامية- الدكتورة نادية شريف العمري ، ج١/٤٨ ، الناشر: مؤسسة الرسالة - الطبعة: التاسعة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
(٣٣٧) ولد بفسا وقدم بغداد فاستوطنها ، وكان عالماً في النحو ، وسمع شيئاً من الحديث فروى عنه الجوهري والتنوخي ، وقد اتهمه قوم بالاعتزال ... (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - لابن الجوزي ١٣٨/٧) .
(٣٣٨) ظهر الإسلام، ٥٢/٣ - ٥٧ .
(٣٣٩) الفصل في الملل والأهواء والنحل - لابن حزم ، ١٦٠/١ .

اليهود هم الذين تولوا تحريف التوراة .. (٣٤٠) . وقال الألباني : " لا يوثق بكتب أهل الكتاب وذلك لما طرأ عليها من التحريف والتبديل ، وهذا ما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه " (٣٤١) حيث قال : " لقد ذم الله أهل الكتاب لأنهم حرفوا الكلم عن مواضعه أقبح تحريف ، وكتبوا كتب النفاق والإلحاد بأيديهم ، وزعموا أنها من عند الله ... الخ " (٣٤٢) . وهذا يشير إلى قوله تعالى:﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ النساء: ٤٦

وبهذا قد تبين لك أن اليهود والنصارى قد حرفوا التوراة والإنجيل ، ولم يكن هذا استغلالاً من ابن حزم – كما زعم أ/ أحمد أمين .

العلامة ابن حزم – رحمه الله – :

قال : (لم يخضع كتابه : " الفصل في الملل والنحل " للمنطق الدقيق .. ثم يناقض نفسه ويقول : والقارئ له يدهش من طول نفسه ، وقوة حجته وسعة اطلاعه وبلاغته .. ثم يشوه صورته فيقول : والإنسان يعجب كيف يؤلف ابن حزم كتاباً مثل هذا وكان مترفاً يعيش في القصور وبين الجواري .. ربما ساعده على ذلك أنه كان ذا عقل لاقط يرى كل شيء فيفهم سره ، حتى دلال الجواري ومغازلتهن) (٣٤٣) . وأقول : إن محمد بن موسى الذي كتب مخطوطة ابن حزم هذه لم يذكر اسم ابن حزم إلا قال : " رضي الله عنه " (٣٤٤).لأن ابن حزم من العلماء المشهورين الورعين ، يتنزه عن الغزل في الجواري ، وليس كما ذكر أ/ أحمد أمين .. ثم أتساءل كيف للأستاذ أحمد أمين أن ينقد من هو أعلم منه ؟ ولا ينكر ذلك عاقل .. كيف وهو صاحب مذهب فقهي معروف يسمى بمذهب الظاهرية ؟ روى الدارمي عن مكحول مرسلاً قال : فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم " ثم تلا هذه الآية : قال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ فاطر: ٢٨(٣٤٥).

وإن كان ابن حزم قد ألف " طوق الحمامة " فليس معنى ذلك أنه مارس ما ذكره فيه ، وليس معنى ذلك – أيضاً – أن من يكتب عن السعار الجنسى الغربى أن يكون مارسه .

أ/ أحمد أمين : يزعم أن ابن حزم كان يطعن في العلماء الكبار :

قال عنه أ/ أحمد أمين : ما يعاب عليه حقاً ، حيث زعم أن ابن حزم كان يطعن في العلماء والكبار بكل صراحة مع التجريح الشديد (٣٤٦) . فابن حزم – رحمه الله – قلت : إنه من العلماء ، والعالم لا يكون عالماً ، إلا إذا هذبه العلم وحسن سلوكه .. كيف يجرح ويشتم العلماء الكبار .. والعلم رحم بين أهله ، وكيف يشتم ويجرح وهو يعلم ما قاله أنس:لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا لعاناً ولا سباباً ،

---

(٣٤٠) تفسير أبي السعود ١١٦/١ ، الناشر: دار إحياء التراث ، بيروت .
(٣٤١) التوسل أنواعه وأحكامه - محمد ناصر الدين الألباني ١١٤/١ ، ط. الثالثة ، تحقيق : ألف بينها ونسقها محمد عيد العباسي . ، الناشر : المكتب الإسلامي بيروت .
(٣٤٢) مجموع الفتاوي ٢٠٠/٢ .
(٣٤٣) ظهر الإسلام ، ٣/ ٥٧ - ٥٨ .
(٣٤٤) انظر مقدمة : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ١/ ١٠ .
(٣٤٥) مشكاة المصابيح ٤٦/١ وقال الألباني : حسن .
(٣٤٦) ظهر الإسلام ، ٣/ ٥٩ .

كان يقول عند المعتبة : ((ما له ترب جبينه)) (٣٤٧). ويعلم حديث الرسول ﷺ ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)) (٣٤٨) .

إن ابن حزم كان عالماً كبيرا له معارف بعلوم شتى (واهتم الكُتَّاب المسلمون بالأديان والمذاهب؛ فكان ابن حزم الأندلسي مُلمًّا بالإنجيل واللاهوت المسيحي إلمامًا تامًّا) (٣٤٩).

أبو محمد علي بن حزم الأندلسي 30 رمضان 384 هـ 7 / نوفمبر994 م.قرطبة 28 -شعبان456 هـ 15 / اغسطس1064 م ولبة، يعد من أكبر علماء الأندلس وأكبر لماء الإسلام تصنيفًا وتأليفًا بعد الطبري، وهو إمام حافظ .فقيه ظاهري، ومجدد القول به، بل محيي المذهب بعد زواله في الشرق .ومتكلم، أديب، وشاعر، ونسابة ، وعالم برجال الحديث ، وناقد محلل، بل وصفه البعض بالفيلسوف. وزير سياسي لبني أمية، سلك طريق نبذ التقليد وتحرير الأتباع. قامت عليه جماعة من المالكية وشُرد عن وطنه. توفي في منزله في أرض أبويه منت ليشم المعروفة بمونتيخار حالياً، وهي عزبة قريبة من ولبة. (٣٥٠).

مجتهد مطلق، وإمام حافظ، كان شافعي الفقه، فانتقل منه إلى الظاهرية، وافق العقيدة السلفية في بعض الأمور من توحيد الأسماء والصفات وخالفهم في أخرى وكل ذلك كان باجتهاده الخاص، وله ردود كثيرة على الشيعة واليهود والنصارى وعلى الصوفية والخوارج.

أصلَّ ابن حزم ما يعرف عادة بالمذهب الظاهري وهو مذهب يرفض القياس الفقهي الذي يعتمده الفقه الإسلامي التقليدي، وينادي بوجوب وجود دليل شرعي واضح من القرآن أو من السنة لتثبيت حكم ما، لكن هذه النظرة الاختزالية لا توفي ابن حزم حقه فالكثير من الباحثين يشيرون إلى أنه كان صاحب مشروع كامل لإعادة تأسيس الفكر الإسلامي من فقه وأصول فقه.

كان الإمام ابن حزم ينادي بالتمسك بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة ورفض ما عدا ذلك في دين الله، لا يقبل القياس والاستحسان والمصالح المرسلة التي يعتبرها محض الظن. يمكن أن نقلّص من حدّة الخلاف بينه وبين الجمهور، حول مفهوم العلة وحجيتها، إذا علمنا أن كثيرًا من الخلاف قد يكون راجعا إلى أسباب لفظية أو اصطلاحية وهو ما أشار إليه ابن حزم بقوله.(٣٥١)

هذا هو ابن حزم وليس كما يزعم أحمد أمين .

" ابن رشد " رحمه الله :

وصف أ/ أحمد أمين ، إيمان ابن رشد بإيمان الفلاسفة : ثم أخذ يتساءل قائلاً : هل كان ابن رشد مؤمناً ؟ يشك بعض المستشرقين في إيمانه ، ونحن نرى أنه كان مؤمناً إيمان الفلاسفة .. وإيمان الفلاسفة من جنس آخر .. ليس كإيمان العامة المتأثر بالدين .. أما الخاصة من الفلاسفة فإنهم يضبطهم عقلهم أكثر مما يضبطهم الدين .. (٣٥٢) . وأقول : كيف يكون ابن رشد فقيهاً ورعاً ليس مؤمناً عن طريق

---

(٣٤٧) صحيح البخاري ٢٢٤٧/٥ ، كتاب الأدب ، باب ما ينهى من السباب واللعن ، رقم الحديث : ٥٦٩٩ .
(٣٤٨) المصدر السابق ج٢٧/١ ، كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم الحديث : ٤٨.
٣٤٩ - أصول الدعوة وطرقها ٣- كود المادة: IDWH3033 - المرحلة: بكالوريوس - مناهج جامعة المدينة العالمية – ج٢٦٦/١ ، الناشر: جامعة المدينة العالمية.
٣٥٠ - موقع : https://ar.wikipedia.org/wiki
٣٥١ - موقع : https://ar.wikipedia.org/wiki
(٣٥٢) ظهر الإسلام ، ٢٦١/٣ - ٢٦٢ .

العقل والشرع .. ، ويزعم أ/ أحمد أمين إنه كان مؤمناً إيمان الفلاسفة ، أي إيمان ما توصل إليه عقله فقط. لقد درس – ابن رشد – الفقه حتى برع فيه ، وأقبل على علم الكلام والفلسفة وعلوم الأوائل حتى صار يضرب به المثل فيها (٣٥٣) وبين أ/ أحمد أمين أن شهرة ابن رشد في الفلسفة ترجع إلى عدة أمور :

قوة شخصية ابن رشد .

- **تلمذة اليهود له ، ونشاطهم في نشر مذهبه .**
- **استعداد الوسط النصراني واليهودي إذ ذاك للتفلسف ، وحاجتهم إليه .. (٣٥٤) .**

وهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي القرطبي، ولد سنة ٥٢٠ هجرية، اشتهر بالطب والفلسفة والرياضيات والفلك، توفي سنة ١١٩٨ ميلادية.

سيرته:

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي القرطبي، ولد سنة ٥٢٠ هـ. وقد اشتهر في العلوم الفلسفية والطبية.

كان فيلسوفا، طبيباً، وقاضي قضاة.. كان نحويا. لغوياً، محدثاً بارعاً يحفظ شعر المتنبي وحبيب ويتمثل به في مجالسه.. وكان إلى جانب هذا كله. متواضعاً، لطيفاً، دافئ اللسان، جم الأدب، قوي الحجة، راسخ العقيدة، يحضر مجالس حلفاء "الموحدين" وعلى جبينه أثار ماء الوضوء.

لم يكن "ابن رشد" غمراً مبتوت النسب، فوالده وجده وُلِّيا قبله قضاء "قرطبة"، المدينة التي أحبته وعشقها.

لم يجلس "ابن رشد" على عرش العقل العربي بسهولة ويسر، فلقد أمضى عمره في البحت وتحبير الصفحات، حتى شهد له معاصروه بأنه لم يدع القراءة والنظر في حياته إلا ليلتين اثنتين: ليلة وفاة أبيه وليلة زواجه.

لا، لم يكن "أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الأندلسي، من المتسلقين وطلاب الشهرة. ولكنه كان من المؤمنين "بالكمال الإنساني" عن طريق المعرفة.. فعنده أن تمييز الإنسان بالمخلوق العاقل الناطق تتم لنسبة ما يحصله من عتاد ثقافي معارفي.

أخذ الطب عن أبي جعفر هارون وأبي مروان بن جربول الأندلسي. ويبدو أنه كان بينه وبين أبي مروان بن زهر، وهو من كبار أطباء عصره، مودّة، وأنه كان يتمتع بمكانة رفيعة بين الأطباء. وبالرغم من بروز ابن رشد في حقول الطب، فإن شهرته تقوم على نتاجه الفلسفي الخصب، وعلى الدور الذي مثّله في تطور الفكر العربي من جهة، والفكر اللاتيني من جهة أخرى.

عكف فيلسوفنا على نصوص "المعلم الأول" يستجليها ويلخصها، حتى اقتنع بأنها الفلسفة الحقة، والحكمة الكاملة الواقية، وهنا استقر رأيه على مشروعين: أولهما التوفيق بين الفلسفة والشريعة وتصحيح العقيدة مما علق بها –في ظنه– من مخالطات المتكلمين و "تشويش" الإمام الغزالي بالذات

(٣٥٣) تاريخ الإسلام للذهبي ، ٤٢٣٩/١ .
(٣٥٤) ظهر الإسلام ، ٣/ ٢٦٤ .

(١١٧٦ – ١١٨٢)، وثانيها تطهير فلسفة أرسطو مما شابها من عناصر غريبة عنها، والمضي بها قدماً. عن طريق طرح الحلول لمشاكل مستقبلية قد تعترض سبيلها (١١٨٢ - ١١٩٤).

تولّى ابن رشد منصب القضاء في أشبيلية، وأقبل على تفسير آثار أرسطو، تلبية لرغبة الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف، وكان قد دخل في خدمته بواسطة الفيلسوف ابن الطفيل، ثم عاد إلى قرطبة حيث تولى منصب قاضي القضاة، وبعد ذلك بنحو عشر سنوات أُلحق بالبلاط المراكشي كطبيب الخليفة الخاص.

لكن الحكمة والسياسة وعزوف الخليفة الجديد (أبو يوسف يعقوب المنصور ١١٨٤ - ١١٩٨) عن الفلاسفة، ناهيك عن دسائس الأعداء والحاقدين، جعل المنصور ينكب فيلسوفنا، قاضي القضاة وطبيبه الخاص، ويتهمه مع ثلة من مبغضيه بالكفر والضلال ثم يبعده إلى "أليسانه" (بلدة صغيرة بجانب قرطبة أغلبها من اليهود)، ولا يتورع عن حرق جميع مؤلفاته الفلسفية، وحظر الاشتغال بالفلسفة والعلوم جملة، ما عدا الطب، والفلك، والحساب.

كانت النيران تأكل عصارة عقل جبار وسحط اتهام الحاقدين بمروق الفيلسوف، وزيغه عن دروب الحق والهداية... كي يعود الخليفة بعدها فيرضى عن أبي الوليد ويلحقه ببلاطه، ولكن قطار العمر كان قد فات إثنيهما فتوفي ابن رشد والمنصور في السنة ذاتها (١١٩٨ للميلاد)، في مراكش.([٣٥٥])

من مؤلفات ابن رشد :

تقع مؤلفات ابن رشد في أربعة أقسام: شروح ومصنفات فلسفية وعملية، شروح ومصنفات طبية، كتب فقهية وكلامية، وكتب أدبية ولغوية.

أحصى جمال الدين العلوي ١٠٨ مؤلف لابن رشد، وصلنا منها ٥٨ مؤلفاً بنصه العربي. وابن رشد كان قد كتب المقالات، وألف الكتب، وشرح النصوص الكثيرة ولكنه اختص بشرح كل التراث "الأرسطي". وشروحه على أرسطو تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

مختصرات وجوامع: وهي عبارة عما فهمه ابن رشد من "أرسطو" دون أن يتعلق الشرح بالنص مباشرة.

تلاخيص: وتسمى أيضاً شروح صغرى: وهي عبارة عن مواكبة أرسطو دون إيراد متونه.

شروح كبرى: وفيها يورد ابن رشد قول الحكيم، ثم يأتي بالشرح المسهب – وهاهي بعض الكتب المؤلفات المهمة بتواريخ كتابتها التقريبية:

الكليات ١١٦٢: كتاب في أصول الطب

بداية المجتهد ونهاية المقتصد ١١٦٨: كتاب في أصول الفقه

تلخيص القياس ١١٦٦: شرح صغير

تلخيص الجدل ١١٦٨: شرح صغير

---

[٣٥٥] - موقع : https://www.facebook.com/MonaElRo7/posts/506679229390826

جوامع الحس والمحسوس ١١٧٠

تلخيص الجمهورية ١١٧٧: وهو تلخيص "لجمهورية أفلاطون". أصله العربي مفقود ولكنه ترجم في ١٩٩٩

مقالة في العلم الإلهي ١١٧٨

فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ١١٧٨: وهو تأصيل لشرعية الفلسفة. من أشهر كتبه

الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ١١٧٩: يحاول تصحيح العقيدة الإسلامية

شرح أرجوزة ابن سينا في الطب ١١٨٠

تهافت التهافت ١١٨١: نقض كتاب الإمام الغزالي المسمى "تهافت الفلاسفة". من أشهر كتبه

شرح البرهان ١١٨٣: شرح كبير على أرسطو

شرح السماء والعالم ١١٨٨: شرح كبير على أرسطو

شرح كتاب النفس ١١٩٠: شرح كبير على أرسطو

شرح ما بعد الطبيعة ١١٩٢ – ١١٩٤: لعله أغنى شروحه، وأكثر إنتاجه إبداعاً. من أشهر كتبه

مؤلفات إضافية: تلخيص كتاب المزاج لجالينوس، كتاب التعرّق لجالينوس، كتاب القوى الطبيعية لجالينوس، كتاب العلل والأعراض لجالينوس، كتاب الحمّيات لجالينوس، كتاب الاسطقسات لجالينوس، تلخيص أول كتاب الأدوية المفردة لجالينوس، تلخيص النصف الثاني من كتاب حيلة البرء لجالينوس، مقالة في المزاج، مقالة في نوائب الحمّى، مقالة في الترياق. [٣٥٦]

[٣٥٦] - موقع : https://www.facebook.com/MonaElRo7/posts/506679229390826

الخاتمة

بعد أن قرأت هذا الكتاب لعلك استفدت ووقفت على جهود الأمة عبر تاريخها وجهودها في نشر الإسلام وما فيه من علوم وحضارة وازدهار، وبتوفيق من الله تعالي فقد شرحت مفردات عنوان البحث ، وتحدثت عن ظهور الإسلام على مسرح التاريخ . ثم بينت حرص الإسلام على نشر العلم والثقافة ، ووضحت انتشار الإسلام عبر الفتوحات ، وذكرت بعض نماذج للفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم في عهد الدولة الأموية ، وفي عهد الدولة العباسية ، ثم جاءت معابر الثقافة إلى الغرب مع الفتح الإسلامي لأسبانيا ، ولكني قبل هذا التفصيل بينت أحوال أسبانيا قبل الفتح الإسلامي لها ، من الجهل والفوضي والطبقية الاجتماعية ، وكذا الموقف المعادي من الكنيسة للعلم والعلماء عندهم ، مما أدي إلى خروج العلماء هناك علي خرافات الكنيسة ، فنشأت العلمانية في الأندلس وغيرها ، وترتب علي ذلك كراهية رجال الدين هناك ، مما كان له أكبر الأثر على الفكر الأوربي ، وأصبح الغرب مهيئا لا ستقبال الإسلام ، البعيد عن الخرافات والمحب للعلم وللعلماء ، وبعد انتشار الإسلام ببلاد المغرب العربي عبرت الثقافة الإسلامية إلى الغرب . ومن أهم وأبرز فروع الثقافة الإسلامية التي ركز الغرب على عبورها إليهم والإفادة منها : الطب والفلك والهندسة والزراعة والصناعة والكيمياء والفيزياء ..... الخ . ثم بدأ التبادل العلمي والرحلات العلمية بين الشرق والغرب .

وأخيرا : أسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف